الدكتور مهدي المخزومي

الدرس النحوي
في بغداد

الدرس النحوي

في بغداد

الدكتور مهدي المخزومي

وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة الكتب الحديثة

(٧١) ــ ١٩٧٤

مقدمة

تردد اسم «البغداديين» كثيرا في اثناء القرن الرابع بازاء الكوفيين والبصريين ، حتى ليخيل للدارس ان البغداديين كانوا يمثلون جماعة ثالثة لهم طريقتهم الخاصة ، ومذهبهم المتميز .

وجاء المتأخرون من النحاة فرأوا اسم «البغداديين» يذكر الى جانب الكوفيين والبصريين ، فذهب بهم الوهم بعيدا ، وراحوا يركبون الصعب في تصوير مذهب ثالث يقف بازاء مذهب أهل البصرة ومذهب أهل الكوفة ، وهو مذهب البغداديين .

ووقع المحدثون والمعاصرون فيما وقع فيه المتأخرون من وهم ، وراحوا يبالغون في تصنيف النحاة حتى تجاوزوا ثلاثة المذاهب الى اكثر من ذلك . وزعموا أن هناك مذهبا أندلسيا وآخر مصريا .

اكبر الظن ان الذاهبين الى وجود مذهب نحوي ثالث يستندون الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، فقد صنف ابن النديم النحاة ثلاث جماعات :

الاولى : جماعة البصريين .

والثانية جماعة الكوفيين .

والثالثة : الجماعة التي خلطت المذهبين ، ويعني بها جماعة النحويين الذين أخذوا عن الكوفيين والبصريين .

ويبدو أن فلوگل الذي حقق الفهرست ونشره هو الذي أوقع المحدثين والمعاصرين في مثل هذا الوهم ، فقد كان نشر له بحث عن المدارس النحوية اشار اليه بروكلمان في « تاريخ الادب العربي » وكوتولدفايل في مقدمة (الانصاف) وعنوان البحث يدل على تعدد المدارس او المذاهب عنده ، وكان الدارسون العرب يصدرون عن هذا في أكبر الظن منذ اتصالهم بكتابات

المستشرقين . وكان كوتولد ڤايل على صواب حين ذكر ان (فلوكل) لابد أن يكون قد عانى كثيرا من الجهد للوصول الى هذه النتيجة ، وهي القول بتعدد المذاهب والمدارس ، وانعام النظر في حقيقة الامر يجعل امثال هذه المحاولات المعاصرة من قبيل الاوهام التي لاوجود لها الا في اذهان اصحابها .

واكبر الظن ان اسم الكوفيين لم يعرف الا في القرن الرابع ،وان الكوفية اسم اخترعه البغداديون الذين أخذوا بمذهب البصريين،وسمّوا أنفسهم بالبصريين تمييزا لانفسهم عن مخالفيهم من البغداديين الذين اخذوا بمذهب البغداديين الاوائل .

أما الكسائي والفراء وثعلب واصحابهم وتلاميذهم فلم يسموا بالكوفيين ، لم يسموا هم انفسهم بهذا الاسم ، ولم يسمهم البصريون الاوائل به أيضا ، لان الكوفة ، مِصْراً،لم تعرف درسا نحويا مستقلا يقف بازاء الدرس البصرى ، ولم تكن منافسة للبصرة في الدرس اللغوي عامة . والمصر الذي وقف ينافس البصرة هو بغداد ، وفي بغداد ومجالس الدرس فيها رسمت حدود الدرس النحوي الجديد الذي وقف بازاء الدرس البصري منافسا قويا ، وهو الدرس الذي سُمّي فيما بعد وفي غضون القرن الرابع بالدرس الكوفي ، وسمي حملته والداعون اليه بالكوفيين ، ولم تخلص الكوفية لاتباع البغداديين الاوائل الا فى العصور المتأخرة ، فلم يزل اكثر الدارسين من اتباع المذهب البصري في القرن الرابع يسمون مخالفيهم بالبغدادية حينا ، وبالكوفية حينا اخر ، ونجد ذلك واضحا في كتابات ابن جني في الخصائص وغيره ، فقد كان يورد اسم البغداديين والكوفيين ، ولم يرد بهما جماعتين مختلفتين ، بل كان يورد احيانا رأيا ينسبه الى البغداديين في موضع ثمّ يورده منسوبا الى الكوفيين في موضع آخر ، كما يأتي بيانه ، وهذا يدل على ان البغدادية والكوفية عند ابن جني جماعة واحدة تقف بازاء البصرية .

ومما يدل على ان البغدادية والكوفية جماعة واحدة أن الدارس لايكاد يقف على خلاف مذهبي بين البغداديين والكوفيين ، وأن الخلاف انما يتمثل فيما بين الكوفيين والبصريين وبين البغداديين والبصريين ، وأن الدارسين المتأخرين الذين عنوا بأمر الخلاف كانوا يعرضون للخلاف بين الكوفيين والبصريين ، ولم يشيروا قط الى خلاف بين البغداديين والكوفيين ٠

فالبغداديون اذن هم الكوفيون ، وطريقة البغداديين في الدرس النحوي هي طريقة الكوفيين ، ولم تمثل البغدادية مذهبا يختلف عن مذهب الكوفية فالمذهب واحد ، والطريقة واحدة ٠

على أن الذين ذهبوا الى وجود مذهب بغدادي كانوا يرسلون مقالاتهم مزاعم ظاهرة التكلف ، كما سيأتي بيانه في ثنايا فصول هذا الكتاب ٠

وبلغ من وهم القائلين بوجود مذهب بغدادي مستقل أن جعلوا في مقدمة البغداديين : ابن قتيبة ، ولم يتلمذ للبغداديين الاوائل او الكوفيين ، ولعل كل ما أوهم هؤلاء هو أنه كان يحكى في كتبه أحيانا عن اوائل البغداديين ، وخاصة الكسائي والفراء ، والحكاية عنهما احيانا لاتكفي أن تجعله من اصحاب مذهب جديد ٠

وبلغ من وهم بعض المعاصرين ان جعل ابا علي الفارسي وابا الفتح بن جني من البغداديين ، مع أنهما كانا يسلكان انفسهما في البصريين ، وينتهجان منهج البصريين ٠

أما مذهب الاندلسيين ، أو مذهب المصريين ، او غيرهما فمذاهب لاوجود لها الا في اوهام القائلين بها ، المرسلين القول مزاعم ومدعيات لاتنهض بها حجة ، ولا يقوم عليها دليل ٠

ولم أجعل عنوان هذا الكتاب : مدرسة بغداد ، أو مذهب بغداد في النحو ، لان مدرسة الكوفة ادق في الدلالة على ما يراد بمدرسة بغداد ، لان البغداديين بعد أبى العباس ثعلب اختلفوا فيما بينهم ، فذهب بعضهم مذهب أهل البصرة كالزجاج وابن السراج وتلاميذهما ، ولزم بعضهم مذهب البغداديين الاوائل او الكوفيين ، كما سمو أخيرا ، كأبى بكر بن الانباري وأبى عمر الزاهد وأبى بكر بن شقير وتلاميذهم ٠

فالدرس النحوي في بغداد منذ بداية القرن الرابع لايمثل اتجاها واحدا او مذهبا واحدا ، بل يمثل اتجاهين مختلفين سارا في خطين متوازيين الى أن تغلب الاتجاه البصري في بغداد في عصورها المتأخرة ، لغلبة الفكر الكلامي والفلسفي على الدرس النحوي حتى لم يعد له صله بالدرس اللغوي ٠

مهدي المخزومي
بغداد في ٢٢ من تموز ١٩٧٤

تمهيد

سار الدرس النحوي منذ اواسط القرن الثاني للهجرة في اتجاهين مختلفين ، كان سيبويه وتلاميذه يمثلون اتجاها ، وكان الكسائي وتلاميذه يمثلون اتجاها آخر ، وكان الدارسون القدماء يعرفون هذا ، ويدركون الاسس المذهبية التي كان عليها الاتجاهان • كان الاتجاه الاول هو اتجاه البصريين الذين سبقوا الى الدرس النحوي ، وكان الاتجاه الثاني هو اتجاه الكوفيين الذين خرجوا الى بغداد وأقاموا فيها •

وكان بين الكوفة والبصرة ، منذ تمصيرهما ، تنافس يقوم على أساس الاقليم أو المصر ، وكانت دوافعه في الغالب سياسية ، فكانت الكوفة منزل الصحابة ، وحفظة القرآن ، وحملة الحديث ، ومعسكر المسلمين ، ومنطلق الجيوش الاسلامية الى الاقطار لنشر الدين الجديد ، وقاعدة الخلافة في عهد علي بن أبي طالب ، ووراء كل هذا عوامل كان لها تأثير كبير في الخلاف بين المصرين ، تلك هي الاختلافات السياسية التي عمقتها طبيعة المجتمع في المصرين ، والاحداث التي وقعت بينهما •

كان عرب الكوفة اكثرهم من اليمانيين ، وعرب البصرة اكثرهم من المضريين، وكان عرب الكوفة أضعف اتصالا بالاجانب من عرب البصرة ، لان عرب الكوفة كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، وقد شغلتهم الفتوحات عن النزوع الى حياة الحضر فلم يشاركوا الجماعات الاخرى التي كانت قوام الحياة لشعب الكوفة ، أما عرب البصرة فكانوا يشاركون غير العرب فيما كانوا يعملون ، ويخوضون معهم فيما كانوا فيه يخوضون •

كان هذا الاختلاف بين طبيعتي المصرين ، والقبائل التي نزلت كلا منهما مثار تنافس جديد ، وتكاثر من نوع خاص يستند الى عصبية أساسها المصر ، حتى صارت القبيلة الواحدة تنزع منزعين مختلفين ، فهناك تميم الكوفة ، وهناك تميم البصرة ، وهناك قيس الكوفة ، وهناك قيس البصرة(١) ، وكأن الروابط القبلية قد تقطعت في القبيلة الواحدة .

كانت الكوفة تكاثر بالبيوتات العربية التي نزلتها ، وهم آل زرارة، الدارميون ، وآل زيد الفزاريون ، وآل ذى الجدين الشيبانيون ، وآل قيس الزبيديون (٢).. وبمن هبط فيها من صحابة الرسول ممن شهدوا بدرا ، ومن أصحاب الشجرة الذين صارت الكوفة بهم «كنز الايمان ، وجمجمة الاسلام ، وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء » (٣) .

وكانت البصرة تكاثر بالرجالات الذين لم ينجب مثلهم مصر فقاهة وبلاغة وتدينا وزهدا وأدبا ، كالحسن البصري ، والاحنف بن قيس ، وطلحة بن عبدالله، ومحمد بن سيرين ، ومالك بن دينار ، والخليل بن احمد .

وشهدت مجالس الخلفاء والامراء كثيرا من المناظرات التي كانت تجري بين وفود من المصرين ، وفي كتب البلدان كثير من الامثلة التي تعرض التنافس بين المصرين الكبيرين .

ثم كانت بغداد ، وصارت قاعدة الخلافة ، فأخذت تجتذب اليها التجار وذوى المال لينشئوا المصر الجديد ويعمروه ، والادباء والشعراء والعلماء واللغويين ليبنوا حضارة وفكرا .

وكان الاوائل من الخلفاء واولادهم من العلماء والادباء والشعراء ، فأبو جعفر المنصور « كان مقدما في علم الكلام ، ومكثرا من كتاب الاثار ، ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم » (٤) .

---

(١) مختصر كتاب البلدان ١٧٠ ليدن .
(٢) مختصر كتاب البلدان ١٧١ ليدن .
(٣) مختصر كتاب البلدان ١٦٣ ليدن .
(٤) البيان والتبيين ٣/٢٩٨ .

وكان ابراهيم بن المهدى معدودا في الشعراء وأهل الفن والموسيقى ، وكان له معرفة بالجدل ، وتصرف في الفقه واللغة ، الا أن الموسيقى والغناء غلبا عليه ، وكان اسحاق الموصلي يقول : « ماولد العباس بن عبدالمطّلب بعد عبدالله بن العباس رجلا أفضل من ابراهيم بن المهدي فقيل له : مع ماتبذل له من الغناء ؟ ! فقال : وهل تم فضله الا بذاك » (٥) .

وكان هارون الرشيد اكثر الخلفاء الذين سبقوه رغبة في العلم واكراما للعلماء ، وكان يحفظ الشعر وينقده ، وكان « يحفظ شعر ذي الرمة حفظ الصبا ، ويعجبه ويؤثره ، فاذا سمع غناء أطربه » (٦) .

أما المأمون فمن فضول القول أن يشار الى علمه وحبه العلماء ، وكان له اهتمام خاص بعلوم اليونان وفلسفاتهم ، وكان يشجع المترجمين ، ويجري عليهم الجرايات ، وأسس مكتبته المعروفة ببيت الحكمة ، فأودع فيها كنوز العلوم العربية ، وكنوزالعلوم الاجنبية ، وبتشجيعه برزت أعمال الكندي فيلسوف العرب ، وأحد العقول البارزة في تاريخ الفكر ، وبتشجيعه ظهرت أعمال الفراء ، فقد ألف له كتاب الحدود ، وأملى تفسيره الكبير : معاني القرآن .

كان تمصير بغداد ، ونموها السريع في العمران والسياسة والاقتصاد ، والحياة العقلية قد استرعى انتباه العلماء والادباء والرواة والشعراء الذين حفل بهم المصران الكبيران ، الكوفة والبصرة ، فشدوا الرحال اليها ، وأخذ النابهون من الدارسين من الافاق البعيدة يهاجرون اليها ويفيدون منها ، ثم يعودون الى ديارهم وعيابهم ملأى بصنوف المعرفة .

وكان الخلفاء انفسهم يشجعون على الاقامة في بغداد ، وربما كانوا يبعثون بأرسل

---

(٥) الاغانى ٩/٤٩ بولاق .

(٦) الاغانى ٥/٣٩ بولاق .

ليحملوا العلماء اليها حملا ، كما فعل المهدي مع علي بن حمزة الكسائي ، فلم يكد يستقر بالكسائي المقام في الكوفة بعد عودته من البوادي حتى ذاعت شهرته العلمية في القراءة واللغة والنحو في بغداد ، فأرسل المهدي لاحضاره الى بغداد ليؤدب اولاده ، ويذيع فيها قراءته ولغته ونحوه ، وعرفت بغداد بقدومه اليها واقامته فيها أول مقرىء للقرآن ، واول علم من اعلام اللغة والنحو ، وكان قدومه اليها وامتداد شهرته في بيئات الدرس ، وتقريب الخلفاء اياه قد حفز نحاة البصرة الى الهجرة الى بغداد وقوى آمالهم في الدنو من الخلفاء .

وكان سيبويه الذي شهر في الدارسين ، وعرف بأنه أنبه تلاميذ الخليل ووارث علمه ، من اوائل البصريين الذين عقدوا النية على الاقامة في بغداد ، غير ان مكانة الكسائي في القراءة واللغة والنحو ، ومنزلته في نفوس الخلفاء حالت دون أن يصل سيبويه الى ما أراد بل قطعت الطريق على الآخرين ، فلم يوفق أحد من منافسيه الى زحزحته أو اضعاف منزلته .

ولم ينجح سعيد بن مسعدة الاخفش فيما اخفق فيه سيبويه الا بعد أن وضع نفسه وعلمه في خدمة الكسائي يصاحبه ويؤدب أولاده ، وكان اخفاق سيبويه مثار خصومة بين البصريين والبغداديين ، فهم في نظر البصريين «حشو عسكر الخليفة» تارة ، ومفسدو اللغة والنحو تارة أخرى .

ولعل ماحدث في مجلس آل برمك من مناظرة بين الكسائي وسيبويه في المسألة المشهورة : « قد كنت أظن أن العقرب اشد لسعة من الزنبور ، فاذا هوهي ، او فاذاهو اياها» انتهت باخفاق سيبويه كان امتدادا لذلك التنافس الذي كان يحدث بين وفود الكوفة والبصرة في مجالس الخلفاء قبل تمصير بغداد، غير أن المناظرة بين الرجلين في هذه المسألة كانت ذات طابع علمي .

ثم تبعت هذه المناظرة مناظرات أخرى بين كوفيين استقروا في بغداد ، وبصريين رغبوا في الاستقرار فيها .

كالمناظرة التي جرت بين الكسائي وأبي محمد اليزيدي في مجلس الرشيد .

والمناظرة بين الاصمعي البصري ، وأبي عمرو الشيباني الكوفي .

والمناظرة بين الكسائي والاصمعي .

والمناظرة بين الاصمعي والفراء .

والمناظرة بين ثعلب والمازني .

والمناظرة بين ثعلب والرياشي .

والمناظرات التي جرت بين ثعلب والمبرد في مجلس محمد بن عبدالله بن طاهر .

الى غيرها من المناظرات التي جرت بين بصريين وبغداديين ، وكأن المنافسة القديمة بين الكوفة والبصرة حالت الى منافسة بين البصرة وبغداد ، ولعل ذلك يرجع الى أن الكوفة لم يعد لها من المكانة السياسية ماكان لها من قبل .

ولم يعد اسم الكوفة في مقابل اسم البصرة ، ولم يطلق أحد من قدماء البصريين ، اسم (الكوفيين) على الكسائي والفراء وثعلب واصحابهم وتلاميذهم ولم ينسب النحاة الذين انتهجوا نهج الكسائي والفراء الى الكوفة الا بعد اشتداد المنافسة التي أثارها المبرد بعد وروده بغداد عقب مقتل المتوكل ، المنافسة التي أشتد أوارها بين تلاميذ ثعلب وتلاميذ المبرد ، وكان هؤلاء التلاميذ كلهم بغداديين ، فأراداتباع المبرد البصري من البغداديين أن يميزوا أنفسهم من أتباع ثعلب البغداديين أيضا فسموهم بالكوفيين ، وصارت النسبة الى الكوفة او الى البصرة تعني النسبة الى مذهب دراسي بعينه ، فاذا قيل هذا الدارس كوفي كان هذا يعني أنه يذهب في دراسته اللغوية والنحوية مذهب الكسائي والفراء وثعلب ، واذا قيل هذا الدارس بصري كان يعني أنه يذهب فى ذلك مذهب سيبويه وتلاميذه .

ومهما يكن من أمر فقد عرفت بغداد بالكسائي وتلاميذه درسا نحويا جديدا لم تألفه البصرة ولا الكوفة من قبل ، أما البصرة فقد عرفت الدرس النحوي قياسا وتعليلا ، وأما الكوفة فلم يكن لها تاريخ في الدرس النحوي ، والنحاة الذين عرفتهم الكوفة كانوا تلاميذ للبصريين لم يتعمقوا في الدرس ، ولم يبرعوا فيه ، واكتفوا من محصولهم النحوي أن يشتغلوا في الكوفة بتأديب اولاد الامراء والموسرين ، ولم يضيفوا الى ماتلقوه عن أشياخهم البصريين جديدا ولم يغيروا من أسلوبه شيئا ، وقد ذكرت كتب الطبقات من هؤلاء الدارسين الكوفيين الذين أدركتهم حرفة الادب رجلين هما أبو جعفر الرواسي وخاله معاذ الهراء ، وقد رفعتهما المزاعم الى مكان لم يكونا أهلا له ، فلا نكاد نعرف شيئا عن علمهما ولا شيئا عن مصنفاتهما ، وكل مارددته المزاعم أن لابي جعفر الرواسي كتابا اسمه «الفيصل» ، وتمادت هذه المزاعم في الافتيات حتى زعمت أن الخليل ، وهو من هو ذكاء وعلما وعبقرية ، أرسل عليه فأفاد منه في وضع كتابه . ولم يرفعهما الى تلك المنزلة من العلم والاصالة والرئاسة الا تعصب مذهبي اساء الى تاريخ هذا الدرس بافتياته وتخرصاته وزعماته .

فاذا أعرضنا عن مثل هذا اللغو لم يبق من الكوفيين من تنسب اليه الرئاسة في النحو الكوفي غير الكسائي ، ولكن الكسائي لم يخطط لمذهبه النحوي في الكوفة ، فلم يكد يقيم فيها بعد عودته من رحلته حتى كتب المهدى «بازعاجه من الكوفة» للافادة منه في تأديب ولده (٧) وأقام في بغداد ، ولم يرجع الى الكوفة ، وهناك وضع أصول مذهب جديد في النحو عرف في مجالس الدرس في بغداد .

وقد وقف المذهب النحوي الجديد منافسا قويا للمذهب النحوي البصرى ، لا لان رجاله كانوا في حمى الخلافة او السلطان ، كما زعم ابو حاتم ، فيما روى

(٧) انظر : معجم الادباء ١٣/١٧٤ .

أبو الطيب اللغوي عنه (٨) ، بل لانه كان يعبر عن واقع الاستعمال اللغوي ، وتعبيرات الفصحاء في محادثاتهم ومخاطباتهم ، ويسبر أغوار الاستعمالات والاساليب ، ويعتد بمختلف الأبيئات اللغوية واللهجات التي تثبت عنده فصاحتها وسلامة عربيتها ، ويعتمد السماع والنقل أصلا من أصول الدرس ·

ولم يكن هذا الدرس الجديد الذي عرفته بغداد لينهج هذا النهج الا لان أعلامه كانوا من القراء ، وليس للقراء سبيل في دراستهم الى غير الرواية والنقل الصحيح ، أما الاعتبارات العقليّة التي أخذ بها البصريون فحكموها في تقعيد قواعدهم ، ووضع أصولهم فلا سبيل لها الى القراءة ولا الى نحو القراء الجديد ·

وهذا في رأينا هو منشأ الاختلاف بين المذهبين النحويين الكبيرين اللذين عرفهما تاريخ هذا الدرس ·

---

(٨) مراتب النحويين ٧٤ ·

الكسائي

علي بن حمزة (توفى سنة ١٨٩ هـ)

نشأ في الكوفة ، وتعلم مبادىء العربية على المؤدبين أمثال أبي جعفر الرواسي ، ومعاذ الهراء ، واخذ القراءة عن حمزة بن حبيب الزيات ، وصار يقرأ بقراءته ، ثم اتخذ لنفسه قراءة خاصة عرف بها ، وبرع في هذا الميدان حتى صار سابع ستة من قراء العالم الاسلامي ، وثالث اثنين من قراء الكوفة ، قاعدة الخلافة ، وموفد الصحابة ، ومنزل حملة الحديث .

واراد الكسائي أن يلم بالعربية لتخدم قراءته ، فتعلم مبادئها على المؤدبين في الكوفة ، ثم شد الرحال الى البصرة ، لان العربية في البصرة كانت قد تم لها النضج باعمال اللغويين والنحويين الذين كانت مجالس الدرس في البصرة حافلة بهم ، وفي مقدمة هؤلاء ابو عبدالرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي شيخ العربية ، وواضع اصولها ، وراسم منهجها .

وفي البصرة جلس مع من كان يجلس الى الخليل ، ولازم الخليل ، وأخذ عنه نحواً كثيرا ، ولم يكتفِ بما سمع من الخليل ، ولا بما تلقاه من تفسيرات وقياسات ، فاراد ان يدعم ذلك بالرواية ، ومشافهة الفصحاء ، ويحذو حذو الخليل في سماعه ومشافهته ، وسأله يوما عن مصادر علمه ، فقال له الخليل : بوادي نجد والحجاز وتهامة ، فشد الرحال اليها ، ومكث بين الاعراب فيها يسمع منهم ، ويشافههم ويدوّن كثيرا مما كان يسمع ، وعاد ملء العياب بالمسموعات والمكتوبات والمحفوظات .

كان الكسائي في رحلته الى تلك البوادي منسجما مع نفسه ، ومع المنهج الذي درج عليه ، وقامت عليه ثقافته الاولى ، وصار له بذلك شأن كبير في الدرس النحوي ، وشهد له أبو زيد الانصاري يوم أتاه نعيُ الكسائي بقوله : « مات بموته علم كثير » (١) .

عاد الكسائي من رحلته ، ولم يكن له هم غير البصرة والخليل ، غير انه وجد الخليل قد مات ، وجالس في موضعه يونس بن حبيب البصري النحوي ، واتصل بيونس ، ولكنه لم يكن اتصال المستفيد ، و « جرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها ، وصدره في موضعه » (٢) ، ثم عاد الى الكوفة ، ولكنه لم يستقر فيها ، فقد دُعي الى بغداد ليؤدب أولاد الخليفة ، وليقرئ القراء فيها ويجد في مجالس الدرس فيها بيئة صالحة لتأسيس مذهب في العربية جديد .

وكان لانصراف الكسائي الى الدرس النحوي ، والرواية اللغوية بعد رحلته ، ثم مقامه في بغداد ، وتصدره مجالس الدرس فيها أثر واضح في شيوع مذهب نحوي جديد في بغداد ، لان الكسائي كان قد شرع يرسي قواعد النحو على أسس جديدة اشتقها من ثقافته القرآنية ، وبدا ذلك واضحا للدارسين مما كان يثار في مجالس المناظرة التي كانت تعقد بين الوافدين من الكوفة،والوافدين من البصرة ، للنقاش في مسائل نحوية ولغوية كانت وجهتا النظر المختلفتان تطبقان فيها تطبيقا .

وكان لسلوك الكسائي في دراسة النحو على غرار ماجرى عليه في دراسة القرآن وتحمّل القراءة أن أخذ النحو الجديد يتجه اتجاها بدأ يبعد عن الاتجاه البصري قليلا في اعمال الكسائي ثم اخذ يبعد كثيرا في اعمال تلميذه الفراءحتى صار اتجاها متميزا باصوله ، وبطبيعة قواعده ، وبمصطلحاته ،فاذا كان الكسائي واضع الاساس لهذا الاتجاه فالى الفراء يعود اتمام العمل ، وكانت مخالفة

---

(١) انباه الرواه ٢/٢٧٤ .

(٢) نزعة الالباء ٨٤ . القاهرة ــ الطبعة الحجرية .

الكسائي لكثير من الاراء البصرية من البوادر الاولى التي آذنت بنشوء المذهب الجديد في بغداد ، المذهب الذي سمي فيما بعد بالمذهب الكوفي ٠

ولعل المسألة النحوية المشهورة : « قد كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، أو : فاذا هو اياها» التي أثارها الكسائي عند مناظرته سيبويه كانت متحولا فاصلا للمنهجين النحويين ، ورسما داعيا لمفترق طريقتين تسلك احداهما في تصويب وجه دون اخر طريق القياس ، وهي التى سلكها سيبويه في اصراره على وجوب الرفع ، وتسلك الثانية في تصويب الوجهين طريق السماع ، وهي التي سلكها الكسائي في التسوية بين قولهم : (فاذا هو هي) وقولهم : (فاذا هو اياها) معبرا عن ذلك بقوله : « العرب ترفع ذلك كله وتنصبه » (٣) ٠

كان لاختلاف الرجلين في المنشأ والثقافة أثر في اختلاف مذهبيهما في تناول موضوعات الدرس ، وتفسيرها وتخريجها ، وبدا ذلك واضحا في هذا اللقاء الذي طرحت فيه هذه المسألة للنقاش ٠ وقد ادرك القدماء من النحاة هذا الاختلاف في وجهتي النظر ، فأخذ فريق منهم بمذهب سيبويه ، وأخذ فريق بمذهب الكسائي ، وتعصب كل فريق لمذهبه ٠

وكانت عناية الكسائي بالقرآن ، واعتداده بالقراءات منطلقاً للآراء التي صدرت عنه مخالفا فيها البصريين الذين أرجعوا القراءات الى النحو ، وحكموا قواعدهم الموضوعة فيها ٠

ومن الاراء التي خالف فيها البصريين ، صادرا فيها عن اعتداده بالقراءات :

تجويزه في السعة حذف النون من المثنى «فيجوز عنده : قام الزيدا بغير نون » ٠ وقد تابعه من المتأخرين أبو حيان مستشهدا بما سمع من قولهم : بيضك ثنتا ، وبيضى مئتا (٤) ، معتمدا في تجويزه هذا قراءة بعضهم : « غيرمعجزي الله» بنصب (الله) ، وقراءة بعضهم : « لذائقو العذاب » بنصب العذاب (٥) ٠

(٣) مجالس العلماء ٩ ٠٠ معجم الادباء ١٣/١٨٧ ، ١٦/١٢٠

(٤) الهمع ١/٥٠ ٠

(٥٠) الهمع ١/٥٠ ٠

ورأيه أن يكون من معاني (لعل) : التعليل ، صدورا عن فهمه قوله تعالى « لعله يتذكر أو يخشى» ، أي : ليتذكر (٦) .

ورأيه ان يجوز توسط (الا) بين الفعل ومعموله ، احتجاجا بقوله تعالى : «وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون، بالبينات والزبر» .. فقد توسطت (الا) بين (أرسلنا) وما تعلق بها ، وهو قوله تعالى : «بالبينات والزبر» .

وذهابه الى جواز زيادة (من) في الايجاب ، احتجاجا بقوله تعالى : «يغفر لكم من ذنوبكم» ، وقوله تعالى : « ولقد جاءكم من نبأ المرسلين» (٧) .

ورأيه في جواز حذف الفاعل اذا دل عليه دليل من سياق القول ، ولعله استند في ذلك الى قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات » ، وقوله تعالى : « أو اطعام في يوم ذى مسغبة يتيما » فيتيما مفعول المصدر ، وفاعل المصدر محذوف وقد تابعه ابن مضاء القرطبي في جواز حذف الفاعل ، فقد عرض لمسألة ما سمى بالتنازع ، وذكر آراء النحاة في الفعل الاول اذا(أعمل) الفعل الثاني . فالفراء لايجيز خلوه من الفاعل لانه يرى ان الفاعل المذكور فاعل للفعلين جميعا ، والكسائي يجيزه على الحذف ، وغيره يجيزه على الاضمار . قال ابن مضاء : «وأما أي الرأيين أحق فرأى الكسائي» (٨) . وزعم السيوطي ان السهيلى من الاندلسيين كان يرى رأي الكسائي أيضا (٩) .

وذلك نحو : أحسن وأساء زيد ، فالفراء يرى أن (زيد) فاعل للفعلين جميعا ، والكسائي يرى أن (زيد) اذا جعل فاعلا لأساء ، فان (احسن) خلو من الفاعل . قال الرضي : ومذهب الكسائي هو أن يحذف الفاعل من الفعل الاول اذا اعمل الثاني ، حذرا من الاضمار قبل الذكر (١٠) .

---

(٦) الهمع ١/١٣٤ .
(٧) الهمع ٢/٣٥ .
(٨) الرد على النحاة ١٠٩ .
(٩) الهمع ١/١٦٠ .
(١٠) شرح الرضى ١/٧٩ .

ومن آرائه التي خالف فيها البصريين :

اجازته حذف المضاف اليه وابقاء المضاف غير منون ، احتجاجا بما حكاه عن العرب من قولهم : « أفوق تنام أم اسفل · بالنصب ، على تقدير : أفوق هذا تنام أم أسفله » (١١) ·

وذهابه الى أن الفعل في مثل قولهم : لالزمنك أو تقضيني حقي ، منصوب بـ (أو) نفسها ، لا بأن مضمرة بعد (أو) كما يقول البصريون (١٢) ·

وذهابه الى أن (يفعل) – يعني الفعل المضارع – انما يرتفع بحروف (أنيت) ، « فأقوم مرفوع بالهمزة ، ونقوم مرفوع بالنون ، وتقوم مرفوع بالتاء ، ويقوم مرفوع بالياء » (١٣) ·

وهذا قليل من كثير خالف فيه الكسائي البصريين ، وهو خلاف كان لابد منه ، لانه انعكاس للخلاف في الاسس المذهبية ، وانّ مذهبا يعتمد القراءات ، ويترخص في قبول ما سُمّي شاذا ، او نادرا ، او غير مسموع ، ويبعد الاعتبارات الفلسفية عن التدخل في الدرس النحوي ، لابد أن يخالف في النتائج مذهبا يرجع القراءات الى النحو ، ويترخص في رفض القراءات التي لاتنسجم مع أصوله الموضوعة ، ويفتح باب الطعن على القراء والقراءات، ويتمحّل في حمل القرآن على مطابقة القواعد ، واكراه النص القرآني على قبول معنى خاص ويحكّم في أصول الدرس اللغوي والنحوي الاعتبارات الفلسفية الى أبعد حدود التحكيم ، بحجة احكام الاصول وضبطها ، واستواء المنهج وتخليصه من الاضطراب ·

---

(١١) همع الهوامع ١/٢١٠ ·

(١٢) همع الهوامع ٢/١٠ ·

(١٣) همع الهوامع ١/١٦٥

اصحاب الكسائي

وتلمذ الكسائي جماعة من الدارسين في بغداد كان لهم أثر في تثبيت قواعد المذهب الجديد الذي وضع الكسائي رسومه ،وبرز من هؤلاء أبو زكريا الفراء الذي أكمل البناء ، وهذبه ، وأضاف اليه ، ومنحه الحياة وملامح الشخصية المستقلة ، وسأخصه بشيء من التفصيل بعد قليل ٠ ومن هؤلاء :

علي بن المبارك الاحمر (توفي سنة ١٩٤ هـ) ، أخذ النحو والمعاني والغريب عن الكسائي ، وكان هذا هو الغالب عليه ، وحكى الازهري أنه كان « يحفظ ثلاثين ألف بيت من المعاني والشواهد » (١) ٠ وكان الاحمر أحد الذين اشتركوا في المناظرة التي جرت بين سيبويه والكسائي ، وزعم الازهري أن الاحمر ناظر سيبويه فأفحمه (٢) ، وكان الاحمر من جملة مصادر الازهري في التهذيب ، وكان من الحفظ في منزلة كان الفراء معها ، فيما زعم الازهري ، يأخذ عنه ، وكان اول من دون عن الكسائي ، كان يسأله ويكتب عنه في ألواح ٠

ومن آرائه التي كان يتفرد بها :

جواز الفصل بين أداة الاضافة والمخفوض استنادا الى ماحكاه الكسائي من قول العرب : « اشتريته بوالله درهم » وقاس عليه الفصل بين (رُبَّ) وما تدخل عليه ، نحو : رُبَّ واللهِ رجلٍ عالم لقيته (٣) ٠

(١) تهذيب اللغة ١/١٨ ٠
(٢) المصدر نفسه ٠
(٣) همع الهوامع ٢/٣٧ ٠

وذهابه الى أن (ما) قد يستثنى بها كالا ، وخرج عليه ماروي عن العرب من قولهم : « كل شيء مهمة ما النساء » (٤) أي : الا النساء ٠

ومما ينسب اليه قوله : « يقال للذئب : ذؤالة وذؤالة الشدة ذألانه وذألانه » (٥) ، والذألان والدألان هما : المشي السريع الخفيف ٠

ومنهم : أبو عبدالله هشام بن معاوية الضرير (توفي سنة ٢٠٩ هـ) شهر بصحبة الكسائي ، وعنه أخذ النحو ، وكان من أحذق تلاميذه ٠

له مصنفات في النحو لم تصل الينا ، منها : كتاب الحدود في العربية (٦) وكان ابن النديم قد رأى منه قطعة بخط أبي جعفر الطبري (٧) ، ومنها : كتاب المختصر في النحو :

ويبدو من تتبع أقواله وآرائه التي تناقلتها كتب النحو أنه كان من النحاة المبرزين ، ولم يكن بالمقلد المتابع ، فقد خالف أستاذه في كثير من آرائه ، فقد جوز أن تكون صلة الموصول مصدرة بليت ولعل وعسى ، نحو : الذي ليته منطلق زيد ، والذي لعله منطلق عمرو ، والذي عسى أن ينطلق بكر (٨) ٠

وجوز الاخبار بـ (وحده) في قولهم : زيد وحده ، حملا على قولهم : زيد عنده وفاقا ليونس في هذا ، وهو عندهما منصوب انتصاب الظرف ٠

وذهب الى أن الفاعل مرفوع بكونه مسندا اليه (١٠) ، وهو رأي يدل على أن له فكرا نحويا صائبا ٠

وأجاز الفصل بين (ما أحسن) و (زيدا) من قولهم : ما أحسن زيدا بالحال فيقال : ماأحسن مقبلا زيدا (١١) وتابعه الجرمي في هذا ٠ ومنع العطف بـ (بل) في الاثبات ، وكان يقول : محال ضربت عبدالله بل اياك (١٢) ٠

---

(٤) همع الهوامع ١/٢٣٣ ٠
(٥) طبقات النحويين واللغويين ١٤٧ ٠
(٦) معجم الادباء ١٩/٢٩٢ ٠
(٧) الفهرست ١٠٤ ٠
(٨) همع الهوامع ١/٨٥ ٠
(٩) همع الهوامع ١/١٠٠ ٠
(١٠) همع الهوامع ١/١٥٩ ٠
(١١) همع الهوامع ٢/٩١ ٠
(١٢) همع الهوامع ٢/١٣٦ ٠

وأثبت العطف بكيف بعد نفي ، نحو : مامررت بزيد فكيف عمرو (١٣) .

وأجاز نصب المجموع بألف وتاء بالفتحة في المعتل خاصة ، كلغة وثبة ،وقد « حكى : سمعت لغاتهم » (١٤) .

وأجاز حذف النون من المثنى لغير اضافة ، في نحو قولهم : هذا مكرمك وهذان مكرماك ، وهؤلاء مكرموك ، وكان يرى أن التنوين والنون يحذفان للطافة الضمير ، فاذا قيل هذا ضاربك فالضمير في موضع نصب « لان موجب النصب المفعولية ، وهي محققة ، وموجب الجر الاضافة ، وهي غير محققة اذ لادليل عليها الا حذف النون ، ولحذفها سبب آخر غير الاضافة ، وهو صون الضمير المتصل من وقوعه منفصلا » (١٥) . وهو في هذا وغيره انما يصدر عن السماع وعما وقف عليه من كلام العرب .

وكثيرا ماكان يقرن اسمه باسم الكسائي او باسم الفراء ، وذلك يدل على وضوح شخصيته وأصالته .

ومنهم : القاسم بن معن (توفي سنة ١٧٥ هـ) ولي قضاء الكوفة ، وكان يشبه بعامر بن شراحيل الشعبي في سعة حفظه ومعرفته بالحديث والفقه والشعر وأيام الناس ، وكان صاحب نحو ، وأظنه صحب الكسائي في الكوفة ، وكان يحيى بن معين يقول : « كان القاسم بن معن نبيلا » (١٦) .

وترجم له بن قتيبة في (ولد عبدالله بن مسعود) ، لانه بن معن بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، وقال : « كان على قضاء الكوفة ، ولم يرتزق شيئا حتى مات ، وكان عالما بالفقه والحديث والشعر وأيام الناس والنسب ،

---

(١٣) همع الهوامع ٢/١٣٨ .
(١٤) همع الهوامع ١/٢٢ .
(١٥) همع الهوامع ١/٥٠ .
(١٦) طبقات النحويين ١٤٦ .
وفي تحديد سنة وفاته ينظر : تهذيب التهذيب ٨/٣٣٩ .

وكان يقال له : شعبي زمانه » (١٧) • وكان الفقه والحديث والرواية واللغة أغلب عليه ، وكان محمد بن زياد الاعرابي اللغوي الرواية يأخذ عنه ، أما النحو فلا أظنه كان صاحبه ، ولم أقف له فيما وقفت عليه على رأي نحوي •

ومنهم : سلمويه النحوي الكوفي ، تلمذ للكسائي ، وأخذ عنه النحو وتصدر لتدريسه (١٨) ، ولم يذكر الزبيدي عنه شيئا الا أنه «أخذ عن الكسائي أيضا » (١٩) •

ومنهم : أبو طالب المكفوف • كان أخذ عن الكسائي النحو ، وكان له مصنفات منها : حدود الحروف ، والعوامل ، والافعال واختلاف معانيها (٢٠) ، ولم أقف له على رأي نحوي •

ومنهم : قتيبة النحوي (توفي بعد المئتين) • كان قد أخذ النحو عن الكسائي ، ولم أقف على رأي له في النحو ، غير أن الزبيدي حكى أن أبا عبدالله المهدي قال : « قرى عربية فنون • فقال شبيب بن شيبة : انما هي قرى عربية ، غير منونة • فقال أبو عبدالله لقتيبة النحوي الجعفي الكوفي : ماتقول ؟ فقال ان كنت أردت القرى التي بالحجاز يقال لها قرى عربية فانها لاتنصرف ، وان كنت أردت قرى من قرى السواد فهي تنصرف • فقال : انما أردت التي بالحجاز • قال : هو كما قال شبيب » (٢١) •

ومنهم : أعلام آخرون يبدو أنهم لم يكن النحو يغلب عليهم ، ولم يكن لهم في البيئات النحوية مقام ملحوظ ، وانما كانوا رواة أدب أو شعر أو قراءة، أو لغة • وبهؤلاء وغيرهم استطاع الدرس البغدادي الكوفي أن يثبت أقدامه ، ويقف منافسا قويا للدرس البصري ، ويطبع الدارسين في بغداد بطابعه •

(١٧) المعارف ١٠٩ •
(١٨) انباه الرواة ٢/٦٤ •
(١٩) طبقات النحويين واللغويين ١٤٨ •
(٢٠) طبقات النحويين واللغويين ١٤٧ •
(٢١) طبقات النحويين واللغويين ١٤٩ •

الفـــــــرّاء

أبو زكريا يحيى بن زياد (توفي سنة ٢٠٧ هـ)

نشأ في الكوفة ، وتعلم مبادىء العربية فيها ، وألم بالقراءات بأخذه عـــن القراء ، وشافه الفصحاء من علماء البادية الذين كان علماء المصرين يعتمـدون عليهم ، ويأخذون عنهم .

والدارسون يعرفون أن الكوفة بلد القراءة والحديث ، ورواية الاخـــبار والشعر والادب ، وأن للقراءة في الكوفة مقاما خاصا ، لان الكوفة منزل الصحابة والتابعين ، وكان مسجدها الجامع قد شهد حلقات القراءة منذ تمصيرها . وكان أبو عبدالرحمن السلمي في مقدمة الذين أقرءوا القرآن ، وكان قد قعد للاقراء قرابة أربعين عاما ، وكان زر بن جيش يعاصره ، ويعنـــي بالقراءة وروايتها ، وكانا يرويان القراءة عن علي وعثمان وابن مسعود وغيرهم ، واليهما يرجع القـــراء في الكوفة ، وقراءة عاصم بن أبي النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلـي بن حمزة الكسائي انما ترجع اليها .

في هذه البيئة نشأ الفراء ، وأقبل على القراءة ، كما كان يقبل عليهـــا الدارسون في الكوفة ، وقد توافرت لديه السبل التي تفقه عـــلى القـــراءات المختلفة ، واستطاع بحذقه ان يلغ باطراف هذه الثقافة ، وأن يكون في مقدمـة العلماء الذين تفقهوا في القرآن وقراءاته المختلفة .

وشعر أبو زكريا كما شعر غيره بالحاجة الى تعلم العربية لانها السبيل الى فهم القرآن وقراءاته ، فتعلم مبادئها على جماعة منهم : أبو جعفر الرواسي ، وكان أبو الحسن الكسائي قبله قد أخذ عنه أيضا ، غير أن الكسائي لم يجد في علم أبي جعفر شيئا ، فانقطع عنه ، وارتحل الى البصرة ، ولقى فيها شيخ العربيـة أبا عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ولازم مجلسه ، واستكثر عنـه ،

وبعد أعوام قضاها في الاخذ عن الاعراب في بواديهم ، يشافههم ، ويسمع منهم ، حتى اذا عاد الى البصرة وجد الخليل قد مات ، ثم عاد الى الكوفة ، ولكنه لم يلبث أن حمل الى بغداد ليؤدب أولاد الخليفة ، واتخذ من بغداد مستقرا ومقاما .

وكان خروج الكسائي الى البصرة ، ثم مقامه في بغداد ، وانقطاعه عن أبي جعفر مثار جفوة بين الرجلين ، لهذا حسّن أبو جعفر للفراء أن يذهب الى بغداد ، وقال له : « قد خرج الكسائي الى بغداد ، وأنت أميز منه » (١) .

ويبدو من فحوى هذا الخبر الذي رواه أبو البركات الانباري أن جفوة كانت بين أبي جعفر والكسائي ، وأن هذه الجفوة هي التي دفعت الرواسي الى أن يحسّن للفراء الخروج الى بغداد ليكون منافسا للكسائي هناك .

وخرج الفراء الى بغداد ، واتصل بالكسائي ، وجرت بينهما مسائل من مسائل الرواسّي ، فأجابه باجابات أنكرها الفرّاء ، ثمّ أقنعه الكسائيّ بعد أنْ أتى على مسائل الرواسّي مسألة مسألة فخطأها بما سمع من العرب ، فأعجب به الفراء ، ولزمه ورأى فيه مالم ير في الرواسي وأخذ عنه ، وانقطع عن أبي جعفر ، وصار الفراء من أنبه أصحاب الكسائي ، وانتهت الرئاسة في النحو اليه بعد الكسائي ، وكان الكسائي يختصه برعايته ، ويكبر فيه عقله وذكاءه ، وسئل الكسائي يوما عن رأيه في الفراء وعلي بن المبارك الاحمر فقال : « أكر حفظا والفراء أحسن عقلا ، وأبعد فكرا ، وأعلم بما يخرج من رأسه » (٢) .

ولم يكن الفراء ليجهل ماكان الدارسون يخوضون فيه في الكوفةوالبصرة وكان فيه مافي الدارسين النابهين من طموح الى الوقوف على ماكان في البصرة ، والاخذ عن أعلام الدرس فيها ، ولقي سيبويه في البصرة فلم يرَ فيه ضالته ،

---

(١) نزهة الالباء ٦٥ .

(٢) نزهة الالباء ٦٣٥ .

واتصل بيونس بن حبيب ، وأخذ عنه ، كما يدل عليه حكايته عنه فى (معاني القرآن) ، ولم يلق الخليل ، لان الخليل كان قد مات قبل ذهابه الى البصرة ، ولكنه وقف على آراء الخليل ، وتلمذ له بوقوفه على الكتاب .

ولا يغض من مكانة الفراء أن يقف على ماوصل اليه العلم عند البصريين ، وأن يأخذ عنهم ، ولا يعني أخذه عنهم متابعتهم أو تقليدهم ، وليس في أقوال الرجل ، ولا في أعماله العلمية ، ولا في طريقة تناوله موضوعات الدرس مايدل على أنه كان يتابع البصريين ، فقد كان يسلك في دراسته سبيلا أخرى ، كان منطلقه فيها ماكان أفاده من ثقافته الاولى في الكوفة ، ومن تلمذته للكسائي ، وانتهاجه نهجه في تناوله موضوعات النحو واللغة بالدرس ، لذلك كان معنيا بالرواية ، ومقدما السماع على القياس ، وقد امتزجت في دراسته موضوعات القراءة بموضوعات النحو ، وتلاقت مسائلهما ، وتشابكت أصولهما ، حتى صار يضبط القراءات بالعربية ، ويحكم القراءة في أصوله النحوية ، وكان كتابه (معاني القرآن) حقل التجربة على حد التعبير الحديث .

وكانت الذخيرة الضخمة التي آلت اليه من مرويات ومسموعات وقراءات، والموهبة الفذة ، والفكر المبدع ، قد صنعت من الفراء دارسا من طراز خاص ، وأعدته ليكون باني مذهب ، وراسم اتجاه .

وكان بينه وبين معاصريه مثل ماكان بين الخليل ومعاصريه أصالة وابتكارا واستيعابا لثقافات عصره يشهد بذلك اعجاب أبي بشر ثمامة بن الاشرس به ، فقد حكي عنه أنه قال : « فاتشته ـ يعني الفراء ـ عن اللغة فوجدته بحرا ، وعن الفقه فوجدته فقيها عارفا باختلاف القوم ، وفي النجوم ماهرا ، وبالطب خبيرا ، وبأيام العرب وأشعارها حاذقا » (٣) .

وكان الفراء أحد الذين كان الكوفيون يكاثرون بهم ، ويقولون : « لنا ثلاثة فقهاء ، في نسق لم ير الناس مثلهم ، أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن

---

(٣) نزهة الالباء ١٣٢ ، ١٣٣ .

الحسن ، ولنا ثلاثة نحويين كذلك ، وهم : أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب »

وكان أبو العباس ثعلب يقول : « لولا الفراء لما كانت اللغة ، لانه حصلها وضبطها ، ولو الفراء لسقطت العربية لانها كانت تتنازع ويدعيها كل من اراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب » (٥) .

وكان أبو بكر بن الانباري يقول : « لو لم يكن لاهل بغداد والكوفة من علماء العربية الا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم اليهما » (٦) .

وهذا ، مع مافيه من غلو ، يشير الى اعجاب الدارسين به ، ويدل على ماكان للفراء من مكانة في نفوس الدارسين ، وكان له في الوقت نفسه رد فعل عنيف عند البصريين ، تمثل في حملات تهجمات تنم على عصبية زائدة على الكوفيين عامة ، وعلى الفراء خاصة ، ولكنها حملات لم تغض من شأنه ، ولا قللت من اعجاب الدارسين به ، لانها لم تعد أن تكون مزاعم ، ولم تتجاوز حدود الكلام .

وليس كثيرا على الفراء أن يكون موضع الاعجاب والتقدير ، فهو هو الذي عرفه الدارسون نموذجا عاليا علما وفقاهة وحديثا ورواية ، وحفظا ، وقد أملى كتبه ، ومنها معاني القرآن من الذاكرة ، وفي (معاني القرآن) خاصة من الرواية والحديث والقراءة مالايسعه الا ذهن حافظ ، وعقل مستوعب ضابط .

ولم أقف ، فى حدود ما أعلم ، على مساءلة جرت بينه وبين أحد معاصريه ، ولا على رد لرأي من آرائه رد به عليه أحد من البصريين الذين عاصروه ، اللهم

---

(٤) معجم الادباء ٥/١٤٣ .

(٥) نزهة الالباء ١٢٧ .

(٦) نزهة الالباء ١٣٤ .

الا بعض الروايات التي تتحدث عن لقاءات كانت تجري بين الفراء وبعض البصريين ، وكانت تنتهي بالاعجاب به ٠

فقد اجتمع به أبو عمر الجرمي ، وسأله عن مسائل ، فأجابه عنها ، وعرّفه الالزامات فيها ، ونهض أبو عمر من مجلسه ، وهو يقول لابي محمد سلمة بن عاصم الذي جمعه بالفراء : « ياأبا محمد : ماهذا الا شيطان ، يكرر ذلك ثلاثا » (٧) ٠

وذكر الزجاجي في مجالسه مجلسين للفراء ، احدهما مع الاصمعي ، والثاني مع أبي توبة بن دراج ٠

أما مجلس الاصمعي معه فقد بدأ بسؤال الاصمعي ، وانتهى بجواب للفراء أقنعه ، وقول الاصمعي له : « أنت أعلم الناس » (٨) ٠

وأما مجلس بن دراج معه فلم يكن مجلس مناظرة ، ولكنه كان مجلس افادة ، كان ابن دراج يسأل الفراء ، وكان الفراء يجيبه عن سؤاله ثم كان يستزيده ، فيواصل الفراء كلامه ، وينتهي المجلس على مثل هذا (٩) ٠

كان الفراء قد أعد نفسه لاتمام العمل الذي بدأه الكسائي الذي رأي الفراء فيه طرازا خاصا جديدا ، وكان المذهب الجديد الذي رسمه الكسائي قد لقي في نفسه قبولا ، لانه كان كالكسائي قد ألم بالقراءة ، وتمثل في نفسه نهج القراء والمحدثين ، النهج الذي كان يقوم على اساس من الاعتماد على النقل والاعتداد بالسماع ، وكان له من هذا ، ومما استوعبه من مذهب أستاذه في الدرس هذه الاصالة الكوفية في دراسته ٠

ولم يكن الفراء ليتعبد بما أخذ عن البصريين ، أو بما وقف عليه من آرائهم ، ولا بما أخذه عن الكسائي ، ولكنه كان يشارك الدارسين فيما كانوا

---

(٧) نزهة الالباء ١٣٦ ٠

(٨) مجالس العلماء ١٧٨ ٠

(٩) مجالس العلماء ١٨٤ ٠

يخوضون فيه ، فقد كان مقرئا ، وكان له قراءة خاصة به رواها تلاميذه في القراءة ، هارون بن عبدالله ، ومحمد بن عبدالله بن مالك وغيرهم (١٠) ، وكان يأخذ عن علماء البادية ، ويشافه الاعراب ، ويسمع من العرب ، ويروي ، ويحدث ، وفي كتابه (معاني القرآن) خاصة أمثلة لكثير من رواياته الخاصة في القراءة ، وطرقه الخاصة في الحديث ، وسماعه من الاعراب ، ومشافهته للفصحاء ٠

فمن رواياته في القراءة :

قوله : « حدثني شريك بن عبدالله عن الاعمش عن ابراهيم أنه خفض الارحام ، يعني الارحام في قوله تعالى : « تساءلون به والارحام » (١١) ٠

وقوله : « وحدثني أبو بكر بن عياش عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قرأ (المعذرون) بالتخفيف في قوله تعالى : « وجاء المعذرون » (١٢) ٠

وقوله : « حدثنا محمد بن عبدالعزيز التيمي عن مغيرة عن مجاهد أنه قرأ : (تبلو) بالباء (١٣) ٠

وقوله : « حدثني قيس عن أبي اسحاق عن عبدالرحمن بن الاسود بن يزيد النخعي عن أبيه أنه كان لايجري (ثمود) في شيء من القرآن » ٠

ومثل هذا كثير ٠

ومن سماعه من الاعراب :

قوله : « أنشدني بعض العرب » (١٥) ٠

---

(١٠) ابو زكريا الفراء ١٣٩ ٠
(١١) معاني القرآن ١/٢٥٢ ٠
(١٢) معاني القرآن ١/٤٤٨ ٠
(١٣) معاني القرآن ١/٤٦٣ ٠
(١٤) معاني القرآن ٢/٢٠ ٠
(١٥) معاني القرآن ١/٤٤ ٠

وقوله : « سمعت بعض العرب يقول » (١٦) .

وقوله : «أنشدني بعض بني أسد» (١٧) .

وقوله « أنشدني أبو الجراح العقيلي » (١٨) . وقد ذكر ابن النديم أبا الجراح العقيلي في فصحاء العرب المشهورين الذين سمع العلماء منهم (١٩).

وقوله : «سمعتها من أبي فقعس الاسدي وأبي الهيثم العقيلي» (٢٠) .

وقوله : « وانشدني العكلي أبو ثروان» (٢١) .

وقوله : « وقال لي بعض بني سليم » (٢٢) .

وقوله : « وسمعت أنا (موضَع) بالفتح » (٢٣) .

وقوله : «قد سمعت ذلك من العرب» (٢٤) .

وقوله : « وسمعت أبا السفاح السلولي يقول : هذا أبو صعرورَ قد جاء ، فلم يجر (٢٥) ، لانه ليس من عادتهم في التسمية » (٢٦) . ومثل هذا كثير أيضا .

ان هذه الحصيلة الضخمة التي توافرت للفراء ، والتي عززت بعقل مبتكر، وذكاء ناقد كانت قد هيأت الفراء ليكون دارسا له رأيه ، وله تفسيره ، واذا

---

(١٦) معانى القرآن ١/٥١ .
(١٧) معانى القرآن ١/٦٨ .
(١٨) معانى القرآن ١/٤٢٧ .
(١٩) فهرست بن النديم ٧٠ .
(٢٠) معانى القرآن ٢/٣٤ .
(٢١) معانى القرآن ٢/٣٧ .
(٢٢) معانى القرآن ٢/٣٩ .
(٢٣) معانى القرآن ٢/١٥٠ .
(٢٤) معانى القرآن ٢/٣٧٣ .
(٢٥) أى : لم ينون .
(٢٦) معانى القرآن ٢/٢٩٠ .

وازنا بين سيبويه الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو الكوفي البغدادي رأينا الفراء يتجاوز الحد الذي وقف عنده سيبويه الى حد أبعد كان فيه مبتكرا وموجها ، وصاحب رأي واجتهاد ، تؤيده تلك الموارد الضخمة من القراءات والمسموعات ، وكان له من ذلك مادة خصبة لدرس نحوي خصب ، وتهيأ له بعد أن توافر لديه كل ذلك أن يعيد النظر فيما وصل اليه النحو البصري من نتائج .

واذا اختلفت أصول الدرس عنده ، وتفاوت المنهج الذي سلكه البصريون كان لابد أن تختلف النتائج ، وقد اختلفت فعلا ، فاذا بالقواعد الجديدة تتفاوت مع القواعد البصرية القديمة ، واذا بالنحو في بغداد يعيد النظر في المنهج والاصول والمسائل ، فلم يعد للقياس عنده ماكان له عند البصريين من مكانة في الدرس ، ولم يعد للعامل عنده اعتبار ، ولم يكن للمصطلحات البصرية التي تقوم على أساس الاعتبارات العقلية ، مفهوم في الدرس الجديد ، واذا بالنحو في بغداد يعيد النظر في تقسيم الكلمة ، فهي : فعل واسم وأداة ، وفي تقسيم الفعل فهو : ماض ومستقبل ودائم ، وفي فكرة العامل فلم يعد للعامل ذلك السلطان الذي كان له في النحو البصري .

فالفاعل عند الكوفيين البغداديين قد يتقدم على فعله ، ويظل فاعلا (٢٧) .

والفاعل قد يتأخر عن فعلين ويكون فاعلا للفعلين جميعا في نحو قولهم : أكل وشرب خالد .

والمبتدأ والخبر مترافعان اذا كان الخبر هو المبتدأ ، ولم يبالوا بما أخذ البصريون به أنفسهم من منح العامل ما للعلة من قوة ، ومن أن سبيل العامل

---

(٢٧) همع الهوامع ١/١٥٩ . شرح الاشمونى ٢/٣٤ .

« أن يقدر قبل المعمول ، وأن القول بترافعهما محال » (٢٨) .

والظرف والمجرور في قولهم : زيد أمامك ، وعمرو في الدار ، هما الخبر لا ما تعلقا به كما قال البصريون .

وأعاد النظر في المصطلحات التي سبق للبصريين أن استخدموها ،فتوصل الى مصطلحات أخرى بازائها رآها أوضح دلالة على المقصود ، وأقرب الى طبيعة الدرس .

كالنسق بازاء العطف بالحرف .

وكالصلة (صلة الموصول) بازاء الحشو .

وكالعماد بازاء ضمير الفصل .

وكالجحد بازاء النفي . والاقرار بازاء الاثبات .

وكالتبيين بازاء البدل .

وكالاداة بازاء الحرف .

والمحل بازاء الظرف .

والمكنى بازاء الضمير .

والفعل الدائم بازاء اسم الفاعل واسم المفعول .

الفعل بازاء المصدر .

ويجري ولا يجري بازاء ينصرف ولا ينصرف ، أي : ينون ولا ينون .

والمردود بازاء المعطوف .

والخلاف ، والصرف ، والتقريب ، وليس لها مايقابلها عند البصريين .

الى غير ذلك من المصطلحات التي شاعت في الدرس النحوي في بغداد بعد أن استقل منهجا وموضوعا . ولم يأخذ الفراء بهذه المصطلحات رغبة في

---

(٢٨) الانصاف في مسائل الخلاف — المسألة الخامسة .

المخالفة أو المعارضة كما زعم بعض المتعصبين على الفراء (٢٩) ، ولكنه كان في ذلك دارسا واعيا يعرف مايأخذ وما يترك ، ودارسا من طراز جديد خرج على حدود التقليد الذي اتسمت به الدراسة البصرية ، وقد كبر ذلك على البصريين ، وكان مثار تعصب حاقد ، وقد تصدى المتعصبون له بالحملات التي تنم على جمود الفكر وقصور الهمة ، وقال قائلهم (٣٠) ، حين ذُكِرَ الفراء وأصحابه عنده : « أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ، ولا من يرتضى روايته ، فان ادعى أحد منهم شيئا رأيته مخلّطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة ، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو وبين الرواسي والكسائي ، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة ، ويتحفظ أحدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير ، فيكثر كلامه عند من يختلف اليه، وانما همّ أحدهم اذا سبق الى العلم أن يسيّر اسما يخترعه لينسب اليه ،فيسمى الجر خفضا ، والظرف صفة ، ويسمون حروف الجر حروف الصفات ، والعطف النسق و (مفاعلين في العروض : (فعولان) ، ونحو هذا من التخليط » (٣١) .

وليس فيما جاء هنا غير دعاوى مرسلة ، تنضح حقدا وعصبية ، وتنم على جمود وجدب هما سمة هؤلاء المدعين المقلدين الذين لم يروا أن في الامكان أن يأتي الزمان بأحسن مما كان .

وقد وقع صاحب هذه المقالة في خطأ وتخليط :

فقد نعى على البغداديين أنهم لايفصلون بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة ، وكان على خطأ لانهم هم أهل القراءة ومنهم الكسائي أحد القراء السبعة . والفراء الذي كان له قراءة خاصة به .

---

(٢٩) أبو زكريا الفراء ٤٤١ . مراتب النحويين ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣٠) القائل هو : أبو حاتم السجستاني .
(٣١) مراتب النحويين ١٠١ ، ١٠٢ .

وعاب عليهم أنهم يحفظون مسائل النحو بلا علل ولا تفسير ، ولم يدرك أن ماعابه عليهم ليس بعيب ٠

وتحامل عليهم لانهم كانوا يسمون الجر خفضا ، فدلل على أنه كان يصدر عن مرة محترقة ، وعلى أنه كان يجهل أن (الخفض) ليس من أوضاعهم ، ولا مبتكراتهم ، لانه من اوضاع الخليل (٣٢) ٠

كان الفراء ، بالرغم من هذا التحامل ، من أحذق الدارسين بعد الخليل ، وكان من اتساع الذهن أن ألم بثقافات عصره ، كما شهد له أحد كبار النظار وهو ثمامة بن الاشرس في الخبر الذي أوردناه قبل هذا ، وقد كان الدارسون يعجبون به ، ولم يستطع المتعصبون عليه أن ينالوا منه أو يضعفوا من مكانته في نفوس الدارسين ٠

وكان له تأثير في تطوير الدرس ، وتوجيهه وجهة لغوية ، وآلت اليه الرئاسة فيه بعد وفاة الكسائي عام ١٨٩ هـ ، وجلس للاقراء ، وتصدّر مجالس الدرس ، واجتمع للاخذ عنه خلق كثير ٠

وقد روى علمه بالقرآن محمد بن الجهم السمّري (٣٣) ، وروى علمه باللغة والنحو أبو عبدالله الطوال الذي وصفه أبو العباس ثعلب بأنه كان حاذقا في العربية (٣٤) وأبو محمد سلمة بن عاصم الذي كان مختصا بالفراء ملازما ايّاه متعصباً للكوفيين ، «على ورع كان فيه شديد ، وتأله عظيم »(٣٥) ٠

والى سلمة بن عاصم آل كتاب الفراء في الحدود ، وعنه أخذه أبو العباس ثعلب كما أخذ عنه سائر كتب الفراء ، ولم يصل الينا كتاب الحدود في النحو ، ولكنّ ابن النديم كان قد وقف على نسخة منه بخط سلمة بن عاصم ، وذكر لنا

---

(٣٢) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٣٠ ٠
(٣٣) معانى القرآن ٠ ص١ ٠
(٣٤) فهرست ابن النديم ص ١٠١ ٠
(٣٥) مراتب النحويين ص ٩٤ ٠

ماكان يحتويه من حدود ، وأولها : حد الاعراب في أصول العربية ، وآخرها : حد مايجري وما لايجري ، وكانت عدة الحدود التي ذكرها ابن النديم خمسة واربعين حدا (٣٦) ٠

ومهما من أمر عدة الحدود فكتاب الحدود كتاب في النحو . ولكننا لانعرف تفصيل ماتضمنه من آراء ، لان الكتاب لم يصل الينا ولا أظن أن المراد بالحد في هذا الكتاب مايعنيه المناطقة بهذا المصطلح ، فالحد عند المناطقة هو بيان الماهية أو الحقيقة ، وهو التعريف الجامع المانع ، وهو الذي يتألف من الجنس والفصل كقولهم في حد الانسان : (حيوان ناطق) فالحيوان جنس ، والناطق فصل ، لان هذا المعنى ، في أكبر الظن ، لم يعرف في بيئات الدرس في عهد الفراء ومعاصريه ٠ ولعل المراد بالحد في كتاب الحدود ماكان يريده الكسائي منه ، فقد سئل الكسائي عن حد الفاعل ، وحد المفعول ، فقال : « حد الفاعل : الرفع أبدا ، وحد المفعول به : النصب أبدا » (٣٧) أو ماكان يريده الفراء نفسه بقوله : «مات الكسائي وهو لا يحسن حد (نعم وبئس) ، ولاحد (ان) المفتوحة ، ولا حد الحكاية ٠٠ ولم يكن الخليل يحسن النداء ، ولا كان سيبويه يدري حد التعجب » (٣٨) ٠

ولعل ماجاء في الهمع يسلط بعض الضوء على ماكان الفراء يعنيه من الحد ، فقد جاء فيه : « وألحق الفراء بها (يعنى بكان وأخواتها) : أسحر وأفجر ، وأظهر» (٣٩) ، يريد بأسحر: وجد في السحر، وبأفجر وجد في الفجر ، وبأظهر : وجد في الظهر ، كما كان (أضحى) يعنى : وجد في الضحى ، و (أمسى) : وجد في المساء ٠ وليس هذا بالحد في معناه المنطقي المعروف ٠

---

(٣٦) فهرست ابن النديم ص ١٠٠ ٠
(٣٧) معجم الادباء ١٣/١٩٥ ٠
(٣٨) معجم الادباء ١٣/١٨٥ ٠
(٣٩) همع الهوامع ١/١١٢ ، ١١٣ ٠

وكان الفراء اذا جلس للاملاء في النحو والتفسير اجتمع اليه من الدارسين خلق كثير ، وكان يوم تصدى لاملاء (معاني القرآن) هرع الدارسون الى مجلسه حتى عسر تعدادهم ، وحتى كان عدد المستملين من القضاة فقط ثمانين قاضيا (٤٠)

وللفراء من الآراء ما احتل مكانه في أذهان الدارسين ، وتردد على ألسنتهم وشاع حتى في الدرس البصري ، حتى كان وكأنه منه ، فمن ذلك :

رأيه في رفع (يفعل) بأنه يرفع لتجرده من الناصب والجازم ، وأخذ أتباع البصريين يرددونه في تعليل رفع (يفعل = الفعل المضارع) ، ولم يعد التعليل البصريين رفعه بوقوعه موقع الاسم أثر في كتاباتهم أو محاوراتهم (٤١) .

وله آراء بارزة في النحو البغدادي الكوفي :

كالنصب على الخلاف ، أو على الصرف ، كنصب الاسم الواقع بعد واو المعية نحو : سار خالد وشاطىء النهر ، ونصب الخبر ظرفا نحو : خالد أمامك ، وعمرو خلفك، ونصب (يفعل) بعد الواو نحو: «لاتَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ»، او بعد الفاء ، نحو : «لاتكسل فتنجحَ» ، وكان الفراء قد طبقه على عدة آيات ، فاذ عرض لتفسير قوله تعالى : « لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق » قال : « لو أنك قلت في الكلام : لم تقوم وتقعد يارجل على الصرف لجاز ، فلو نصب (وتكتموا) كان صوابا » (٤٢) .

وفسر الصرف بقوله : « أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لاتستقيم اعادتها على ماعطف عليها ، فاذا كان كذلك فهو الصرف ، كقول الشاعر :

لا تنـه عن خلق وتأتيَ مثله ‌ ‌ ‌ ‌ عار عليك ، اذا فعلت ، عظيم

ألا ترى أنه لايجوز اعادة (لا) في (تأتي مثله) فلذلك سمي صرفا ، اذ كان

---

(٤٠) تاريخ بغداد ١٤/١٥٠.
(٤١) شرح الرضى على الكافية ٢/٢٣١ .
(٤٢) معانى القرآن ١/٢٢١ .

معطوفا ، ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله » (٤٣) ٠

وجوز الفراء الجزم على العطف ، والنصب على الصرف في قوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق» ، وقوله تعالى : « ولاتكونوا أول كافر به ، وتشتروا باياتي ثمنا قليلا» ، وقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام » ، وقوله تعالى « لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » (٤٤) ٠

وكالرفع بعد (لولا) ، فقد رأى الفراء – وصار رأيا كوفيا بغداديا – أن (لولا) هي الرافعة ، فقد قال في تفسير قوله تعالى من سورة الفتح : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات » : « رفعهم بلولا ٠ ثم قال : أن تطئوهم ، فأن في موضع رفع بلولا » (٤٥) ٠

وقال الرضى : « قال الفراء : لولا هي الرافعة للاسم الذي بعدها ، لاختصاصها بالاسماء » (٤٦) ٠

وحين نعرض لنحو الكوفة أو بغداد ، ومنهج الدارسين البغداديين في دراستهم النحو نكون قد أوفينا الكلام في آراء الفراء ، لان النحو البغدادي الكوفي انما هو نحو الفراء ٠

وربما نسبوا الى الفراء من الاقوال مالم يقله ، ومن الاراء مالم يره ، وكأنهم يتعمدون ذلك ليجعلوا منها مسألة خلافية يتبارون في الاحتجاج عليها ، وربما أجروا ذلك على لسان أبي العباس ثعلب لينطلي ذلك على الدراسين لعلمهم بشدة لزوم ثعلب لاراء الفراء ٠ فقد نسب الزجاجي القول باسمية (نعم وبئس) الى

---

(٤٣) معانى القرآن ١/٣٤ ٠
(٤٤) معانى القرآن ١/٣ ٣٠
(٤٥) معانى الفراء (ورقة ٦٠) ٠
(٤٦) شرح الرضى على الكافية ١/١٠٤ ٠

الفراء نقلا عن ثعلب في مجلس له مع الرياشي (٤٧) ، وردده النحاة المتأخرون ، وكأنه أمر مسلم به ٠

ونسب أبو البركات الانباري القول باسميتها الى الكوفيين عامة ، وجعل مسألة (نعم وبئس) احدى مسائل الخلاف ، وهي المسألة الرابعة عشرة من مسائل (الانصاف) ٠

غير أن الذي يقف على أقوال الفراء يستغرب أن يسير التمويه أو التدليس أو الخطأ ، ويشيع حتى لكأن ذلك حقيقة واقعة ٠ لقد عرض لنعم وبئس في أكثر من موضع من كتابه (معاني القرآن) ، ولم يكن في كلامه مايشير الى أنهما اسمان ٠

قال الفراء في تفسير قوله تعالى : « فساء قرينا » : « ويجوز ألا تذكر الرجلين،فتقول: بئسما رجلين ، وبئس رجلين ، وللقوم نعم قوما،ونِعِمّوا قوما وكذلك من المؤنث ، وانما وحدوا الفعل ، وقد جاء بعد الاسماء ، لان (بئس ونعم) دلالة على مدح أو ذم ، لم يرد منهما مذهب الفعل مثل قاما وقعدا»(٤٨) ٠

وقال في تفسير قوله تعالى : «وبئس القرار» ، وقوله تعالى : « بئس للظالمين بدلا » : « والعرب توحد نعم وبئس وان كانتا بعد الاسماء ، فيقولون أما قومك فنعموا قوما ، ونعم قوما ، وكذلك (بئس) ٠ وانما جاز توحيدهما ، لانهما ليستا بفعل يلتمس معناه انما أدخلوهما لتدلا على المدح والذم ، ألا ترى أن لفظهما لفظ (فعل) وليس معناهما كذلك » (٤٩) ٠

فلم يشر الفراء فيما نقلنا له من آراء وأقوال الى أن (نعم وبئس) اسمان ، والذي يفهم من هذه الاقوال أن الفراء كان يرى أنهما فعلان جامدان ، وأنهما لم يرد بهما الى معنى الفعل ، لانهما خلصا للمدح والذم ، وليس معنى هذا أنهما اسمان٠

---

(٤٧) مجالس العلماء ٥٩ ٠

(٤٨) معانى القرآن ١/٢٦٨ ٠

(٤٩) معانى القرآن ٢/١٤١ ٠

على أنه كان يرى أنهما ينصبان ويرفعان ، وتلحقهما تاء التأنيث الساكنة ، وألف الاثنين وواو الجمع كسائر الافعال ، فقد قال في تفسير قـــوله تعـــالى : فساء قرينا» : « بمنزلة قولك : نعم رجلا ، وبئس رجلا . وكذلك : « ســاءت مصيرا » و «كبر مقتا» ، وبناء نعم وبئس ونحوهما أن ينصبا ما وليهما من النكرات، وأن يرفعا مايليهما من معرفة غير مؤقتة (٥٠) ، وما أضيف الى تلك المعرفة ، وما أضيف الى نكرة كان فيه الرفع والنصب » (٥١) .

ومهما يكن من أمر فان الرجل كان من علو المنزلة في العلم ماجعل خصومه يتحامون لقاءه ونظارته ، ويلوذون بالتعصب عليه ، فلم يضره ذلك ، ولـم يمس مكانته بسوء ، وارتد التعصب والتحامل الى صدور خصومه لتزداد حسرة واتقادا.

---

(٥٠) يريد بالمعرفة غير الموقتة ما كان معرفة بأل . أو الاسماء الموصولة .
(٥١) معانى القرآن ٢٦٧/١ .

اصحاب الفراء

وتلمذ للفراء كثير من الدارسين كانوا يحضرون مجالس الاملاء ، ويلازمونه ، ويستكثرون عنه ، وبرز من تلاميذه اعلام حملوا الامانة وشاركوا في تثبيت قواعد المذهب . وكان من أشهرهم :

أبو محمد سلمة بن عاصم (توفي بعد سنة ٢٧٠ هـ) . تلميذ الفراء ، وحامل علمه ، وراوي كتبه . روى كتاب معاني القرآن ، وكتاب الحدود في النحو وكان ثعلب أخذ معاني الفراء وحدوده عن سلمة ، وكان يقول :«كان سلمة حافظا لتأدية مافي الكتب» (١) .

لم يكن سلمة بن عاصم يحضر مجلس الفراء يوم املاء المعاني ، وكان يأخذه ممن كان يحضره ، وربما فاتش الفراء فيما كان يراه سهوا فيه . أما كتاب الحدود فقد أخذه عن الفراء اذ كان الفراء صنفه . وكتاب الحدود كتاب في النحو الخالص، والحدود فيه ستون حدا ، ولكن ابن النديم عرض لها ، وعدتها عنده خمسة وأربعون حدا (٢) ، واثبت هذه الحدود عن نسخة بخط سلمة أولها : حد الاعراب في أصول العربية ، وآخرها : حد مايجرى وما لايجرى (٣) . فاين ذهبت الخمسة عشر حدا وهي فرق مابين عدة ابن النديم وعدة غيره ؟

لعل مرد هذا الاختلاف في العدد هو من فعل النساخ ، وميل بعضهم الى الايجاز بدمج أكثر من حد في حد واحد ، كما استظهر الدكتور الانصاري (٤) أو ميل بعضهم الى التفصيل بفك الحدود التي تنتظم أكثر من موضوع واحد مثل(حدمِنْ ورُبَّ) و (حدالذى ومَنْ وما)و(حد إذْ واذا واذن) كما استظهر .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠ . انباه الرواة ٥٧/٢ . نزهة الالباء ٢٠٤ .

(٣) فهرست ابن النديم ١٠٠ .

(٤) أبو زكريا الفراء ١٨٣ .

لان رواية ابن النديم أولى بالاعتبار ، لانه ذكر الحدود حدا حدا ، ولانه نقلها من نسخة وقف عليها بخط سلمة بن عاصم نفسه ·

على أن الدارس لايكاد يقف على رأى لسلمة في كتب النحو ، وقد يكـــون الامر كما فطن أبو العباس ثعلب حين قال : « كان سلمة حافظا لتأدية مافـــي الكتب » ، فكان سلمة بن عاصم حافظا ضابطا ثقة ، يؤدي مافي الكتب ولايشارك برأيه فيما يؤديه ·

وأبو عبدالله الطوال محمد بن أحمد بن عبدالله (توفي ســـنة ٢٤٣ هـ) · كان من جلة أصحاب الفراء ، كما ذكر القفطي (٥) وغيره ، وكان أحد الثلاثـــة المشاهير من أصحاب الفراء الذين ذكرهم ثعلب فيما نقل عنه ، ولم يشتهر للطوال تصنيف ، غير أن كتب النحو تناقلت بعض آرائه ، ومن آرائه :

أنه أجاز تقديم الفاعل الذي اتصل به ضمير المفعول ، نحو : (ضـــرب غلامه زيدا) في اختيار الكلام (٦) ، لوروده في النظم كثيرا ، كقول الشاعر :

جزى ربه عنى عدي بن حاتم　　　جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقول الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر　　　وحسن فعل كما يُجزَى سنمّار

وذهب الى أن اللام في نحو قولهم : ان زيدا لشاعر « جواب قسم مقدر قبل ان »(٧) ، ولم يبعد هنا عن تسمية اللام عند الكوفيين بلام التوكيد ، لان الـــلام الوقعة في جواب القسم هي لام توكيد ·

وابن قادم أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن قادم ، صاحب الفراء «كان يؤدب ولد سعيد بن قتيبة الباهلي » (٨) ، وقد أخذ عنه ثعلب ، وربما كان ثعلـــب يفضله على سلمة بن عاصم وأبي عبدالله الطوال ، اذ قال : « وكان ابن قادم حسن النظر في العلل » (٩) ·

---

(٥) انباه الرواة ٢/٩٢ ·
(٦) همع الهوامع ١/٦٦ ·
(٧) همع الهوامع ١/١٤٠ ·
(٨) معجم الادباء ١٨/٢٠٧ ·
(٩) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠ ·

ولم أقف على رأي له ، غير أن المترجمين له ذكروا أنه سئل يوما : « كيف يقال : وهذا المال مالا ، أو هذا المال مال » ، فقال : الوجه « وهذا المال مال » ، ويجوز « وهذا المال مالا » . ولاريب أن تجويزه النصب في قولهم : « وهذا المال مالا » انما يصدر عن مذهب بغدادي كوفي هو النصب على التقريب ، وقد جاء فيما حكى ثعلب قولهم : « كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قادما ، أي الخليفة قادم ، فكلما رأيت (هذا) يدخل ويخرج والمعنى واحد فهو تقريب .. من كان الناس مرزوقا فهذا الصياد محروماً ، والصيّادُ ، محرومٌ ، باسقاط (هذا) بمعنىً ، فقد دخلت لتقرب الفعل مثل (كان) »(١٠) .

ولم أجد من نص على السنة التي توفي فيها ابن قادم ، غير أن المترجمين له ذكروا أنه خرج من بيته لتلبية أمر المعتز بالله بمثوله بين يديه ، ولم يعد الى البيت . وذكر ياقوت أن ذلك في سنة احدى وخمسين ومئتين (١١) ، وهو في أكبر الظن ، وهم من ياقوت لان ابن قادم كان شوهد في مجلس ثعلب شيخا يتوكأ على عصا سنة ٢٥٥ (١٢) ، ولان خلافة المعتز كانت بين سنة ٢٥٢، وسنة ٢٥٥ (١٣) .

ولابن قادم من المصنفات : كتاب الكافي في النحو ، وكتاب غريب الحديث .

وأبو جعفر محمد بن سعدان (توفي سنة ٢٣١ هـ) . كان مقرئا ، وكان نحويا « أخذ القراءة عرضا عن سليم بن عيسى عن حمزة ، وعن يحيى بن المبارك اليزيدي عن أبي عمرو ، وعن اسحاق بن محمد المسيبي عن نافع ، وعن معلى بن منصور عن أبي بكر بن عاصم ، فقد أخذ بهذا عن أهل المدينة والكوفة والبصرة (١٤) .

---

(١٠) مجالس ثعلب ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
(١١) معجم الادباء ٢٠٩/١٨ .
(١٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥١ . انباه الرواة ١٥٧/٣ .
(١٣) المعارف ١٧٢ . تاريخ الطبري ١٦٦٨/١٢ فما بعدها .
(١٤) معجم الأدباء ٢٠٢/١٨ .

ولمحمد بن سعدان آراء في مسائل النحو تتناقلها كتب النحو ، منها :

ذهابه الى أن (رب) هي للتقليل (١٥) ٠

وذهابه الى أن (كلا) بمنزلة (سوف) (١٦) ٠

وانكاره أن يعطف بـ (لا) نداء ، وكان يرد على سيبويه في اجازته نحو قولهم : يابن أخي لابن عمي ، وكان يقول : ليس هذا من كلامهم» (١٧) ٠

وكان سيبويه يقول : « وتقول : يازيد وعمرو ليس الا أنهما قد اشتركا في النداء في قوله (يا) ، وكذلك يازيد وعبدالله ويازيد لاعمرو ، ويازيد أو عمرو، لان هذه الحروف تُدخِل الرفع في الآخر كما دخل في الاول ، وليس مابعدها بصفة ، ولكنه على (يا) » (١٨) ٠

وذهابه في نحو قولهم : خاصم زيد عمرا الكريمان والكريمين الى جواز اتباع كل منهما ، « لان كلا منهما مخاصم ومخاصم ، فهو فاعل ومفعول به (١٨)٠

وأبو جعفر محمدبن حبيب (توفي سنة ٢٤٥ هـ) من علماء بغداد باللغة باللغة والشعر والاخبار والانساب الثقات (٢٠) ، وكان أبو الطيب اللغوي يرى أنه « صاحب اخبار ، وليس في اللغة هناك » (٢١) ٠ ويبدو ان ابا الطيب كان ينظر اليه كما كان ينظر الى الدارسين فى بغداد جملة ، على أنهم « حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به فى كلام ، ولا من يرتضى روايته » ، بل كان ينظر الى بغداد أنها « مدينة ملك وليس بمدينة علم ، وما فيها من العلم

(١٥) همع الهوامع ٢/٢٥ ٠
(١٦) همع الهوامع ٢/٧٥ ٠
(١٧) همع الهوامع ٢/١٣٧ ٠
(١٨) الكتاب ١/٣٠٥ ٠
(١٩) همع الهوامع ٢/١١٩ ٠
(٢٠) معجم الادباء ١٨/١١٢ ٠
(٢١) مراتب النحويين ٩٦ ٠

فمنقول اليها ، ومجلوب الخلفاء وأتباعهم ورعيتهم ، ونيتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة (٢٢) ٠

غير أن ابن النديم يراه غير ذلك ٠ كان يقول في ترجمته : « كان من علماء بغداد بالانساب والاخبار واللغة والشعر والقبائل وعمل قطعة من أشعار العرب ٠ روى عن ابن الاعرابي وقطرب وأبي عبيدة وأبي اليقظان وغيرهم ، وكان مؤدبا وكتبه صحيحة (٢٣) ٠ وكان أبو سعيد السكري يستكثر عنه (٢٤) ٠

ثبت ابن النديم له عدة مصنفات منها : كتاب الامثال على أفعل ، وكتاب المحبر وكتاب نقائض جرير والفرزدق ، وأكبر كتبه هو كتاب القبائل الكبير جمعه للفتح بن خاقان ، وكان ابن النديم قد رأى النسخة بعينها في نيف وعشرين جزءا ، ويظن أنها تبلغ في العدة أكثر من هذا ، وذكر أن لهذه النسخة فهرستاً بخط التستري بن علي الوراق (٢٥) ٠

وكان ثعلب يوثقه ، ويرى أن يعقوب بن السكيت أعلم منه باللغة ، ولكنه أحفظ للأنساب والاخبار من يعقوب (٢٦) ٠

---

(٢٢) مراتب النحويين ١٠١ ٠
(٢٣) فهرست ابن النديم ١٥٥ ٠
(٢٤) انظر : معجم الادباء ١٨/١١٣ ٠
(٢٥) فهرست ابن النديم ١٥٦ ٠
(٢٦) تاريخ بغداد ٢/٢٧٨ ٠ معجم الادباء ١٨/١١٤ ٠

ثعلب

ابو العباس أحمد بن يحيى (توفي سنة ٢٩١ هـ)

دخل المأمون بغداد سنة اربع ومئتين للهجرة ، وكان بين شهود الركب رجل يحمل على يده طفلا له لايتجاوز عمره أربع سنوات ، فلما مر المأمون قال الرجل لطفله : «هذا المأمون ، وهذه سنة أربع » (١) .

وبقي الطفل الذكي يتذكر هذه العبارة ، فكان يؤرخ لحياته ويقول : «كان أبي قد حملني على يده ، فلما مر المأمون رفعني وقال لي : هذا المأمون وهذه سنة أربع ، فحفظت ذلك الى هذه الغاية ، وحذقت العربية ، وحفظت كتب الفراء كلها حتى لم يشذ عني حرف منها ، ولي خمس وعشرون سنة » (٢) .

وكان يقول : « مات الكرخي معروف سنة مئتين ، وفيها ولدت ، وطلبت العربية سنة ست عشرة ومئتين ، وابتدأت بالنظر في حدود الفراء ولي ثماني عشرة سنة ، وبلغت خمسا وعشرين سنة ، وما بقي علي للفراء مسألة الا وأنا أحفظها ، وأضبط موضعها من الكتاب ، ولم يبق من كتب الفراء في هذا الوقت شيء الا وأنا قد حفظته »(٣) وعُمِّر أبو العباس طويلا حتى تجاوز عمره تسعين سنة ، وكان سبب موته أنه كان يسير في الطريق وهو يقرأ كتابا ، فصدمته دابة لم يسمع وقع حوافرها لصمم ألم به «فسقط على رأسه في هوة من الطريق أخذ ترابها ، فلم يقدر على القيام » (٤) ، وكان قد بلغ من العمر تسعين سنة وأشهرا وكان ذلك سنة احدى وتسعين ومئتين للهجرة «وكان قد رأى أحد عشر خليفة ، أولهم المأمون ، وآخرهم المكتفي » (٥) .

---

(١) نور القبس ٣٣٤ .

(٣) نزهة الالباء ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٤) معجم الادباء ٥/١٠٧ .

(٥) معجم الادباء ٥/١٠٥ .

هذا هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب الذي انتهت اليه الرئاسة في بغداد بعد الفراء ، بعد أن لم يملأ الفراغ الذي تركه في بيئات الدرس أحد من تلاميذه الكثر الذين لازموه ، واستكثروا عنه .

وتصدر أبو العباس ثعلب مجالس الدرس ، واختلف الدارسون الى مجلسه ، وهو حدث لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره (٦) . وقد عرف مذ هو حدث بالحفظ والضبط والصدق وغزارة العلم ، ورواية الغريب والشعر القديم حتى « ان أبا عبدالله بن الاعرابي (وهو أحد الشيوخ الذين أخذ عنهم ثعلب) كان يشك في الشيء فيقول له : ماعندك ياأبا العباس في هذا ؟ ثقة بغزارة حفظه » (٧) .

ولم ير أبو العباس ثعلب الفراء لان عمره كان يوم توفي الفراء لايزيد على سبع سنوات ، ولكنه تلمذ له بقراءة كتبه على سلمة بن عاصم ، وقد ألم بآرائه وآراء الكسائي أيضا ، وحفظ لنا أقوالهما التي وقف عليها فيما فقد من كتبهما ، ككتاب المعاني للكسائي ، وكتاب الحدود في النحو للفراء .

وقد تأثر أبو العباس نهجهما في احترام القراءات ، والاعتداد بالسماع ، والاحتجاج بكلام العرب ، ولم يكن معتدا بالقياس ولا طالبا له ، ولا معنيا بالتعليل والتأويل ، « وكان يقول : قال الكسائي والفراء ، فاذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يعرف النظر» (٨) .

وقد أخذ أبو العباس عن أعلام عصره في النحو واللغة والادب والحديث والقراءة ، فكان يأخذ النحو عن سلمة بن عاصم ، كما ذكرنا ، واللغة عن أبي عبدالله محمد بن زياد الاعرابي ، والادب عن محمد بن سلام الجُمَحي .

قال أبو الطيب اللغوي : « كان ثعلب يعتمد على ابن الاعرابي في اللغة ، وعلى سلمة بن عاصم في النحو ، ويروي عن ابن نجدة كتب أبي زيد ، وعن

---

(٦) تاريخ بغداد ٥/٢٠٩٠

(٧) تاريخ بغداد ٥/٢٠٥ .

(٨) معجم الادباء ٥/١٢٠ .

الاثرم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الاصمعي ، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه» (٩) ·

وذكر الخطيب البغدادي أنه « سمع ابراهيم بن المنذر الحزامي (١٠) ، ومحمد بن سلام الجمحي ، ومحمد بن زياد الاعرابي ، وعلي بن المغيرة الاثرم ، وسلمة بن عاصم ، وعبدالله بن عمر القواريري ، والزبير بن بكار » (١١) ·

وتلمذ له أكثر أعلام الدرس الذين نبهوا بعده في بيئات الدرس في بغداد ، وكان من أوائل الدارسين عليه : أبو اسحاق الزجاج ، وأبو الحسن بن كيسان، وعلي بن سليمان الاخفش ، وأبو بكر بن الانباري ، وأبو عمر الزاهد ، وأبو بكر بن شقير ، وأبو بكر محمد بن عبدالملك التاريخي السراج البغدادي ، وغيرهم ·

وكان أبو العباس ثعلب في دراسته – من وجهة النظر اللغوية الحديثة – اقرب مايكون الى الدرس النحوي الحق ، فقد عرف حدود الدرس النحوي ، فوقف عندها ، ولم يضره ولا ضار منهجه ماظنه البصريون طعنا عليه ، فعدم اعتداده بالقياس او بالتعليل ، واعتماده السماع والنقل جعل منه دارسا نحويا أصيلا · وهذا هو السبب الذي جعله يتحامى لقاء المبرد ، كما قيل ، لانه لم يبن دراسته على أسس عقلية ، ولا حذق أساليب المتكلمين في الجدل والنظارة ، فاذا اجتمع هو والمبرد للمناظرة مال الناس الى المبرد ، لالتزامه اساليب الفلسفة واتسامه بقوة المنطق · وكان أبو العباس ثعلب في بغداد مرجع الدارسين غير منازع ، حتى اذا ورد المبرد بغداد اخذ بعض الدارسين من تلاميذه ينقطعون عنه ، لانهم رأوا في المبرد طرازا جديدا من الدارسين ، وبمجلس الدرس الذي يتصدره نحوا جديدا أيضا لم يألفوا مثله فيما كانوا يسمعون من ثعلب ·

(٩) مراتب النحويين ٩٦ ·

(١٠) وفي معجم الادباء ٥/١٠٨ : الحراني ·

(١١) تاريخ بغداد ٥/٢٠٤ ·

وكان من تلاميذه الذين انقطعوا عنه أبو علي الدينوري زوج ابنته ،وكان أبو علي يخرج من دار ثعلب يحمل محبرته ودفتره فيتخطى أصحابه الى مجلس المبرد ، وكان ذلك يغيظه ، وربما عاتبه على ذلك ، وقال له : « اذا رآك الناس تمضي الى هذا الرجل ، وتقرأ عليه يقولون ماذا » (١٢) ، ولكن أبا علي كـــان يمضي لايلوى على شيء ولا يلتفت اليه .

وكان أبو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج من الدارسين الذين كـــان اعتمادهم على ثعلب أولا ، فلما ورد المبرد بغداد أراد أن يناظره ، فذهب اليه ، واستأذنه في المفاتشة فاذن له ، وكان يعتزم اعناته ، فلما باحثه الجمه المبرد بالحجة ، والزمه بالزامات لم يهتد الزجاج اليها ، فتيقن فضله ، واســـترجع عقله ، ثم انقطع عن ثعلب ولازم المبرد ، وكان الزجاج هو الذي يتحدث عـــن هذا (١٣) ، ولم يسمع ـ مع ذلك ـ من الزجاج مايغض من علم ثعلب ، أو يمس مكانته في العلم والحفظ والصدق . والمسالة عند الزجاج ، كما يفهم من كلامه ، مسالة احتجاجات والزامات وتعليلات ، وهذه أمور لم يعهدها في ثعلب ، لان ثعلبا كان يصدر عن مذهب لغوي لامكان للقياس فيه ، ولا صلة له بالاعتبارات العقلية والاساليب الكلامية ، فلم يكن النحو ليكون ميدانا للصراع العقلي ، ولا موضوعا من موضوعات الفلسفة والكلام .

ولم يكتف المبرد بملازمة الزجاج اياه ، وانقطاعه عن أستاذه ، وكان نفس المبرد لم تجد الهدوء فيما تم له من ملازمة الزجاج اياه ، وانقطاعه عـــن منافسه ، ففرض عليه أن يقطع كل الاسباب التي تشده الى استاذه ، وأمره أن يطرح كتبه وكتب أصحابه (١٤) ، واستجاب الزجاج له في كل ما أمره بــه ،

---

(١٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥٦ .

(١٣) معجم الادباء ١٩/١١٧ ، ١١٨ . نزهة الالباء ٢٩٠ .

(١٤) طبقات النحويين ١١٩ ... انباه الرواة ٣/٢٥٠ .

وكان ذلك للمبرد خير هبة ، وخيرا من الثلاثين درهما التي كان يجريها الزجاج عليه كل شهر .

وباشتداد المنافسة بين الرجلين ، واضطرام العصبية بين أصحابها برزت شخصية سيبويه ، وظهر كتابه في بغداد ، وكانت أقوال البصريين في(الكتاب) تمهد لهذا الظهور ، فقد كان أبو عثمان المازني يقول : «من أراد أن يصنف كتابا كبيرا بعد كتاب سيبويه فليستحي» (١٧) وكان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر ! تعظيما له ، واستصعابا لما فيه»(١٦) .

ولا أظن المبرد كان يعني مايقول ، ولكنه رأى في الدعوة للكتاب مايحقق رغبته في الغلبة ، ولو عنى ماقال حقا لما تصدى له هو فنقض بعض ماجاء فيه ، ثم انتصر له أحد تلاميذه وهو ابن ولاد .

والحق أن الكتاب جدير بأن يتسنم هذه المنزلة في نفوس الدارسين ، لانه المورد العظيم الذي صدر عنه الدارسون كل الدارسين ، فهو اذن كتاب الدارسين وامامهم ، لاأستثني أحدا منهم ، ولم يكن هذا ليعني الالتزام بمنهجه والاكتفاء بما جاء فيه ، فقد كان للبغداديين فعلا وجهة نظر أخرى ، وأسس مذهبية خاصة ، ولذلك تفاوتت النتائج ، واختلف خط المسير ، وكانت افادة البغداديين الأولين من الكتاب سبيل البصريين للتكاثر عليهم والتضعيف من شأنهم ، حتى لكأن العلم حكر على البصريين ، لاينبغي أن يجترىء دارس آخر فيدلي برأي يخالف آراءهم ، أو ينهج منهجا يعارض منهجهم .

ومات أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فخلف مصنفات كثيرة منها : كتاب معاني الشعر،وكتاب الفصيح ، وكتاب (المجالس) وهو «مجالسات وأمال أملاها على أصحابه في مجالسه ، تحتوي على قطعة من النحو واللغة والأخبار

---

(١٥) اخبار النحويين البصريين ٣٩ .

(١٦) أخبار النحويين البصريين ٣٩ .

ومعاني القرآن والشعر رواها عنه جماعة » · (١٧) وخلف فوق ذلــك علما كثيرا ، ونهجا قويما ، ودرسا نحويا حياً ، ولم تستطع ادعاءات الخصوم أن تخفي السمات التي اتسم بها الرجل وهي الحفظ والضبط والصدق وغزارة العلـم ، ولم يستطع غمط هذا حتى المبرد الذي كان أعنف المنافسين له فقد كان يقول : « أعلم الكوفيين ثعلب » (١٨) · وسأل أبو عمر الزاهد أبا بكر بن السراج فقـال له : « أي الرجلين أعلم ؟ ثعلب أم المبرد ؟ فقال : ما أقول في رجلين العالـــم بينهما ! » (١٩) ·

---

(١٧) فهرست بن النديم ١١١ ·

(١٨) نزهة الالباء ٢٩٥ ·

(١٩) معجم الادباء ٥/١٣٨

خصائص المذهب البغدادي

لابد ، لكي نرسم خطوط المذهب البغدادي (الكوفي) • أن نثبت الخطوط الرئيسة للمذهب البصري • ثم الخطوط الرئيسة للمذهب البغدادي ، ليتسنى لنا أن نوازن بين المذهبين ، ونقف على أسس الخلاف بينهما •

وبالرجوع الى النحو البصري ، والى الشيوخ الذين يمثلونه تطالعنا امور :

١ - خصائص الدرس النحوي البصري تحكيم المنطق في الظواهر اللغوية ، واخضاع الاصول الى أحكام العقل ، واصطناع أساليب المتكلمين في تثبيت أصل ، أو توضيح قاعدة •

وخير مايمثل هذا ما دار بين محمد بن يزيد المبرد الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو البصري ، وأحمد بن يحيى ثعلب ، الذي انتهت اليه الرئاسة في النحو البغدادي ، من مناظرة في مسائل لغوية أو نحوية في مجلس محمد ابن عبدالله بن طاهر ، فقد طرح ابن طاهر في ذلك المجلس أسئلة تتعلق باللغة والنحو ليتناقش فيها الرئيسان •••

ومن جملة هذه الاسئلة سؤال يتعلق بهمزة (بين بين) «ساكنة ام متحركة؟» •

قال احمد بن يحيى : لاساكنة ، ولامتحركة ، فقال ابن طاهر للمبرد : ما تقول يامحمد ؟ قال المبرد « قوله : لا ساكنة ، قد أقر أنها متحركة ، وقوله لامتحركة قد اقر انها ساكنة ، فهي ساكنة لاساكنة ، متحركة لامتحركة » • فقال ابن طاهر « فلم سميت بين بين ؟ قال المبرد : «لانها اذا خففت فقد جعلت بين الهمزة وبين مامنه حركتها »(١) •

---

(١) مجالس العلماء ـ الزجاجي ١٢٣ •

بمثل هذا الاسلوب كان المبرد يتناول موضوعات الدرس النحوي أو اللغوي ، وبهذه الالزامات العقلية كان ينشد الغلبة على منافسة ، ولم يكن المبرد في مناظرته مع ثعلب الا سوفسطائيا يتذرع بالبهرجة ليحظى باعجاب ابن طاهر وجلاسه ، وقد نجح في الوصول الى الغاية ، فقد ضمه ابن طاهر اليه واختصه في مجلسه ٠

ولم يحكم البصريون المنطق في الدرس النحوي الا لانهم كانوا يعتقدون أن اللغة تجري وفق منطق العقل لاتحيد عنه ، وهو اعتقاد خطأ لايقره الدرس اللغوي ، لان للغة منطقا خاصا لاعلاقة له بمنطق العقل ، ولو أراد نحوي أن يحكم منطق العقل في اللغة وقوانينها لما وصل الى تفسير صحيح للظواهر اللغوية ، ولكان انتهى درسه الى مثل ماانتهى اليه الدرس البصري ٠

٢ ـ وأن الدرس البصري يعتد بالقياس ، ويجعله أصلا من أصول الدرس والقياس هو الانتقال من الكلي الى الجزئي ، وقد ادى به هذا الى احترام الاصول العامة الموضوعة ، ومن أجل احترام هذه الاصول كانوا لايلتفتون الى كل مسموع، فاذا واجههم مسموع صحيح موثوق بقائله ولا ينتظمه الاصل لجئوا الى التأويل والتقدير ، فان خضع للاصل الموضوع بهما والا وصفوه بالشذوذ وجعلوه من الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه ، واذا لم تصح روايته عندهم ردوه ٠

بهذا يفسر موقفهم من القراءات ، فقد كانوا يتناولونها كما يتناولون المسموعات من العرب ، فان انتظمتها الاصول قبلوها وان لم تخضع لتلك الاصول وصفوها بالشذوذ ، او بالخطأ واللحن ، وطعنوا على القراء ، ورموهم بالجهل بالعربية ٠

فاذا تناولوا قوله تعالى : « ان هذان لساحران » بالالف وقوله: «زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم» بنصب الاولاد وقوله : تعالى : « تساءلون به والارحام » بالخفض ، رفضوه لانه يخالف الاصول ، وتمسكوا بمقالة جاءتهم عن بعض الصحابة : « ان في المصحف لحنا وستقيمه العرب» (٢)، كما تمسك أبو عمرو بن العلاء ، ورفض قراءة الآية بالآلف ، وكان يقول :

---

(٢) معاني القرآن ٢/١٨٣ ٠

« اني لاستحي من الله تعالى أن أقرأ : « ان هذان » (٣) مع أن هـذه القـراءة جاءت موافقة للغة بني الحارث بن كعب ، وزبيد ، وخثعم وبنـي كنـانة اذ يجعلون الاثنين فى رفعهما وخفضهما بالالف ، وهي لغات حكاها أبو الخطـاب الاخفش ، وابو زيد الانصاري والكسائي والفراء (٤) .

ومن اليسير أن نتصور موقفهم من الاحاديث التي تخالف أصولهم ، ورفضهم الاستشهاد بها بحجة ان الاحاديث انما رويت بالمعنى وان كثيرا من حملتهـا لم يكونوا عرباً . فلم يؤمن اللحن ان يتطرق الى رواياتهم ، وان لم يتعمدوه . غيـر انهم كانوا على وهم في الموقفين .

١ ـ اما موقفهم من القراءات فلأن القراءات انما تعتمد صحةالنقل وسلامـة الرواية ، وهذا هو طريقها ، وعلى حين كان البصريون يدعون أنهم يتشددون فى الرواية ، ويزعمون أنهم يأخذون اللغة عن الاعراب الموثوق بفصاحتهم كـانوا يترددون فى قبول القراءات اذا خالفت أصولهم ، ويطعنون على القراء ، وينسبون اليهم الجهل بالعربية ، مع ان «ائمة القراء لا تعمل فى شيء مـن حروف القرآن على الافشى فى اللغة والاقيس فى العربية بل على الاثبت فى الاثر والاصح فـى النقل ، والرواية اذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة »(٥).

وكان ابن خالويه يقول فى مقدمته لكتاب (الحجة) : « وبعد فانى تدبرت قراءة الائمة السبعة من أهل الامصار الخمسة المعروفين بصحة النقل ، واتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ ، فرأيت كلا منهم قد ذهب فـى اعراب ما انفرد به من حرفه مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد مـن القياس وجها لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية ، غـير مؤثر للاختيار على واجب الآثار »(٦) .

---

(٣) تفسير القرطبى ١١/٢١٦ .
(٤) معانى القرآن ٢/١٨٤ .
(٥) النشر فى القراءات العشر ١/١٠ .
(٦) الحجة في القراءات السبع ـ ابن خالويه ٣٧ ، ٣٨ بيروت .

وعرض أبو حيان لتفسير قوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » وهى قراءة عبدالله بن عامر ، فقال : « جمهور البصريين يمنعونها ، متقدموهم ومتأخروهم ، ولا يجيزون ذلك الا فى ضرورة الشعر . وبعض النحويين اجازها وهو الصحيح لوجودها فى هذه القراءة المتواترة المنسوبة الى العربى الصريح المحض ، الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن فى لسان العرب »(٧) .

(٢) واما موقفهم من الأحاديث فلأن كثيرا من رواة الحديث كانوا من الفصحاء كالصحابة والتابعين ، ومن هؤلاء : عامر بن شراحيل الشعبى الذى كاثر به أبو بكر بن عياش مناظره فى مجلس ابي العباس : «واين انت عمره لم ترَ عينك مثله فى زمانه من اصحاب النبى ، ولا احفظ ، ولا افقه فى الدين ، ولا اصدق ، ولا اعرف بمغازي النبى صلى الله عليه وسلم ، وايام العرب ، وحدود الاسلام والفرائض والغريب والشعر ، ولا اوصف لكل امر من عامر بن شراحيل الشعبى »(٨) .

وعبدالله بن شبرمة الذى تحدث عنه الجاحظ فقال : « كان فقيها عالما قاضيا ، وكان راوية شاعرا ، وكان خطيبا ناسكا وكان حاضر الجواب مفوها ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبى »(٩) .

---

(٧) البحر المحيط ٤/٢٢٩ .

(٨) مختصر كتاب البلدان ١٧١ ليدن .

(٩) البيان والتبيين ١/٣٢٣ .

وايوب بن ابى تميمة الذى قال الحسن البصرى متحدثا عنه « أيوب سيد شباب أهل البصرة »(١٠) والذى كان يقول : « تعلموا النحو فانه جمال الوضيع، وتركه هجنة للشريف »(١١) .

وحماد بن سلمة الذى كان يقول : « من لحن في حديثي فقد كـــذب علي » (١٢) .

فتَرْك الاستشهاد بالحديث تعنّت اتسمت به حذلقتهم وتقعرهم ، وهـدر لجانب كبير من مصادر الدرس النحوي .

والبصريون باعتمادهم على القياس انما يصدرون عن اعتقاد بأن اللغــة منطقية ، وعن اعتداد بالعقل وأحكامه ، وقد أومأنا الى أن ذلك خطأ في المنهج لان اللغة لاتخضع للاحكام العقلية ، ولاتجري وفق الاسس المنطقية ، لانهـــا ليست ثابتة ، ولانها ظاهرة حيوية اجتماعية ، تتطور بتطور الحياة نفسهـــا ، وتسير وفق قوانين يحدد الاستعمال اتجاهاتها ، فهي اذن متغيرة لاتبقى عـــلى حال ، بل التغير من مقومات وجودها ، ولولا اعتقادهم بثباتها ، وعدم تغيرهـا لما اصطنعوا التأويلات والتقديرات ، لان التقديرات انما تهدف الى رد الكلمة الى قالبها الذهنى المتطور .

ومن أجل هذا لم يكونوا يعتدون بالسماع ، والسماع المقبول عندهــم ما انتظمته الأصول العامة ، والاعتبارات العقلية التى اصطنعوها ، ومن اجل هـذا ايضا لم يقبلوا السماع اذا لم يرد بالتعليل الى تلك الاصول الموضوعة .

اما خصائص الدرس البغدادى (الكوفي) فالخصها فيما يأتى :

(١) الاول أن البغداديين كانوا يعتدون بالسماع والنقل ، ويتخذون من المسموعات أساسا لوضع قواعدهم ، وكان من عادتهم « أنهم اذا اسمعوا لفظا

---

(١٠) البيان والتبيين ٣/ هامش ١٥٤ .

(١١) البيان والتبيين ٢/٢٣٣ .

(١٢) أخبار النحويين البصريين ٤٣ بيروت .

في شعر او نادر كلام جعلوه بابا »(١٣) . وانهم « لو سمعو بيتا واحدا فيه شيء مخالف للاصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه »(١٤) . وان مذهبهم « لواؤه بيد السماع ، لا يخفر له ذمة ، ولا ينقض له عهدا ، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله ، ونسف قاعدة من قواعده ، ولا يهون عليه اطراح المسموع »(١٤) .

وكان لهم من القراءات موقف خاص يتميزون به من البصريين ، فقد كانوا يجعلون من القراءات مصدرا مهما من مصادر علمهم ، لا يرفضون قراءة صح سندها ، ولا يطعنون على قارىء ولا يرمونه بالجهل اذا كانت تخالف الاصول الموضوعة . ويرجع اعتدادهم بالقراءات ، وجعلها في مقدمة المصادر التي يستندون اليها الى :

(١) أن البغداديَّيْن الكسائي والفراء كانا قد نشآ في الكوفة ، وان الكوفة كانت مهبط الصحابة ومنزل التابعين ، وقد نزل فيها عدد كبير ، وصارت الكوفة بهم موطن القراءات وكان فيها من أئمة القراءة : عاصم بن ابي النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلي بن حمزة الكسائي ، وترجع قراءاتهم جميعا الى ابي عبدالرحمن السلمي وزر بن حبيش ، وكان هذان مرجع القراءة في الكوفة والبصرة . وقد عرف هؤلاء القراء بالضبط والاتقان ، وبالالمام الواسع باللغة .

فقد كان عاصم بن ابي النجود يجمع « بين الفصاحة والاتقان والتجويد »(١٥) .

وعرف عن حمزة بن حبيب الزيات أنه « كان ثقة كبيرا ، حجة رضيا ، قيّماً بكتاب الله ، مجودا ، عارفا بالفرائض والعربية »(١٦) .

---

(١٣) همع الهوامع ١/٤٥ .

(١٤) نظرة في النحو / مجلة المجمع العلمي بدمشق م ١٤ ج ٩ ، ١٠ ص ٣١٩ .

(١٥) غاية النهاية ١/٣٨٦ .

(١٦) النشر ١/١٦٦ .

أما الكسائى فحاله معلومة فهو امام من أئمة العربية ، مع أنه من أئمة القراءة ، وهو رأس مدرسة بغداد فى النحو .

وكان للقراءات تأثير كبير فى النحو البغدادى ، وفى النتائج التى توصل اليها البغداديون مما كان مخالفا لما انتهى اليه البصريون ، ولم يعد للاصول البصرية الموضوعة ذلك الاعتبار لدى الدارسين الجدد ، ولا للسيطرة العقلية على القواعد البصرية تأثير فى القواعد البغدادية .

فـ (انّ) مثلا عند البصريين حرف له قوة الفعل فى العمل ، لانها تشبه الفعل من خمسة أوجه :

« الاول : أنها مبنية على الفتح ، كما أن الفعل الماضى مبنى على الفتح .

والوجه الثانى : أنها على ثلاثة أحرف ، كما أن الفعل على ثلاثة أحرف .

والوجه الثالث : أنها تلزم الاسماء ، كما أن الفعل يلزم الاسماء .

والوجه الرابع : أنها تدخل عليها نون الوقاية ، كما تدخل على الفعل ، نحو انني ، وكانني ، ولكنني .

والوجه الخامس : أن فيها معانى الافعال ، فمعنى (انّ وأنّ) : حققْت . ومعنى (كأن) : شبَّهْت ، ومعنى (لكن) : استدركْت ومعنى (ليت) : تمنيت ، (لعل) : ترجيت »(١٧) .

وعلى ما لانّ من شبه بالفعل عندهم منحت تأثير الفعل ، وعملت نصبا ورفعا ، كما عمل الفعل ، صارت (ان) عند البصريين وكان اعمل من لوازمها ، فاذا ورد من كلام العرب ما يخالف هذا ردوه ، فاذا لم يستطيعوا رده ، لشيوعه فى الاستعمال ، وكثرته فى الكلام راحوا يتأولون ويقدرون حتى تستقيم القاعدة ، ويبقى لـ (ان) سلطانها فى الكلام .. يفعلون ذلك حتى فيما كان منه فى القرآن .

---

(١٧) أسرار العربية ـ الأنباري ٦١ ليدن .

ومن الامثلة على تمسكهم بهذه القاعدة : موقفهم من قراءة أهل الكوفة قوله تعالى : « ان هذان لساحران » فقد كان أبو عمرو يقرأ : «ان هذين لساحران» ويرى أن قراءة « ان هذان لساحران » لحن ، محتجا بأنه « بلغه عن بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان في المصحف لحنا وستقيمه العرب » (١٨) ، وكان يقول : « اني لأستحي من الله أن اقرأ : ان هذان»(١٩) .

ومن قرأها بالالف منهم لجأ الى التأويل ، فبعضهم أضمر الهاء ــ ضمير الشأن ــ والمعنى : « انّه هذان لساحران » (٢٠) ، ومن لم يضمر الهاء قدر أن تكون (انّ) في هذه الآية بمعنى نعم ،وحمل عليه قوله :صلى الله عليه وسلم :«انّ الحمدُ ــ بالرفع ــ لله نحمده ونستعينه »(٢١) .

وتناول الفراء هذه الآية بالتفسير ، وعرض للقراءات المختلفة فيها . وللمروى عن عائشة : « هذا خطأ من الكاتب »(٢٢) ، ولقراءة أبيعمرو واحتجاجه بما بلغه عن بعض الصحابة مما ذكر من قوله : « ان فى المصحف لحنا وستقيمه العرب » ... تناول الفراء ذلك ، وعرض لكل ذلك ، ولكنه جرى على ما كان فى المصحف ، وقال : « ولستت أشتهى ان أخالف الكتاب »(٢٣) .

وأكبر الظن أن هذا وما شابهه كان سبيل البغداديين (الكوفيين) الى ما ذهبوا اليه ، من أن (ان) لا تعمل الا فى الاسم ، أما الخبر فيرتفع على الاصل، وذلك لضعفها . والى ما ذهب اليه الفراء والكسائى من جواز العطف على اسم (انّ)بالمرفوع قبل أن تُستَكمَلَ الجملة ، الا أن الفراء يقيد ذلك بأن يكون

---

(١٨) معانى القرآن ٢/١٨٣ ، تفسير القرطبى ١١/ .

(١٩) القرطبى ١١/٢١٦ . البحر المحيط ٦/٢٥٥ ، وجاء فى البحر المحيط : أنه « قال الزجاج : لا أجيز قراءة أبى عمرو لانها خلاف المصحف » .

(٢٠) تفسير القرطبى ١١/٢١٩ .

(٢١) تفسير القرطبى ١١/٢١٨ .

(٢٢) معانى القرآن ٢/١٨٣ .

(٢٣) المصدر نفسه .

الاسم بعد (ان) مما لا يظهر فيه النصب ، كقوله تعالى من سورة المائدة : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية » .

قال الفراء : « فان رفع (الصابئين) على أنه عطف على (الذين) ، و (الذين) حرف على جهة واحدة فى رفعه ونصبه وخفضه ، فلما كان اعرابه واحدا ، وكان نصب (ان) نصبا ضعيفا ، وضعفه أنه يقع على الاسم ، ولا يقع على خبره ـ جاز رفع الصابئين ، ولا أستحب ان أقول : ان عبدالله وزيدٌ قائمان، لتبين الاعراب فى (عبدالله) ، وقدكان الكسائى يجيزه لضعف (ان) »(٢٤) .

والفاعل في عبارة الشرط ـ مثلا آخر ـ قد يتقدم على الفعل حتى يلي أداة الشرط ، نحو قوله تعالى من سورة النساء : « انِ امرؤ هلك » وقوله تعالى من سورة التوبة : « وان أحدٌ من المشركين استجارك » ، وغيرها من الآيات ، وهو كثير .

فالبصريون يعربون الفاعل المتقدم فاعلا لفعل محذوف يفسره المذكور ، ويكون تقدير الآيتين عندهم : ان هلك امرؤ هلك ، وان استجارك احد من المشركين استجارك ، ولا يجوز عندهم ان يكون فاعلا للفعل المذكور ، لأن تقديم الفاعل عندهم ممتنع « لأن الفاعل تنزّل منزلة الجزء من الكلمة ، وهو الفعل »(٢٥) .

أما البغداديون أو الكوفيون ، كما سموا فيما بعد ، فلا يلتزمون الاعتبارات العقلية ، وليس للمنطق سلطان على دراستهم ، ولذلك اجازوا تقديم الفاعل على الفعل تمسكاً بهاتين الآيتين ، وما أشبههما ، وبقول الزبّاء :

ما للجمال مشيها وئيدا ... أجندلا يحملن أم حديدا

وأكبر الظن أن المرفوع من الآيتين فاعل عندهم ، وعند الفراء خاصة للفعل المذكور ، وقد تناول الفراء هاتين الآيتين بالتفسير ، وذهب الى جواز ان يجزم

(٢٤) معانى القرآن ١/٣١٠ ، ٣١١ .
(٢٥) أسرار العربية ٣٥ ليدن .

الفعل فيهما لو جاء مكانهما (يفعل) ، وتجويزه جزم الفعل بان مع فصلها عن الفعل بالاسم المتقدم يدل في وضوح على أنه لم يتصور قط أن يكون هناك فعل محذوف مفسر بالمذكور ، فقد قال الفراء : وقوله : « ان امرؤ هلك » : (هلك) في موضع جزم ، وكذلك قوله : « وان أحد من المشركين استجارك » ، لو كان مكانهما (يفعل) كانتا جزما ، كما قال الكميت :

فان أنت تفعل فللفاعلين أنت ، المجيزين تلك الغمارا

وأنشد بعضهم :

صعدة نابتة في حائر اينما الريح تميّلْها تَمِلْ

الا أن العرب تختار اذا أتى الفعل بعد الاسم في الجزاء أن يجعلوه (فَعَلَ) لأن الجزم لا يتبين في (فعل) ، ويكرهون أن يفترض شيء بين الجازم وما جزم »(٢٦) ٠

فلم يبد في كلامه هذا ما ينم على أن الاسم المرفوع في الآيتين فاعل لفعل محذوف ٠ وقوله : « ويكرهون أن يعترض شيء بين الجازم وما جزم » يشير الى أن الاسم مقحم بين الفعل وأداة الشرط ، وأنه فاعل للفعل الذي تأخر عنه ٠

٢ ـ وان البغداديين الكسائي والفراء أنفسهما كانا من القراء ٠

أما الكسائي فأمره معروف ، لأنه كان مقرئاً قبل أن يكون نحوياً ، ولم يتعلم النحو الا على كبر(٢٧) ، وكان أحد السبعة الأئمة في القراءة ٠ قرأ على حمزة مذاكرة ، كما قال ابن حجر ، ثم قرأ عليه القرآن اربع مرات(٢٨) ، وكان قد سمع القراءة من سليمان بن أرقم ، وأبي بكر بن عياش ، وسفيان بن عيينة ، واقرأ الناس في بغداد بقراءة حمزة زمانا ، ثم اتخذ لنفسه قراءة ٠

---

(٢٦) معاني القرآن ١/٢٩٦ ، ٢٩٧ ٠

(٢٧) تاريخ بغداد ١١/٤٠٣ ٠

(٢٨) تهذيب التهذيب ٧/٣١٣ ٠

وقد تلمذ له في القراءة ببغداد خلق كثير ، في مقدمتهم : أبو زكريا الفراء ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو عمر حفص بن عمر الدوري (٢٩) •

وأما الفراء فقد عني بالقراءة عناية كبيرة ، وكان قد أخذ القراءة عن الكسائي ، وروى القراءات بطرقه الخاصة ، وقد أشرنا اليها في غير هذا المكان، والدارس الذي يقف على أقوال الفراء ورواياته وحكاياته يتضح له عمق لاتصاله بالقراءات ، بل كان له قراءة خاصة ، وأماليه في معاني القرآن يتوزعها علمه بالعربية ، وعلمه بالقرآن وقراءاته •

كان يقول في قوله تعالى : « خلق الأولين » : « قراءة الكسائي « خُلُقُ الأولين » • قال الفراء : وقراءتي « خَلْقُ الاولين » (٣٠) •

ويقول في قوله تعالى : « ثلاث عورات لكم » : « نصبها عاصم والأعمش ، ورفع غيرهما ، والرفع في العربية أحب الي ، وكذلك أقرأ ، والكسائي يقرأ بالنصب »(٣١) •

وقد يختار قراءة على قراءة بعد أن يعرض للقراءات المختلفة ، فاذا اختار قراءة وجهها توجيها ، وربما علل لها بشيوع استعمالها عند العرب ، أو بشيوعها عند القراء •

ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : « ولا يأتون البأس الا قليلا أشحةً » : يقول : جبناء عند البأس ، أشحة عند الانفاق على فقراء المسلمين ، وهو أحبها الي ، والرفع جائز على الائتناف ، ولم أسمع أحداً قرأ به »(٣٢) •

(٢٩) تاريخ بغداد ١١/٤٠٣ •• مرآة الجنان ١/٤٢٢ •
(٣٠) معاني القرآن ٢/٢٨١ •
(٣١) معاني القرآن ٢/٢٦٠ •
(٣٢) معاني القرآن ٢/٣٣٨ •

وقوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » : « تدغم اللام عند التاء من بل وهل ، وأجل ، ولاتدغم فى اللام التى قد تتحرك فى حال ، واظهارها جائز ، لان اللام ليست بموصولة بما بعدها ، كاتصال اللام من النار وأشبا ذلك ، وانما صرت أختار « هل تستطيع »و« بل نظنكم» فأظهر ، لان القراءة من المولدين مصنوعة ، لم يأخذوها بطابع الاعراب ، انما أخذوها بالصنعة ، والاعرابى ذلك جائز له ، لما يجرى على لسانه من خفيف الكلام وثقيله »(٣٣)

ومثل هذا قوله في تفسير قوله تعالى : « قل هل تَرَبَّصون بنا الا احدى الحُسْنَيَيْن » : « يقول : هل تدرى ، وهتَّدري ، فقرأها القرّاء على ذلك ، وأنا أستحب فى القراءة خاصة تبيان ذلك ، لانهما منفصلان ليسا من حرف واحد ، وأنما بني القرآن على الرسل والترتيل واشباع الكلام »(٣٤) .

وقوله في قوله تعالى : « شهد الله أنّه لا اله الا هو وأنَّ الدين عند الله الاسلام » : « قد فتحت القراء الالف من (أنه) ومن قوله : « ان الدين عند الله الاسلام » .... وان شئت استأنفت (ان الدين) بكسرتها ، وأوقفت الشهادة على « أنه لا اله الا هو » وكذلك قرأها حمزة ، وهو أحب الوجهين الىّ » (٣٥) .

أما أحاطته بالقراءات فغير خاف ، فلا تكاد تمر به قراءة أُجمِع عليها ، أو اختلف فيها الا نص على الاجماع ، أو نسب الاختلاف الى أصحابه .

والبغداديون من أجل ما سبق بيانه يجعلون القراءات أعلى مراتب المصادر التى كانوا يصدرون عنها فى استخلاص الاصول النحوية ، وان كانت القراءة مما يعارض الاصول الموضوعة ، أو مما يعارض ما جاء فى صحيح الشعر ، أبيات

---

(٣٣) معانى القرآن ٢/٣٥٣ .

(٣٤) معانى القرآن ١/٤٤١ .

(٣٥) معانى القرآن ١/١٩٩ ، ٢٠٠ .

الشواهد التي بني النحاة عليها قواعدهم أو بعض قواعدهم ، فلم يرد الفراء أن يخالف الكتاب وان تعارض مع الاصول المتعارف عليها . وان لم يكن لها وجه في العربية (الرسمية) ، فقد غمز الفراء أبا عمرو اذ قرأ : ان هذين لساحران ، محتجا بما بلغه عن بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان في المصحف لحنا وستقيمه العرب » فقال الفراء بعد أن ذكر ذلك : « ولست أشتهي على أن أخالف الكتاب »(٣٦) .

وحين عرض لاختلاف القراء في قوله تعالى :« ان هذان لساحران » ، ولزعم بعضهم – ولا أظنه الاأبا عمرو – أنه لحن ، قال : ولكنا نمضي عليه لئلا نخالف الكتاب »(٣٧) .

وحين أراد أن يوجه الخفض في قراءة بعضهم قوله تعالى :« يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم مما يشتهون ، وحور عين » ، اعني في قوله: (وفاكهة)، وقوله : (ولحم طير) ، وقوله : (وحور عين) قال : «فخفض بعض القراء ، ورفع بعضهم الحور العين . قال الذين رفعوا : الحور العين لايطاف بهن ، فرفعوا على معنى قولهم : وعندهم حور عين ، أو : مع ذلك حور عين ، فقيل : الفاكهة واللحم لايطاف بهما ، انما يطاف بالخمر وحدها ، والله أعلم ، ثم أتبع آخر الكلام أوله ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم ، وأنشدني بعض بني أسد يصف فرسه :

علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همّالة عيناها (٣٨)

وعقب على ذلك بما يدل دلالة واضحة على تحكيمه القراءة فيما يصار اليه من أصول وقواعد : « والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر» (٣٩) يريد

---

(٣٦) معاني القرآن ٢/١٨٣ .
(٣٧) معاني القرآن ٢/١٨٣ .
(٣٨) الشاهد هنا هو عطف الماء على التبن ، والماء لايعلف ولكنه يشرب .
(٣٩) معاني القرآن ١/١٤ .

أنه لاحاجة بالدارس الى أن يلتمس الحجة من الشعر مادامت القراءة على ذلك ، لان القراءة أقوى فى الحجة من الشعر ·

ومما هو بسبب من اعتدادهم بالقراءة أن يعتدوا بالحديث ، ويحتجوا به فى اثبات حكم ، أو تقرير قاعدة ، ولكنهم فيما بدا لى من استقراء آرائهم واقوالهم أن احتجاجهم بالحديث قليل ، ولا أعنى بهذا أنهم لايحدثون ، أو لايأخذون عن المحدثين ، فلم يكن هذا ليكون من مذهبهم ولا من أسلوبهم في الدرس ·

واكبر الظن أنهم ، أو فى الاقل اوائلهم ، كانوا من القراء أو المعنيين بالقراءات ، وقد وجدوا فى رواية اللغة وفى رواية القراءة من مذاهب الكلام ، والوان التعبير ماكفاهم مئونة البحث فى الحديث ·

أو لعلهم رأوا أن الاحاديث لم تكن لتقرأ أو تجود ، كما كان القرآن يقرأ ويجود فتتسرب الى القراءات خصائص اللهجات التي انضوت تحت لهجة قريش التي اتخذت لغة الشعر والخطابة وغيرهما من فنون الكلام ·

أو لعلهم رأوا أن الاحاديث لا تقتصر على قول النبي الكريم بل تشمل فعله واقراره أيضا ، ولذلك جاز رواية الحديث بالمعنى ، أما القرآن فلا يجوز تغيير نصه ، ولا تبديل كلماته ، ولا قراءته بالمعنى ، ولم يكن اختلاف القراءات ليعنى تغييرا فى النص ولا تبديلا للفظ ، ولكنه يعني التيسير على المسلمين أن يقرءوه بما كان يتيسر لهم ، ربما تضطرهم اليه عاداتهم اللغوية التي تعودوها من ادغام أو بيان ، أو فتح أو امالة ، أو همز ، او تسهيل ، او ترقيق او تفخيم او نحو ذلك ، ربما دخل فى السبعة الاحرف اختلاف فى وجوه الاعراب (٤٠) · ومن أجل التخفيف على المسلمين والتيسير عليهم أباح النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن يقرءوا من القرآن ماتيسر لهم ، وجاء عنه الحديث المشهور : (أنزل

---

(٤٠) مناهل العرفان ــ الزرقانى ١/١٤٨ ·

القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه» . (٤١) أو قال : « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ولا حرج ولكن لاتختموا ذكر رحمة بعـــذاب ، ولا ذكر عذاب برحمة » (٤٢) ، أو قال : « ان القرآن أنزل على سبعة أحــرف كلها شاف كاف » (٤٣) . وزعم الزركشي أن الخليل بن أحمد كان يفســر الحرف بالقراءة (٤٤) ، وجاء في اللسان : « روى الازهري عن أبي العبـاس ولعله يعني ثعلبا - أنه سئل عن قوله : « نزل القرآن على سبعة أحــرف » فقال : ماهي الا لغات » (٤٥) .

غير أن في الاحاديث ثروة لغوية ضخمة لفتت انتباه اللغويين فاقبلوا عليها يصنفون فيها المصنفات على غرار المصنفات التي صنفت في غريب القرآن . ومن هذه المصنفات :

كتاب غريب الاحاديث والاثار لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفي ســـنة ٢٢٤ للهجرة .

وكتاب الغريبين غريبي القرآن والحديث لابي عبيد الهروي المتوفـــــي سنة ٤٠١ للهجرة .

وكتاب الفائق في غريب الحديث لابي القاسم الزمخشري المتوفي ســـنة ٥٨٣ للهجرة .

وكتاب المجرد للغة الحديث لموفق الدين البغدادي المتوفي ســـنة ٦٢٩ للهجـــرة .

وكانت هذه المصنفات وغيرها منبعا ثرا للمعجمات اللغوية ، أفادت منهـا

---

(٤١) صحيح البخاري ٦/٢٢٨ .
(٤٢) البرهان في علوم القرآن ١/٢١٢ .
(٤٣) مناهل العرفان ١/١٣٢ .
(٤٤) البرهان في علوم القرآن ١/٢١٤ .
(٤٥) لسان العرب ٩/٤١ .

كثيرا ، وأغنت منها كثيرا ، ولو شئنا لاوردنا مما جاء فيها من غريب كثيرا من الامثلة لولا أن ذلك يخرج بنا عن حدود موضوعنا .

غير أن الاحاديث التي تتعلق بالدرس النحوي قليلة جدا ، ولم أجد عند الفراء وثعلب من البغداديين من الاحاديث التي لها صلة بالدرس النحوي شيئا ذا بال اذا قرنت بالاحاديث التي تتعلق بالقرآن والقراءات ، وفي معاني القرآن من هذه الاحاديث مايعسر حصره .

ومن الاحاديث التي احتج بها الفراء لتقرير مسألة تشبه أن تكون نحوية ماجاء في (معاني القرآن) حين عرض الفراء لقوله تعالى من سورة البقرة : « الا أن يخافا الاّ يقيما حدود الله » ، فقد عرض للقراءات المختلفة ، قراءة عبدالله ابن مسعود : « الا أن تخافوا» وقراءة حمزة : «الا أن يُخافا » ببناء الفعل لما لم يسم فاعله ، وقراءة أُبَيّ « الا أن يظنا ألا يقيما حدود الله » ، لم يرد الفراء قراءة منهن على اختلافهن ، وكل ماعقب به على قراءة حمزة أنه قال : « ولا يعجبني ذلك » (٤٦) ، أما قراءة أبي فقال في تصحيحها : « والخوف والظن متقاربان في كلام العرب ، من ذلك : أن الرجل يقول : قد خرج عبدك بغير اذنك ، فتقول أنت : قد ظننت ذاك ، وخفت ذاك ، والمعنى واحد » (٤٧) .
ثم استشهد بقول الشاعر :

أنا في كلام من نُصَيْب يقوله ... وما خفت ياسلاّم أنك عائبي

وبقول الآخر :

اذا مت فادفني الى جنب كرمة ... تروّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني ... أخاف اذا ما مت أن لاأذوقها

قال الفراء : « والخوف في هذا الموضع كالظن لذلك رفع (أذوقها) » ، كما رفعوا « وحسبوا أن لاتكونُ فتنة » وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم :

---
(٤٦) معانى القرآن ١/١٤٥ .
(٤٧) معانى القرآن ١/١٤٦ .

« أمرت بالسواك حتى خفت لادردنّ ، كما تقول : ظن ليذهبنّ »(٤٨) ·

وقد استقريت ماجاء عند ثعلب في مجالسه من أحاديث فاذا هي كثيرة ، ولكني لم أقف منها على جديد في هذه المسألة ، يذكر ثعلب الحديث ليفسره ، أو ليذكر مناسبته ، أو ليشرح غريبه ، أما الاحتجاج به على حكم نحوي ، أو على تصحيح مسألة فشيء – في حدود علمي – لم أقف عليه ·

وكنت من قبل وأنا أدرس منهج مدرسة الكوفة قد تابعت الزاعمين أن أئمة الدارسين من الكوفيين والبصريين كانوا قد رفضوا الاستشهاد بالحديث ، أمثال البغدادي في (خزانة الادب) فقد رأيته يزعم أن الحديث لم يعن به أئمة النحو المتقدمين من المصرين في الاحتجاج ، أو الاستشهاد ، وأن المتأخرين افترقوا فرقتين ، فمنهم من منع الاستدلال به ، ومنهم من جوزه ·

ومن المانعين : ابن الضائع وأبو حيان ، وسندهما أمران :

أحدهما : أن الاحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي وانما رويت بالمعنى، كما جاء عن سفيان الثوري قوله : « ان قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني انما هو المعنى(٤٩) » : وأن كثيرا من رواتها كانوا من غير العرب ، وقد تعلموا العربية بالصناعة « فوقع اللحن في كلامهم وهم لايعلمون» (٥٠) ·

وثانيهما : أن أئمة النحو المتقدمين من المصرين لم يحتجوا بشيء منه (٥١)، وقد رددت هذا في فصل خاص به (٥٢) ·

---

(٤٨) معانى القرآن ١٤٦/١ ·

(٤٩) مقدمة الخزانة ص ٥ ·

(٥٠) مقدمة الخزانة ص ٦ ·

(٥١) مقدمة الخزانة ص ٥ ·

(٥٢) مدرسة الكوفة ص ٥٩ ·

ومن المجوزين : ابن مالك ، وارضى الاسترابادي ، وجاء الشاطبي فتوسط ، وجوّز الاستدلال بالاحاديث التي اعتني بنقل ألفاظها (٥٣) ٠

ولا أظن المقصود من الاحتجاج بالاحاديث أن يستخلص منها النادر من الكلم ، أو يشرح الغريب منها ، فذلك مالم يدر في ذهن المانعين ، ففي كتب الاقدمين ، وفي المعجمات اللغوية من الاحاديث مايعسر حصره ، ولم يرفضه الائمة ، ولم يثنهم عن الاحتجاج به مقالة المحدث الكبير سفيان الثوري ولا غيره ٠ ...

ويبدو لي أن المانعين كانوا قد اجتهدوا فأخطئوا ، وكانت حججهم في المنع افتراضات لاتتصل بواقع الحال بسبب ، لان رواية الحديث بالمعنى ليست سبيل المحدثين جميعا ، ولو كانت سبيلهم فعلا لما حال ذلك دون الاحتجاج بها ٠ لان كثيرا من حملة الحديث ورواته كانوا في مرتبة عالية من الفصاحة كالصحابة والتابعين والحفاظ الضابطين ٠ ولان المحدثين من غير العرب لم يجازوا الا بعد الاطمئنان الى أنهم كانوا غاية في الضبط والاتقان ، ولذلك كان يونس بن حبيب النحوي يحتج بكلام أبي علي الاسواري فيما حكى الجاحظ في البيان والتبيين ، وكان الخليل بن أحمد على جلالة قدره يأخذ الحديث عن أيوب بن أبي تميمة السختياني ٠

على أن المسألة فيما يبدو لي لاتعني الافادة من غريب الحديث ، وانما تعني الاحتجاج به لاصل نحوي أو قاعدة عامة ، وهو مالم يظهر له أثر فعلا في كلام الائمة المتقدمين ، أو لم يكن مأخوذا به على نطاق واسع كما أخذ بالرواية عن الاعراب وعلماء البادية ، أو بقراءات القرآن ٠

٢ ــ ومن الخصائص المذهبية للدرس النحوي في بغداد أنه كان يخضع القياس للنقل ، ويعمل البغداديون جاهدين أن يغيّروا الاصول لتكون وفق الامثلة

(٥٣) مقدمة الخزانة ص ٦ ٠

المسموعة،وهو دليل واضح على أعتدادهم بالسماع وأعتدادهم بالرواية،واتساع دائرة النقل عندهم ، ولكن البصريين كانوا ينفذون من هذا الى الطعن عليهم ، فقد عدوا ترخصهم في قبول مايأباه القياس افسادا للنحو ، حتى قال ابن درستويه غامزا الكسائي : « كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لايجوز الا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو » (٥٤) ، وحتى كان الرياشي يعيب على الكوفيين منحاهم في قبول كل مايصح لديهم من كلام العرب فيقول : « انما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز » (٥٥) .

وقال أبو نصر الفارابي اللغوي : « والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم »(٥٦) .

قيل كل هذا ليغمزوا البغداديين تصريحا أو كناية ، ولكن لاينبغي أن يجوز هذا ونحوه على الدارسين ، فلغة الحواضر في الحجاز هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن ، وهي التى كان أهلها يتعهدونها بما كانوا يستحسنون من لغات القبائل التي كانت تفد على مكة وغيرها في المواسم ، ويتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن مافي لغاتهم ، وأصفى مافي كلامهم ، ثم يضيفون ذلك الى ماطبعوا عليه فصاروا من أجل ذلك أفصح العرب ، كما أشار اليه الفراء

---

(٥٤) بغية الرعاه ٣٣٦ .

(٥٥) أخبار النحويين البصريين ٩٠ بيروت .

(٥٦) المزهر ١/٢١٢ .

وغيره (٥٧) • ولم تكن قريش بمعزل عن الاتصال بالامم الاجنبية في الشمال والجنوب • فلا وجه لمقالة أبي نصر وزعمه أن العلماء من المصرين لم يأخذوا عن حضري قط ، ولا عمن سكن أطراف بلاد العرب المجاورة لسائر الامم الذين حولهم • ويبدو أن آخر كلامه يخالف أوله ، فمن القبائل التي أخذ العلماء عنها اكثر ماأخذوا ومعظمه : أسد ، وأسد من القبائل التي جاورت النبط والفرس ، ولم تحل مجاورتها اياهم دون أن تكون من القبائل التي وصفت لغتها بالفصاحة •

يؤيد هذا أن الكسائي لما طلب النحو ،، ووفد على البصرة ، واختلف الى مجلس الخليل بن أحمد يسمع منه ، ويستكثر عنه قال له « رجل من الاعراب : تركت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! » (٥٨) •

ويؤيده أيضا أن ابن النديم كان قد عقد فصلا في فهرسته عرض فيه للفصحاء عن الاعراب الذين سمع العلماء منهم ، وأخذوا عنهم ، وكان من هؤلاء من قصد الى البصرة وبغداد ، واتصلوا بالعلماء من المصرين ، وأقاموا فيهما وربما اصطنع بعضهم الوراقة كأبي خيرة ، وأبي مالك عمرو بن كركرة ، وربما أتصل بعضهم بالبرامكة كأبي شبلي العقيلي ، وأبي العميثل الذي كان يؤدب عبدالله ابن طاهر بخراسان ، وأبي الجاموس ثور بن يزيد الذي كان يفد على آل سليمان ابن علي ، وعنه أخذ بن المقفع الفصاحة ، وأبي البيداء الرياحي ، وكان أعرابيا نزل البصرة ، وأقام فيها ، وكان يعلم الصبيان بأجرة (٥٩) •

وكأبي المهدي أو أبي مهدية الحجازي ، والمنتجع اللذين أقاما في البصرة وكانا من سلامة اللغة أنهما كانا مرجع الدارسين فيما كان يشكل عليهم ، وكان أبو عمرو بن العلاء يحتج بكلامهما ويستفتيهما (٦٠) •

---

(٥٧) المزهر ١/٢٢١ • الصاحبى ٢٣ •
(٥٨) نزهة الالباء ٨٣ •
(٥٩) فهرست ابن النديم ٦٦ فما بعدها •
(٦٠) ذيل الامالى والنوادر ـ القالى ٣٩ •

ويؤيده أيضا ماتحدث به الجاحظ عن قصاص من الاعاجيب . منهم أبو علي الاسواري الذي كان يقص في مسجده ستا وثلاثين سنة ، كان يقص في موضوعات كثيرة ، ويجعل للقرآن نصيبا من قصصه « وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ، ويحتج به » (٦١) .

فأين يقع بعد هذا ماتحدث به أبو نصر الفارابي ، وما زعمه أبو الفضل الرياشي ، وما خلّط به ابن درستويه بقوله : « كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لايجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلا ويقيس عليه حتى أفسد النحو ؟ » (٦٢) .

وابن درستويه وأشباهه انما كانوا يتحدثون عن أصولهم الموضوعة ، وعن تعمّلهم الحجج والتعليلات التي لاصلة لها بطبيعة الدرس النحوي ، ويرون أن مالم يخضع لتلك الاصول فهو شاذ ومطروح ، وهو خطأ ولحن وضرورة .

الحق أن الكسائي كان في غنى عن أن يلجأ الى حكايات مطروحة ، وهو الذي لازم الخليل ، واختلف الى مجلس أبي عمرو بن العلاء ، واستكثر عنهما ، ثم طاف في بوادي نجد والحجاز وتهامة يسمع فيها الاعراب ، ويشافههم ، ويدون ماكان يسمع حتى قيل : انه أنفذ خمس عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ماحفظ (٦٣) .

فلم تعوز الكسائي الرواية عن الفصحاء ، وكان كل ماعيب به عليه أنه كان لايشدد في الرواية عن غير أولئك الذين زعم أبو نصر وأبو الفضل أنهم مصدر الدارسين ، وأنه كان يترخص في قبول رواية من يثق بفصاحته ، وان لم تنسجم مع الاصول الموضوعة ، ويأخذ بالقراءات الصحيحة وان خالفت تلك الاصول .

(٦١) البيان والتبيين ١/٣٤٦ ، ٣٤٧ .
(٦٢) معجم الادباء ١٣/١٨٣ .
(٦٣) نزهة الالباء ٨٤ .

ان أخذ الكسائي وتلاميذ بهذه الرواية أو تلك صادر عن ايمان بالسماع وبأن السماع هو السبيل الى الدرس النحوي ، وبأن هذه المسموعات التي سميت بالمفاريد ، أو بأخبار الآحاد انما تمثل بيئات لغوية حية أغفلها تشدد النحاة وتقعّدهم وجهلهم طبيعة هذا الدرس ، لانهم كانوا قد قيدوا انفسهم بأصول استنبطوا من حدود ما سمعوا ، وعدوا ما يتعارض معها من المفاريد مخالفا للقياس ، فان كان الراوي موثوقا بفصاحته قبلوا روايته على أن تكون من الشواذ التي تحفظ ولا يقاس عليها ، وان لم يكن معروفا لديهم ردوه أو حملوه على اللحن والخطأ ٠

ومن هنا يبدو مدى تعسف البصريين في اعتبار الاصول التي أخذوها عن السلف ، وجعلها أصولا للعربية بلغاتها المختلفة ، ولهجات القبائل المتفرقة في أنحاء الجزيرة ٠ ويبدو ، كذلك ، مدى صدق البغداديين في نظرتهم الى اللغة والى الروايات المنفردة التي يثقون بفصاحتها ، فقد كانت الاصول الموضوعة عندهم من الهوان بحيث لاتحوطها القداسة ، ولا تثبت أمام الرواية يسمعونها من أعرابي أو أعرابية ، ولذلك كان للسماع عندهم شأن عظيم ، لايترددون في قبوله ، ولا في تعديل الاصول من أجله ٠

وليس عيبا أن يسمع الكسائي الشاذ فيأخذ به ، وأن يقف الفراء من القراءات موقف المتقبل المصحح وان كانت مخالفة للاصول الموضوعة ، لان لغة القرآن عنده أفصح أساليب العربية ، وأن القراءات « أعرب واقوى في الحجة من الشعر » ٠

وبعد فخلاصة السمات التي اتسم بها الدرس النحوي في بغداد هي :

١ ــ تحرر من ربقة تحكيم العقل في الدرس اللغوي ٠

٢ ــ واضافة لها قيمة كبيرة ردت الى الدرس النحوي اعتباره ٠

٣ ـ وتجديد في أسلوب الدرس برفض التعليلات التي لاصلة لها بالدرس ٠

٤ ـ وتغليب للنقل على القياس ، ثم تحكيم الاعتبارات اللغوية في أصول الدرس وقواعده الموضوعة ٠

هذه هي السمات الجديدة التي لم نعهدها في الدرس البصري الذي استطاع بمنطقيته وتعقله واطراد أحكامه أن يبسط سلطانه على أفكار الدارسين على تعاقب العصور حتى عاد المذهب البصري مذهبا (رسميا) ، وسيطر حتى على الدرس النحوي في عصرنا هذا ، وما تزال الكتب (المقررة) في مدارس الاقطار العربية على اختلاف مراحلها تؤلف على غرار الكتب القديمة ، ويقوم بتأليفها (بصريون) صغار ورثوا المنهج المنطقي في النحو فطبقوه في غير وعي ، ولم تفد معهم صرخات الدعوة الى التجديد والاصلاح والتيسير ، فقد خطط لهم أن يحنطوا عقولهم ويغلقوا دون أذهانهم الباب المؤدي الى ساحة الدرس اللغوي الفسيحة التي مهدتها الدراسات اللغوية الحديثة ٠

وما تزال مؤسساتنا الثقافية والادبية والعلمية تسلك سبيل الاولين ، وتفرض على عقول الناشئين (نحو) ابن مالك وشراح ألفيته ، ونحو ابن الحاجب وشراح كافيته بأساوبه العقيم ، ومنهجه العقلي السقيم وبما اتسما به من جدب وجمود ٠

وتعقد المؤتمرات التربوية واللغوية والادبية فتتناول بالدرس كل شيء الا مشكلة العقم الذي اتسم به تدريس النحو ، مع علمهم بعزوف الجيل عنه ، وبرمه به ٠٠٠ وأكتفي بهذا لئلا يخرج القول بي عن حدود ما أنا بصدده ، ولان للكلام عليه مجالا آخر ، ومقالات أخرى ٠

غَلَبة المذهب البصريّ

سار الدرس النحوي الكوفي منذ نشأته في بغداد على هذا النهج الــــذي الذى أملته طبيعة الدرس من جهة ، وسبيل القراء فى الدرس من جهة اخرى ، وغبر الدارسون فى بغداد يعتمدون الراوية والسماع والمشافهة أصولا للدرس النحويّ ، بعيدا عن الاعتبارات العقلية ، والاحتجاجات والتعليلات والقياســـات التي يمليها منطق العقل ، غير أن هذا كان ، من وجهة النظر البصرية ، افســـادا للنحو ، وارتفاعا بالنحو الى أسفل على حد تعبير ابي محمد اليزيدي في غمـــزه الكسائي واصحابه وتلاميذه (١) ٠

وقد تحامل ابن درستويه على الكسائى فزعم ان الكسائى « كان يسمـــع الشاذ الذى لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك اصلا ، ويقيس عليه حتى افسد النحو »(٢) ٠

وتصدى ابو حاتم السجستاني للدارسين في بغداد وفيهم علي بن حمـــزة الكسائى ، ويحيى بن زياد الفراء ، واحمد بن يحيى فتحامل عليهم تحـــامـــلا دل على تخبطه فى فهم طبيعة الدرس ، وزعم ان احدهم « يتحفظ مسائل مـــن النحو بلا علل ولا تفسير ، فيكثر كلامه عند من يختلف اليـــه ، وانمـــا هـــمّ احدهم اذا سبق الى العلم ان يسيّر اسما يخترعه لينسب اليه ، فيسمى الجـــر

(١) نور القبس ٢٨٧ ٠ ٠ جاء ذلك فى أبيات لابى محمد يحيى بن المبارك اليزيدى ، أولها:

كنا نقيس النحو فيما مضى ... عـــلى لســـان العرب الأوّل

والبيت الذى أشرنا اليه هو :

ان الكسائى واصحابه ... يرقون فى النحو الى اسفل

(٢) معجم الادباء ١٣/١٨٣ ٠

خفضا ، والظرف صفة ، ويسمون حروف الجر حروف الصفات والعطف النسق و (مفاعلين) في العروض (فعولان) ، ونحو هذا من التخليط »(٣) .

وعاب غيرهما على ابى انعباس ثعلب انه « كان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درسا ، ولم يكن يعلم مذهب البصريين ، ولا مستخرجا للقياس ولا طالبا له ، وكان يقول : قال الفراء وقال الكسائي ، فاذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يغرق في النظر »(٤) .

لقد ظن السجستاني وابن درستويه وغيرهما ممن احتذاهما ان سبيل الدرس النحوى هو الاغراق في النظر ، واصطناع التعليل والتأويل والقياس ، وكانوا في هذا واهمين ، لانهم كانوا يجهلون طبيعة الدرس ويجهلون ان سبيله هي الرواية والسماع والملاحظة ، وهو ماكان الكوفيون البغداديون يصطنعونه في دراستهم النحو ، ووضعهم الاصول .

غير ان النهج الذي رسمه الكسائي المقرىء ، وتعهده الفراء الذي كان يحترم القراءة ، ويرى في النقل عن الموثوق بفصاحتهم أصلا من اصول هذا الدرس كان يشق طريقه في بيئات الدرس في بغداد ، ويضع اسسه لا يلوى على شيء ، ولم يثنه عن ذلك حملات المتعصبين وتخرصاتهم عليه .

واذا كان هذا عيبا عند قدماء الدارسين البصريين ، وافسادا للنحو ، فقد تغيرت الحال في هذا العصر ، ولم يعد مقبولا من دارس شهد نضج الدرس اللغوي ، وتحدد مناهج الدرس أن يتابع القدماء متابعة ، أو يقلدهم تقليدا ، فلم يعد الدرس النحوى نظرا وجدلا وتعليلا ، كما لم يعد الدارس النحوى مناظرا في تناوله موضوعات النحو بالدرس .

كان القدماء اذ درسوا النحو في غير منهجه قد فتحوا الباب امام الاعتبارات العقلية في الاحتجاج له والتعليل لظواهره ، وكان الدارسون البصريون هم الذين فتحوا هذا الباب ، موغلين في التأويل والتقدير ، غالين في القياس

(٣) مراتب النحويين ١٠١ ، ١٠٢ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين ١٥٥ ، ١٥٦ .

والتعليل ، متأثرين بالاعتبارات الجدلية التى كانت سبيل النظار والمتكلمين فى الدفاع عن العقيدة ، ومقارعة الافكار المعادية الوافدة ٠

وكانت البصرة موطن الكلام والنظارة ، وكان ظهور المتكلمين يمهد السبيل للعقلية الجديدة التى اخذت مكانها فى تاريخ الفكر والحضارة ولم يكن ذلك ليكون قبل الوقوف على ثمرات الجهود الانسانية التى سبقت الانسان العربى المسلم ٠ لهذا كان المجتمع العربى الاسلامى متفتحا للثقافات الاجنبية التى اخذت تظهر شيئا فشيئا حتى اكتمل ظهورها بالترجمة والنقل ، وكان العصر العباسى هو عصر هذه النقلة العظيمة للحياة العقلية ، النقلة التى تجاوزت بالحياة من أفقها المحدود الى افق اوسع وأرحب ، التقت فيه بأفكار الامم وحضاراتها ٠ وكان لعصر المأمون خاصة تأثير كبير فى هذه النقلة فقد كان من التفتح أن ضمن لممثلى الاديان المختلفة حرية الدين والعبادة ٠ وكان المأمون يفتح مجالس الخلافة امام هؤلاء وغيرهم ، وكان يشجع الفنون والعلوم والآداب والفلسفات « وقد ارسل البعوث الى القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، واجرى الارزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب الى العربية ، وانشأ مجمعا علميا فى بغداد ومرصدين فيها وفى تدمر ، وكان الاطباء والفقهاء والموسيقيون والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه »(٥) ٠

ويرجع هذا الفتح للثقافات والعلوم والفلسفات الى ما كان المتكلمون والنظار يمهدون له فى نظارتهم وجدالهم من دعوة الى تحكيم العقل فى الايمان والمعتقد وسائر شئون الحياة ٠

وكان الدرس النحوي في البصرة بدأ ينضج في هذه البيئة التي جعلت العقل وأحكامه فوق جميع الاعتبارات ، ويتأثر باساليبه ، واذا عرفنا ان

---

(٥) قصة الحضارة ١٣/٦٩ ٠

كثيرا من النحاة كانوا من المتكلمين أدركنا عمق الصلة بين الدرس النحوى واساليب المنطق والكلام ،ومدى تأثره باساليب المتكلمين والنظار وكان الدارس النحوى يزداد اتصالا بالفلسفة والمنطق حتى خضع لاسلوبها خضوعا كاملا عند نحاة القرن الرابع المناطقة ، ولم يكن متوقعا ان يظل فى نجوة من هذا المد العقلى الذى طغى على كثير من الدراسات ٠

واذا كان اتصال العرب بغيرهم من الامم في بيئة البصرة قد بدأ يؤتى ثمرته بالتفاعل بين الحضارات والثقافات ، فقد اكتمل هذا التفاعل ، وبدا فى صورته الكاملة فى بغداد قاعدة الخلافة ، وفى مجتمعها الجديد الذى تفتحت السبل امامه للافادة من الثقافات الوافدة والتأثر بها وتمثلها ثم التأثير فيها وتطويرها ٠

وكان من مظاهر ذلك ان ظهر دارسون تمثل فى نتاجهم عمق الاتصال بين العقلية العربية الاسلامية والعقليات الاجنبية من يونانية وهندية وفارسية واتسموا بسمة الاطلاع ، وتعدد جوانب المعرفة ، ومن بين هؤلاء : ابو حنيفة الدينورى وابن قتيبة ٠

أما ابو حنيفة الدينورى فقد كان مهر فى ثقافات متنوعة ٠ فهو اذا اخذ اللغة والنحو من شيوخ بغداد وغيرهم فقد كان ، كما تروى كتب الطبقات مهندسا وحاسبا وراوية موثوقا بروايته ٠ وان الوقوف على اسماء الكتب التى صنفها مما اشار اليه ياقوت وغيره ليدل على مبلغ تعمقه فى الثقافة البغدادية ، واتساع المامه بالثقافات الجديدة ، فمن كتبه : كتاب الانواء ، وكتاب حساب الدور ، وكتاب البحث فى حساب الهند وكتاب البلدان ، وكتاب النبات ، وكتاب الاخبار الطوال ، وكتاب نوادر الجبر ، وكتاب الكسوف ، وكتب اخرى في اللغة والادب والتفسير ، ككتاب الفصاحة ، وكتاب الشعر والشعراء ، وكتاب تفسير القرآن ، وكانت

ثقافته العربية عميقة وواسعة حتى كان أبو حيان التوحيدى يفضله على الجاحظ ، ويرى ان لفظه « اعذب واغرب ، وادخل فى اساليب العرب من لفظ ابى عثمان »(٦) ٠

واما ابن قتيبة فكان واحدا من الذين نالوا اعجاب الدارسين فى عمق ثقافته وتعدد جوانبها ، فقد حذق العربية لغة وادبا وافاد من الثقافات الجديدة ٠ يدل على ذلك ما كتبه فى الأدب والشعر واللغة ، وما اضاف اليه من ثقافة الفرس واخبارهم ، وفلسفة اليونان وعلومهم ، الا ان الطابع الغالب فى كل ماكتب عربي أعرابيّ ، وابرز ذلك : عيون الاخبار ، وادب الكاتب ، والشعر والشعراء ، والمعارف ، وغريب الحديث ، واعراب القرآن »(٧) ٠

غير ان الدرس النحوي في بغداد ظل امينا على منهجه ، بعيدا عن التأثر بأساليب المتكلمين بالرغم من ان شيخ هذا الدرس وبانى نهجه أبا زكريا الفراء كان واحدا من المتكلمين ، خائضا فيما كان يخوض فيه الدارسون فى بغداد ، وذلك لصلة هذا الدرس بالمقرئين والقراءات ، والتزامه بمنهج القراء ، وكان أبو العباس ثعلب وارث علم الكسائى والفراء خير من يمثل هذا الاتجاه الذى كان سمة الدرس النحوى فى بغداد وطابعه ، حتى كان التزامه هذا المنهج ، وتطبيقه على علمه بالنحو يعد في نظر النحاة المناطقة عيبا يغمزونه به حتى كان قائلهم يقول : « كان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائى درسا ، ولم يكن يعلم مذهب البصريين ، ولا مستخرجا للقياس ، ولا طالبا له ٠ وكان يقول : قال الفراء وقال الكسائى ، فاذا سئل عن الحجة والحقيقة فى ذلك لم يغرق في النظر » (٨) ٠

---

(٦) معجم الادباء ٣/ ٢٧ ٠

(٧) فهرست ابن النديم ١١٥ ، ١١٦ ٠ وفيات الاعيان ٢/٢٤٦ ٠

(٨) طبقات النحويين واللغويين ١٥٥ ، ١٥٦ ٠

وكانت النقلة العظيمة التى شهدتها بغداد فى الحضارة والفكر قد مهدت أذهان الدارسين لتقبل النحو البصرى المتأثر بالفلسفة ، والقائم على الجدل والتعليل والاحتجاج ، وقد وضح هذا فى اوضح صورة بورود المبرد بغداد بنحوه المتأثر بالفلسفة الكلامية ، وكان وروده بغداد متحولا للدرس النحوي فيها ، فما كاد يستقر بالمبرد المقام فى بغداد حتى لفت انتباه الدارسين الى نفسه ، فاقبلوا عليه يناقشونه ويناظرونه فى مسائل اللغة والنحو ، فرأوا فيه طرازا جديدا ، ونمطا في الدرس لم يعهدوه من قبل ، ولم تمض الايام حتى انضم الى مجلسه نفر من انبه تلاميذ ثعلب ، وفى مقدمتهم ابو اسحاق الزجاج الذى انقطع عن مجلس ثعلب ليلازم المبرد ، يأخذ عنه ، ويقرأ عليه كتاب سيبويه ، واخذ نفر آخرون من تلاميذ ثعلب يختلفون الى المجلسين ، ويأخذون عن الشيخين ٠

واستطاع المبرد بقوة بيانه ، وحذقه اساليب الجدل ان يستأثر باعجاب الامراء ، ويجتذب اليه أنبه الدارسين ، واستطاع تلاميذه بحذقهم اسلوب الجدل ، وقدرتهم على استخراج القياس والعلل ان يفرضوا مذهبهم الجديد الذى اخذوه عن المبرد على مجالس الدرس ، ويبسطوا سلطان المذهب البصرى عليها بالنابهين من تلاميذهم الذين آلت اليهم الرئاسة فى النحو كابى بكر بن السراج وابى القاسم الزجاجى وابى سعيد السيرافى وابى الحسن الرمانى وابى على الفارسى وغيرهم ، فقد كان هؤلاء يدعون الى هذا المذهب ويتعصبون له ، وربما حاولوا النيل من مذهب البغداديين الذين لزموا أسلوب أشياخهم ، فتأثر بهم الدارسون على تعاقب العصور ، وتابعوهم فيما تعصبوا ، وفيما أملوا وفيما ناظروا ٠ وكان ظهور المذهب البصري على المذهب الكوفي البغدادي منعطفا للدرس النحوي عن نهجه اللغوي السليم ٠

وبالرغم من غلبة المذهب البصري ، وبسط سيطرته على بيئات الدرس ، وخطوته بتشجيع الحكام والامراء ومؤازرتهم اياه بقي المذهب الكوفي البغدادي محتفظا بأصالته ، مؤثرا حتى في أعلام المذهب البصري ، فارضا كثيرا من آرائه على عقول الدارسين ، مشيعا كثيرا من أوضاعه ومصطلحاته في حوار الدارسين وكتاباتهم · ويكفي أن تتصفح كتاب الاصول لابن السراج وكتاب الجمل للزجاجي، وغيرهما من مؤلفات المعاصرين لهما لتقف على مدى تأثير هذا الدرس الاصيل في الدارسين الذين ميزوا أنفسهم بانتسابهم الى البصريين ·

وكان للدرس الكوفي البغدادي دعاة من تلاميذ ثعلب ، وتلاميذ تلاميذه يدعون له ، ويدافعون عنه ، ويرجع اليهم الدارسون الآخرون في تفهمه ، والوقوف على آراء أعلامه ·

فقد تلمذ أبو القاسم الزجاجي ، وهو الداعية لمذهب البصريين لبعض أعلام الدرس الكوفي البغدادي ، وأفاد منهم كثيرا ، لانهم كانوا قداحاطوا علما باصول المذهب الكوفي البغدادي وأصول المذهب البصري ، وكانوا « قدوة أعلاما في علم الكوفيين ، وكان أول اعتمادهم عليه ، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين » (٩) ، الا أنهم كانوا أميل في دراستهم الى الكوفيين كأبي بكر بن شقير وأبي بكر بن الخياط ، ولبعض أعلام الدرس البغدادي الذين لزموا هذا المذهب، وتعصبوا له كأبي بكر بن الانباري ، وأبي موسى الحامض ممن شهر من الكوفيين، و « أبي الفضل الملقب بزبيل ، وأبي محمد عبدالملك بن مالك الضرير » (١٠) ، ممن لم يشهر منهم ، كما رجع ابن السراج من قبله الى كثير من آراء الكوفيين البغداديين كالكسائي والفراء وثعلب ، وحفظ كثيرا من أقوالهم في أصوله ، وروى كثيرا من آرائهم ·

ولم يستطع المذهب البصري بغلبته وسيطرته على جمهور الدارسين أن يهزم الدرس الكوفي البغدادي ، فقد بقي حيا يتخذ منه النابهون من الادباء والشعراء

---

(٩) الايضاح ٧٩ ·
(١٠) المصدر نفسه ·

والمصنفين مذهبا أقاموا عليهم أدبهم وشعرهم وتصنيفهم ، فقد حيَّ هذا المذهب بشعر أبي الطيب ، وبشارح ديوانه وبأعمال أحمد بن فارس اللغوي في كتابه (الصاحبي) ، وأعمال ابن خالويه وغيرهم ، وحي حتى بالمتأخرين من حذاق النحاة الذين احتذوا البصريين كالرضى الاسترابادي في كثير من الآراء التي أخذ بها وانتصر لها وغيره ، وحي أيضا بأعلام الدارسين في الآفاق البعيدة الذين كانوا قد رحلوا الى المشرق ، واخذوا عن اعلام الدرس البغدادي ، ثم عادوا الى تلك الافاق لينشروا هذا المذهب ، ويشيعوا ماصنف فيه ، كجودي بن عثمان الذي كان قد لقي الكسائي والفراء ، وأدخل كتاب الكسائي الاندلس (١١) ، من الاندلسيين الاوائل ، وابن مضاء القرطبي والسهيلي من الاندلسيين المتأخرين ٠

لقد كان مذهب الكوفيين البغداديين شاخصا حيا ، وكان البصريون ، بالرغم من تعصبهم لمذهبهم ، وتحاملهم على منافسيهم لم يسيطعوا أن يتجاهلوا المذهب ولا أعلامه ، ولم نجد أحد من القدماء ينكر وجود هذا المذهب ، أو يجهل أن هناك مذهبا نحويا شهدته مجالس الدرس في بغداد وسمي فيما بعد بالمذهب الكوفي ٠

واذا رجعت الى كتب الطبقات رأيت ذلك واضحا فيما أثبت فيها من طبقات للدارسين في البصرة ، وللدارسين في بغداد ٠ أما كتب التراجم التي لم ترتب على أساس الطبقات ، مثل معجم الادباء ، ونزهة الالباء ، ووفيات الاعيان وانباه الرواة فلم تغفل نسبة الدارس الى المذهب الذي ينتمي اليه ، كأن يكون هذا من البصريين ، وذاك من البغداديين أو الكوفيين ، أو كأن يكون هذا يتعصب للبصريين وذاك يتعصب للكوفيين ، وأمثال ذلك من العبارات التي تضع الدارس في الجماعة التي ينتمى اليها ، وتعده في الفريق الذي تنتظم أفراده طريقة خاصة في تناول موضوعات النحو بالدرس ٠

وغبرت الحال على ماذكرت الى عصرنا هذا ، غير أن الامر لم يعد كما كان من قبل ، فليس هناك نحويون يتابعون البصريين في منهجهم ، وآخرون يتابعون

---

(١١) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨ ٠

البغداديين أو الكوفيين في منهجهم ، فلم يعد بين النحاة المتأخرين من كان يعتنق مذهبا نحويا ، أو ينطلق في وعي عن مذهب نحوي بعينه ، وصارت النسبة الى بغداد أو الكوفة ، أو الى البصرة قضية تاريخية ليس لها معنى يرتبط بواقع بالرغم من اصطناع المتأخرين الانتساب الى هذا الفريق أو ذاك ، فقد تجد في كلام الزمخشري ، أو في كلام ابن الحاجب أو غيرهما مايدل على انتصار للبصريين ،او انتساب الى مذهبهم ، فليس ذلك في رأينا الا متابعة خالصة ، وتقليدا محضا ، لان أسلوب الدرس البصري أو الكوفي كما كان ، لم يعد له وجود ، لان مصادر الدرس التي كان يصدر عنها الدارسون لم يعد لها وجود ، والاختلاف في المذهب انما يقوم ، فيما نرى ، على أساس الافادة من المصادر الحية في استخراج الاصول العامه في الدرس ، أو بعبارة أدق على اساس اسلوب الافادة منها في ذلك .

أما المتأخرون من النحاة فلم يجدوا أمامهم الا مصنفات في النحو تضمنت وجهات نظر مختلفة ، فراحوا يختارون هذا الجانب أو ذاك بحسب ملاءمته لاسلوب الدرس الذي اصطنعوه .

وجاء الدارسون المحدثون فأخذوا يتناولون موضوعات النحو بالدرس انتهى اليهم عن المتأخرين في مفصل الزمخشري وشروحه ، وألفية ابن مالك وشروحها ، ومتون ابن هشام وشروحها، ومقدمتي ابن الحاجب وشروحها ، أو عن نحاة صغار ليس لهم رأي ، ولا لدراستهم أصالة ، ولكنهم جماعون ملفقون أتيح لهم أن يقفوا على كتب نحوية لنحاة سابقين ، فاحتذوها ، ولفقوا كتبا ألفوا فيها بين الاقوال المختلفة ، والآراء المتفاوتة ، كالسيوطي في همع الهوامع ،والازهري في شرح التصريح على التوضيح ، وأمثالهما .

غير أن الدارسين المحدثين أخذ يحسبون أن النحو الذي ورثوه عن هؤلاء لم يعد يلائم الدرس الحديث لا منهجا ولا موضوعا ، وراحوا يعيدون النظر في نحو العربية بحيث يتلاءم مع حال اللغة العربية التي لم تعد حوشية ولا بدوية ، ولكنها عادت لغة متطورة أفادت من اتصالها بالشرق والغرب ، وتلقحت بثقافات جديدة لم تشهدها من قبل ، فسلكوا في دراستها دروبا مختلفة ، ومرت هذه الدراسة بمراحل :

كانت المرحلة الاولى احياء آثار السلف الذي كان من اللغة الحية على كثب ، فنشرت أمات الكتب التي تعد أصول هذا الدرس ٠

وكانت المرحلة الثانية تصنيف الكتب والرسائل الجامعية التي تتناول بالدرس أحد شيوخ النحو الاوائل ، والمذهب الذي ذهب اليه ، أو المنهج الذي أتخذه ، أو تتناول بالدرس مذهبا نحويا بعينه كمذهب الكوفيين البغداديين ، ومذهب البصريين ٠

وكانت المرحلة الثالثة نقد النحو القديم ، والدعوة الى احيائه ، أو تجديده ليتلاءم مع متطلبات الدرس النحوي الحديث ٠

وكان الدارسون الجدد يختلفون في اتجاهاتهم اختلافا اقتضاه محصول الدرس في هذا الميدان ، وكان المستشرقون همالبادئين ، فقد درس (فلوكل) كتاب فهرست ابن النديم ، وقدم له ونشره ، ثم نشر بحثا في المدارس النحوية التياستخلصها من تصنيف ابن النديم ٠ ودرس (گوتولدفايل) كتاب « الانصاف في مسائل الخلاف » للانباري وقدم له ونشره وكان له رأي في المذاهب النحوية القديمة سيأتي بيانه ٠ ثم (بروكلمان) الذي وقف على أعمال غيره من المستشرقين فصنف كتابه الكبير «تاريخ الادب العربي» الذي كان الدكتور عبدالحليم النجار قد بدأ بترجمته ، فترجم منه ثلاثة أجزاء ، ولم تمهله المنية ٠ ثم (يوهان فك) في كتابه (العربية) الذي ترجمه النجار أيضا ٠

واحتذاهم الدارسون العرب فخاضوا ماسبق أن خاضه هؤلاء ، فتناول صاحب (ضحى الاسلام) النحو بالدرس مع ماتناول من موضوعات تتعلق بالحضارة العربية والفكر العربي ، وعرض في تناوله النحو للمذهبين النحويين الرئيسين مذهب أهل البصرة ، ومذهب أهل الكوفة ، ووازن بين المذهبين ، ولكنه لم يأت بجديد ، لان ماأثبته في (ضحى الاسلام) لايعدو أن يكون ترجمه لما جاء عند اولئك المستشرقين ٠

وتناول النحو بالدرس دارسون آخرون ، ولم يكن لهم المام بثقافة العرب فراحوا يؤرخون للنحو والنحاة ، والمذاهب النحوية على غرار ما كان القدماء يفعلون ولم يجد الدارس فيما صنفوا شيئا جديدا يزيد على ماجاء في كتب السيوطي ، وكتب من أخذ السيوطي عنهم •

وأخذ الدارسون العرب يتسابقون في احياء مذهب . أو تحقيق مخطوطة ، فكتبت المقالات في المجلات ، وألقيت المحاضرات في المؤتمرات المجمعية ، وألفت الكتب التي تتناول أحد النحاة بالدرس ، أو تتناول مذهبا نحويا معينا •

ثم هيأ بعض الدارسين أنفسهم للدعوة الى احياء النحو وتخليصه من الشوائب التي فتح الباب أمامها اليه دارسون لم يفهموا من الدرس النحوي الا تعليلات فلسفية ، وتأويلات بعيدة ، وتقديرات لاتحتملها النصوص ، فكان مآل هذا الدرس الحيوي الانساني الى الجدب القاتل ، والجمود المميت •

وكان أول صوت ندء عاليا يدعو الدارسين الى دراسة النحو من أول ، والى اعادة النظر فيما آل اليه الدرس النحوي من مآل مخيف يهدد هذا الدرس بالجمود بل بالاضمحلال •• هو صوت أستاذنا ابراهيم مصطفى في كتابه الخالد (احياء النحو) •

ثم تصدى الدكتور شوقي ضيف لنشر كتاب لابن مضاء القرطبي ، اسمه « الرد على النحاة » ، وقدم له بمقدمة ظاهرها الدعوة الى احياء النحو ، وتخليصه من أوضار الفلسفة والمنطق التي علقت بهذا الدرس جرها عليه دارسون من الفلاسفة والمناطقة والاصوليين والمتكلمين ، ومرماها البعيد غمز صاحب (احياء النحو)، وتوجيه انتباه الدارسين الى أن ماجاء في (احياء النحو) انما هو اقتباس ليس فيه أصالة ولا جدة •

ولكن الدكتور شوقي ضيف الذي بدأ منذ نشر هذا الكتاب يحاول أن يتخصص في كل فرع من فروع العربية ، ويتناول بالدرس كل عصر من عصورها ، وكل موضوع من موضوعاتها •• لم يكن على حق في غمزه صاحب (احياء النحو) ،

ولا على صواب في موازنة ماجاء به مع ماسبق اليه ابن مضاء ، لان ابن مضاء حين نادى بالغاء التعليلات والتأويلات والتقديرات في النحو لم يكن ليتجاوز لحدود التي رسمها الكسائي والفراء وغيرهما من البغداديين ، وكان قد حمل على البصريين من خلال معاصريه الذين كانوا يتعصبون للبصريين على الكوفيين كابن خروف وغيره ويكفي لنسف هذه الموازنة بين الرجلين أن نعرف أن ابن مضاء كان يهدف الى الهدم حسب ، أما ابراهيم مصطفى فكان يرسم خطة قويمة للبناء ، وفرق بين هادم لايرمي الى أبعد من الهدم ، وبان يخطط لدرس جديد رائد بمتطلبات الدرس النحوي الحديث ، وان كان تخطيطا لم يتم .

ومهما يكن من أمر فالنحو الذي ورثناه هو النحو الذي بسط سلطانه على مجالس الدرس ، وهو النحو البصري الذي اصطبغ بالصبغة (الرسمية) ، ولكنه نحو مشوه لم يبق فيه أثر لما كان في نحو البصريين الاوائل من حيوية وقوة ، فقد أثقل بالتعليلات ، وأفسد بالتأويلات والتقديرات ، حتى غدا وكأنه فرع من فروع الفلسفة ، وبحث من بحوث علم الكلام . ومن أجل ذلك ، ومع ذلك يجيء باحث محدث ، ويتحدث عن البصريين ونحوهم فيرى « أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا ، وأن طريقتهم أكثر تنظيما ، وأقوى سلطانا على اللغة » (١٢) ، مع أنه كان يرى ان النحويين بوضعهم هذه القواعد كانوا « قد أهدروا كثيرا من الاستعمالات التي كان ينطق بها العرب في تطير وضع قواعدهم الكلية ، وشددوا في احترامها ، وخضع الناس لها ، لانهم كانوا المسيطرين على التعليم » (١٣) .

ولا أدري كيف يؤثر باحث محدث أن يكون النحو أقوى عقلا ، وطريقة القياس فيه أكثر تنظيما ، وأقوى سلطانا على اللغة ؟ وأي نحو هذا الذي يستخلص من القواعد الموضوعة ، ولا تستفتى فيه اللغة لا اللغة، مع أن الاستعمال هو صاحب السلطان ، اللغة لا عقل الفرد ولا منطقه ، ولا قاعدته الموضوعة والمفروضة على الدارسين ؟ أليس هذا تقليدا — في غير وعي — لافكار عتيقة كانت تفهم النحو على

(١٢) ضحى الاسلام ٢/٢٩٦ ط٢ .
(١٣) ضحى الاسلام ٢/٢٨٢ ط ٢ .

أنه منطق وفلسفة وتعليل وتقدير ، ثم اليس هذا ترديدا لمزاعم المتعصبين الذين كانوا يرون في منافسيهم الذين كانوا يحترمون ما ورد عن العرب ، ويحرصون على الفصيح المستعمل - دارسين افسدوا اللغة والنحو ، ويعرّضون بالكسائي الذي اجتمع لديه النحو والقراءة ، فيتهمونه بافساد النحو ، ويزعمون انه «كان يسمع الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله اصلا » ؟

ولم يقف الامر عند هذا التعسف في الزعم بل ظهر دارسون محدثون تابعوا المذهب البصري في غير وعي ، وتعصبوا له حتى بلغ بهم التعصب ان يطرحوا آثار الكوفيين وآراءهم واقوالهم ، ثم يتحاملوا عليهم ويشككوا حتى في أن يكون لهم مذهب على حدة ، وربما خلّط بعض صغار النحاة في عصرنا فراح يعرض لآراء الكوفيين ويضعّفها ، كما تلقى من شيوخه ، وكما وقف عليه في كتب البصريين . ولفق هذه المزاعم في رسالة قال انها رسالة جامعية ، وانه الزم نفسه اتباع المنهج العلمي ، فلا يقر الا ماقام عليه الدليل(١٤) .

ومن مبادىء المنهج العلمي ان يستقري ويستوعب ، وهذا المدعى اتباع منهج البحث لم يستقرِ ، ولم يستوعب ، فقد تناول آراء الكوفيين من خلال كتب المتعصبين عليهم كأبي البركات الانباري واضرابه ، ولم يكلف نفسه ان يرجع الى كتب الكوفيين انفسهم كمعاني القرآن للفراء ومجالس ثعلب وغيرهما ، وفي هذه الكتب كثير من آراء الكوفيين ، وهذه الكتب ليست ببعيدة عن متناول يده ، ولكنه لم يرجع اليها ولم يقف على آراء الفراء وثعلب فيها . أما « معاني القرآن » فلم يكن من بين مراجعه ومصادره التي عقد لها فهرسا في آخر رسالته واما «مجالس ثعلب» فلم يعنه منه الا هامش لمحقق الكتاب عبدالسلام هارون .

(١٤) مدرسة البصرة النحوية - الدكتور عبدالرحمن السيد - المقدمة ص (ز) .

ولو كان هذا الدرس منهجيا ، كما زعم ، لما اطّرح كتب الكوفيين وتقوّل عليهم من خلال كتب الدارسين المعروفين بتعصبهم على الكوفيين ، ولكان استوفى كل ماوصل الينا من كتبهم ، ولكنه لم يفعل ، ولم ينهج في دراسته نهج الدارسين المحايدين (الموضوعيين) بل اخذ يخلط كما كان القدماء يخلطون ، ويتهم الكوفيين كما كان المتعصبون المبهرجون يفعلون ، وافتات عليهم بانهم « لم يعنهم ان يقفوا عندما روى لهم من نصوص يستوثقون منه، ويتبينون صحته ، ويكثر سماعهم لامثاله حتى يصبح جديرا بالاخذ ، لم يفعلوا ذلك وانما تلقفوا الشواهد النادرة ، وقبلوا الروايات الشاذة »(١٥) .

ولم يكتف بهذا الافتيات بل اخذ يزيف ويبهرج فيقول : «ولقد ثبت ان الكوفيين نقلوا كثيرا عن خلف الاحمر»(١٦) ويتلقى من استاذه زعما يجعل منه نصا لا يتطرق الشك اليه فيقول : « فهم يعتمدون على الشعر المصنوع ، والمنسوب لغير قائله ، دون ان يهتموا بالتمحيص »(١٧) .

وكل ما استند اليه فى تقرير هذا انه وجد فى (وفيات الاعيان) خبرا منسوبا الى ابى زيد الانصارى يحكى عن خلف الاحمر انه قال : « اتيت الكوفة لاكتب عنهم الشعر فبخلوا به علي فكنت اعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم ، ويلكم أنا تائب الى الله ، هذا الشعر لى فلم يقبلوا منى فبقى منسوبا الى العرب لهذا السبب»(١٨) .

واذ سرد هذه الحكاية المفتعلة كان يجهل ان الراوى هذه الحكاية هو ابو حاتم السجستاني المعروف بتعصبه الشديد على الكوفيين وان الحكاية مشار

(١٥) مدرسة البصرة النحوية ١٤٦ .
(١٦) مدرسة البصرة النحوية ١٥١ .
(١٧) مدرسة البصرة النحوية ١٥٢ .
(١٨) مدرسة البصرة النحوية عن (وفيات الاعيان) جـ ١ ص ٢٦٠ .

اليها فى (مراتب النحويين) قبل ان يتلقفها ابن خلكان . والحكاية ، مع هذا ، ظاهرة الافتعال ، ينقض آخرها اولها ، ولا يخفى ذلك على الدارس الفطن ، لان الكوفيين اذا كانوا قد بخلوا على خلف الاحمر بالشعر فكيف كان يأخذ الصحيح منهم ويعطيهم المنحول ؟ واذا كان ابو زيد الانصارى وهو الموثوق بروايته يحكى هذا الخبر حقا فكيف يطمئن الى روايات الكوفيين ، ويسمع منهم ؟ فقد كان يستكثر عن المفضل الضبى الكوفى ، وجاء فى مقدمة نوادره : « قال ابو حاتم : قال لى أبو زيد : ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي ، وما كان من اللغات وابواب الرجز فذلك سماعى من العرب »(١٩) .

واذا كان ثابتا ، كما يزعم صاحب (مدرسة البصرة النحوية) انالكوفيين كانوا يعتمدون على الشعر المصنوع فكيف كان الاصمعى يروى عن حماد الراوية شيئا من الشعر ، ويقول : « كل شيء في ايدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية الا نتفا سمعتها من الاعراب وابى عمرو بن العلاء »(٢٠) .

فلو رجع هذا الدارس الى (معانى القرآن) واستوعب ما فى مجالس ثعلب ، وسلك مسلك الباحثين فى تقويم الآراء التى يقف عليها لما وقع فيما وقع فيه من تخليط .

واذا فاته أن يقف على حقيقة مذهب الكوفيين ، وتحرجهم فى رواية من لايوثق به فلا ينبغي أن يترك سادرا في وهمه ، لهذا احيله على نص للفراء ينقض كل ما جاء فى رسالته من تخليط حمله عليه وهمه وتسرعه وتقليده .

---

(١٩) كتاب النوادر فى اللغة ص ١ .

(٢٠) مراتب النحويين ٧٢ .

قال الفراء حين عرض لقراءة قوله : « وان هذان لساحران » : « فقراءتنا بتشديد (ان) وبالألف على جهتين : احداهما : على لغة بنى الحارث بن كعب ، يجعلون الاثنين فى رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف ، وانشدنى رجل من اسد عنهم ، يريد بنى الحارث :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغا لناباه الشجاع لصمّما

قال : وما رأيت افصح من هذا الأسدى ، وحكى هذا الرجل عنهم : هذا خط يدا أخى بعينه »(٢١) .

وقد ايد القرطبى الفراء فذكر انها لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد(٢٢) ، ونقل القرطبى عن ابى جعفر النحاس ، وهو بصرى ، أنه قال : « وهذا القول – يعني قول الفراء – احسن ماحملت عليه الآية اذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وامانته منهم : ابو زيد الانصارى ... وابو الخطاب الاخفش ، والكسائي والفراء » (٢٣) .

فقد وثق النحاس الفراء فى روايته ، وجعله قرينا لأبى زيد الانصارى وابى الخطاب الاخفش البصريّين وعده فيمن يرتضى بعلمه وامانته ، وهو بعد ذلك استاذ الكوفيين وحجتهم ومرجعهم ، وفى هذا رد على المزاعم المتهافتة التى تحايل بها على الكوفيين بصريون عرفوا بتعصبهم الشديد عليهم كأبي حاتم السجستاني ، وابي الطيب اللغوي وابن درستويه .

غير ان الدكتور عبدالرحمن السيد لم ير كتاب (معانى القرآن) جديرا بأن يرجع اليه ، واستبدل به كتاب « النحو الجديد » و « تاريخ آداب اللغة

---

(٢١) معانى القرآن ٢/١٨٤ .
(٢٢) الجامع لاحكام القرآن ١١/٢١٦ .
(٢٣) الجامع لاحكام القرآن ١١/٢١٧ .

العربية » و «تاريخ الادب العربى» وكتاب «اللغة والنحو» وكتاب «سيبويه» امام النحاة » وكتاب «القواعد النحوية» وامثالها ، مما هو مثبت فى مسرد مصادره ومراجعه ٠

ان مثل هذا العبث فى العلم لينذر البحث العلمى بالخطر ، ويغض من سمعة الجامعة التى تجيزه او تعضده ، ولا اريد ان اعرض شكل ما جاء فى كتاب (مدرسة البصرة النحوية) من ضعف فى التأليف ، وتسرع فى اطلاق الاحكام ، وترديد المزاعم متهافتة فلذلك موعد آخر ، ومكان غير هذا ٠

اخذ التشكيك بوجود مذهب نحوى يخالف مذهب البصريين يتخذ اشكالا مختلفة ، ويتجه اتجاهات متفاوتة ، وقد مر بنا ما جاء فى كتاب « مدرسة البصرة النحوية » من تخليط فى اتهام الدارسين الذين نافسوا البصريين واتخذوا لانفسهم منهجا مخالفا يتسم بأنه اقرب الى طبيعة الموضوع المدروس وبأنه اكثر تحررا من ربقة الأصول الموضوعة التى تمسك بها البصريون أيما تمسك ، وعدوا الترخص فى رفضها والخروج عليها افسادا وتخليطا ٠

ولم يكن صاحب (مدرسة البصرة النحوية) بصاحب فكرة جديدة فى التهوين من شأن الكوفيين ، واتهامهم بانهم يسمعون المنحول ، ويتمسكون بالشاذ الذى لا يجوز الا فى الضرورة ، ويتخذون منه اصلا يقيسون عليه ، ويعتدون بكلام من لا يوثق بفصاحته كأعراب الحطمة ، أقول : ليس هو صاحب الفكرة ، ولا اظن عمله فى كتابه يعرب عن اصالة ، او يشير الى تجديد ولكنه فى طول رسالته وعرضها يردد اقوال النحاة الذين بنوا اعمالهم على الجمع والاحتطاب ، ولم يكن لهم رأى نحوى ينسب اليهم ، ولا ذهن نحوى يجعلهم فى مصاف النحاة ، كالأنبارى فى انصافه ولمع أدلته واسرار عربيته ، وكالسيوطى فى همعه وبهجته واقتراحه ، ويأخذ اقوال شيوخه على انها نصوص لا يأتيها الباطل فاذا قال : قال استاذنا فلان ، فكأنه كان ينطق بوحى او يصدر عن الهام ٠

وليس الدكتور عبدالرحمن السيد نسيج وحده ولكنه واحد من الأمثلة الكثيرة التي شهدتها القرون المتأخرة ، قرون الخرافات والأوهام والخزعبلات واذا كان لأولئك عذر فيما خلطوا فليس لدارس في عصرنا هذا عذر في تغليف ذهنه وعقله بمخلفات زمن قديم متهرىء بال ، بعد ان ظهرت بوادرجادة لاحياء النحو وتجديده وتوجيهه ·

وليس الدكتور عبدالرحمن السيد بدعا من الدارسين المخلطين ، فقد سبقه الى مثل موقفه دارسون اقدم تجربة ، واعلى مرتبة منه ، تخرجت بهم افواج من الطلبة ، وتناولوا صناعة النحو بالدرس ، وأرخوا للنحو ، وعرضوا للمذهبين النحويين الكبيرين ، وآمنوا بما آمن به من قبلهم من دارسين رأوا في الدرس البصري طرازا قويما ، ونموذجا عاليا للدرس النحوي ، لأنه اقوى عقلا ، واكثر تنظيما ، واقوى سلطانا على اللغة · بل ذهب بعض هؤلاء الى ابعد مما ذهب اليه المتعصبون على الدرس الكوفي ، فلم يقنع بان يضعفه ، او يغض من شأنه او يتهمه بالفساد والشذوذ ، بل انكره انكارا ، وهو امر عجب حقا ·

هذا الدارس هو صاحب كتاب (في اصول النحو) وهو استاذ يكنّ له تلاميذه تقديرا ، ورأس قسم اللغة العربية في جامعة عربية محترمة سنين طوالا ، وقدم للدرس النحوي نتاجا يتفاوت قوة وضعفا ، ولعل اضعف نتاجه واقله شأنا هو كتابه (في أصول النحو) · لقد غلا فيه في اتّباع مذهب البصريين ، وتشبث بتخرصات ذوي العصبية عليهم ، فقد عقد فيه فصلا لبيان «الفروق بين المذهبين البصري والكوفي »(٢٤) كان قد ارسل فيه اقواله وآراءه ارسالا لم يقم على اساس من البحث العلمي (الموضوعي)،واخذ يتشبث بالواهي من الدلائل ، وراح يضعف المذهب الكوفي بل ينسفه من الاساس ·

---

(٢٤) في أصول النحو ـ الاستاذ سعيد الافغاني ١٨٨ ·

فاذا قرأ أن للدرس النحوى مذهبين مختلفين ، مذهبا يقوم على السماع ، ومذهبا يقوم على القياس ، كما ذهب اليه صاحب (ضحى الاسلام)(٢٥) والاستاذ طه الراوى فى مقالة له(٢٦) ، عقب على كلامهما بالرد والتضعيف ، وقـــال : « الحق البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه (واحترموه) على حين زيّفـه الكوفيون وبلبلوه »(٢٧) ٠ وانتهى من عرضه الآراء ومناقشته اياها بقوله « اميل الى ان المذهب الكوفى لا هو مذهب سماع صحيح ، ولا مذهب قياس منظم لكن التاريخ يؤيد وجود المذهبين ، مذهب السماع ، ومذهب القياس ، وهمـــا حقا وجدا ولكن فى البصرة لا فى الكوفة »(٢٨) ٠ وهو فى هذا ينكر ان يـــكون هناك مذهب كوفى يعتد به ، معتمدا فى ذلك على نقول اقتبسها من الانبـــارى فى (الانصاف) والسيوطى فى (بغية الرعاة) والقفطي فى «أنباه «الرواة » ، ولم يكلف نفسه الرجوع الى اقوال الفراء واقوال ثعلب وغيرهما من أئمـــــة البغداديين والكوفيين ٠ وليس له من عذر فى عدم الوقوف على اقوال الكوفيـــين وآرائهم بحجة انه لم يعلم ان شيئا من كتبهم قد طبع(٢٩) وان يقبل مـــــن باحث أعتذار من هذا القبيل ، فاذا لم يكن شيء منها قد طبع فقـــد يكون لها مخطوطات فى هذه المكتبة او تلك ، ولكتبهم ، او شيء منها نسخ مخطوطـــة فعلا حوتها دور الكتب فى الاقطار العربية وفى خارجها ، وقد طبع بعضهـــا ، وربما طبع بعضها قبل ان يتم هذا الباحث تأليف كتابه هذا ٠

أما كتاب (معاني القرآن) للفراء فقد وقف الباحث على خبره في فهرســـت ابن النديم كما أشار اليه في كتابه ، وكان لمعاني القرآن عـدة نسخ مخطوطة في دار الكتب المصرية ، ثم طبع الجزء الاول منه سنة ١٩٥٥ ، أي قبل أن يعيـــد

---

(٢٥) ضحى الاسلام ٢/٢٩٥ ٠

(٢٦) نظرة فى النحو ـ مجلة المجمع العلمى العربى ١٤/٣١٩ ٠

(٢٧) فى اصول النحو ١٩٩ ٠

(٢٨) فى أصول النحو ٢٠٠ ٠

(٢٩) فى أصول النحو ١٨٧ ٠

مؤلف (في أصول النحو) طبع كتابه بنحو ثلاث سنوات ، واذا كان كتاب (في أصول النحو) قد أنجز عام ١٩٤٩ كما يشير اليه تاريخ مقدمته ، وكان له بعض العذر في عدم وقوفه على (معاني القرآن) فبماذا يعتذر عن ابقاء ماجاء في كتابه من تخليط في طبعته الثانية التى ظهرت بعد طبع الجزء الاول من (معانى القرآن) ؟

ان ايمان الباحث بقدسية الآراء التي جاء بها اولئك النحاة المتعصبون المخلطون كان قد حال دون أن يرجع الى ما طبع من كتب الكوفيين ، ليعيد النظر في آرائه ، وليقف على حقيقة ماكان عليه الكوفيون ، وماكان عليه المتعصبون عليهم ٠

وأما كتاب (المجالس) لثعلب فيبدو أن هذا الباحث كان لايعرف أنه طبع قبل أن يطبع كتابه أول مرة ، فقد طبعت مرتين ، كانت المرة الاولى عام ١٩٤٨ ، كما يدل عليه مقدمة الطبعة الاولى ، وكان الكتاب قد نال الجائزة الاولى للنشر والتحقيق العلمي في المسابقات الادبية التي نظمها المجتمع اللغوي في القاهرة عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ، وكانت المرة الثانية عام ١٩٥٦ ، ولكن صاحب كتاب (في أصول النحو) لم يلائم بين ماجاء في كتابه ، وما كان يمكن أن يقف عليه لو عني بالبحث عن كتب الكوفيين انفسهم ، وليس من منهج البحث في شيء ان يتجاهل الباحث كتب الكوفيين ثم يروح يتلقّط المعايب التى الصقها المتعصبون بالكوفيين ومذهبهم في النحو ٠ ألم يكن من مقتضيات البحث الجاد أن يستقري الباحث ويتقصى ، ويبذل اقصى ما لديه من جهد ، والاّ تحمّل وزر تقصيره في البحث ، وتعجله في ارسال الاحكام قبل أن تتوافر لديه أسبابها ٠

ولكي يبلغ الاستاذ الافغاني هدفه في نسف المذهب الكوفى راح يبين ان الكوفيين لم يكونوا ليكونوا الا تلامذة للبصريين ، وأنهم يفتقرون الى الاصالة في

الدرس ، ثم نقل خبرا من معجم الادباء ، ولكن بعد أن حرّفه لينسجم مع هواه في تضعيف شأن الكوفيين ، فقد عرض لثعلب ، ووصفه بالعصبية التي حرم نفسه الخير بسببها ، وقال : « وأراد ثعلب هذا أن يقرأ على المبرد البصري ، فأنكر عليه أصحابه الكوفيون ، وقالوا : « مثلك لايصلح أن يمضي الى البصري ، فيقال غدا انه تلميذه ، فاستجاب لهم عصبية وحرم نفسه الخير» (٣٠) ٠

لم يكن الاستاذ الافغاني متثبتا في نقله هذا الخبر ، فالذي حكاه ياقوت عن أبي بكر بن الانباري قوله : « سمعت أبا العباس يعني ثعلبا يقول : عزمت على المضي الى المازني لا ناظره فأنكر ذلك عليّ أصحابنا الخ ٠٠٠»(٣١) ٠ فلم يعتزم ثعلب المضي الى المبرد بل الى المازني أستاذ المبرد ، ولم يعتزم المضي الى المازني ليقرأ عليه بل ليناظره ، وكيف يتوهم الاستاذ الافغاني أن ثعلبا يريد أن يقرأ على المبرد ، مع أن ثعلبا آلت اليه الرئاسة في النحو قبل أن يرد المبرد بغداد، وكان قد تلمذ لثعلب أكثر أعلام الدرس الذين أخذوا عن الرئيسين ، وأفادوا منهما جميعا ، ولم يجتمع ثعلب مع المبرد الا للمناظرة كما هو معلوم ٠

والى الان لم أصل الى تفسير معقول لموقف الاستاذ الافغاني من الكوفيين ، واني لاعيذ أستاذا جليلا مثل الافغاني أن يدفعه الهوى الى التعصب الذي لايليق بتجرد العلماء وحيادهم ٠

وقريب من هذا ماذهب اليه الدكتور أحمد مكي الانصاري في كتابه (أبو زكريا الفراء) الا أنه كان أقرب الى النهج العلمي المتجرد من مؤلف (في أصول النحو) ، فلم ينكر أن يكون للكوفيين مذهب بعينه ، أو يكون لهم ملامح شخصية علمية مستقلة ، فقد أثبت خصائص المذهب الكوفي ، ووازن بينه وبين المذهب البصري ، وخلص الى رأي مقبول في هذه الموازنة ٠

---

(٣٠) في أصول النحو ٢١٠ ٠

(٣١) معجم الادباء ٥/١١٥ ٠

الا أنه قصر الدرس الكوفي على دارسين لم يكونوا نحاة ولا لغويين ، ولم يكن لهم مذهب واضح ، ولا نزعة معروفة ، وجعل أبا جعفر الرواسي مؤسس المذهب ولم يقدم للدارسين من آراء الرواسي أو أقواله الى أن يكون رئيس مدرسة ومؤسس مذهب .

أما الكسائي والفراء فلم يكونا عنده من البصريين ولا من الكوفيين ، فقد نسبهما الى مدرسة ثالثة لاهي بالبصرية ولا بالكوفية ، مدرسة يقوم مذهبها على أساس من خلط المذهبين ، وجمع مزاياهما في مذهب منتخب مختار هو المذهب البغدادي على حد وهم الدارسين المحدثين ، بل جعل الفراء مؤسس مدرسة بغداد ، وبنى كتابه (أبو زكريا الفراء) على أساس هذه الفكرة ، ولا أراه الا متكلفا ، وقد التقى مع الافغاني من حيث أراد او لم يرد في نسف المذهب الكوفي الذي نشأ أول ماانشأ في بغداد ، وفى انكار أن يكون للبغداديين ، وعلى رأسهم الكسائي والفراء مذهب مستقل بازاء مذهب البصريين ، بل لقد انتهى من حيث أراد أو لم يرد الى أن الفراء كان يصطنع أوضاع البصريين ، ويقف من القراءات موقف البصريين ، ويقدر ويتأول ، وينتهج في نحوه منهج الفلاسفة والمتكلمين ، ويعتد بالقياس ، ويلتزم بالضبط والتقعيد ، ويخطّىء العرب ، ويخطّىء القراء ويطعن عليهم، ولم يبقَ للدارس أي دارس الا أن يجزم أن الفراء بصري المذهب ، بل راسم المذهب للبصريين ، وقد وقفت مع الدكتور الانصاري في هذا وقفة طويلة لاأرى العودة اليها هنا الا تطويلا (٣٢) .

وهناك دارسون محدثون آخرون لم يسعهم التشكيك في وجود مدرسة نحوية بازاء مدرسة البصرة ، ولكنهم ــ مع ذلك ــ أنكروا أن يكون للكوفيين مدرسة ولدراستهم أصالة ، فراحوا يُحمّلون بعض النصوص أكثر مما تحتمل ، فنسبوا النحو الكوفي الى نحاة بصريين .

---

(٣٢) انظر : الجزء الرابع من المجلد السابع والاربعين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢ .

ولعل أول من فتح الباب هو : (كوتولدفايل) في مقدمته لكتاب الانصاف فقد شكك في وجود مذهب مكتمل يقف بازاء مذهب البصريين الذي كتب لــه الانتصار والغلبة فسيطر على بيئات التعليم في مختلف العصور ، بل ذهــب الى أن الكوفيين « لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة » •

وكان (فايل) في هذا مشدودا بسببين :

الاول : أنه كان مأخوذا بالضجةالتي أحدثها انتصار المذهب البصري ، وبسط نفوذه على أكثر المصنفات النحوية ، وعلى أذهان أكثر الدارسين ، وبالبهرجة التــي أتسم بها كتاب (الانصاف) في عرض وجهات النظر المختلفة •

والثاني : أنه لم يقف على مصنفات الكوفيين فلم يلم بآراء الكوفيين وأعلامهم التي يستطيع الدارس أن يرسم الدارس للمذهب الكوفي بها صورة واضحــة الخطوط والملامح •

لم يقف (فايل) على كتب الفراء ، ولم يسمع الا بأسمائها « وكتاب الحــدود ومعاني القرآن اللذان احتويا مجموعة من الآراء الصائبة الصالحــة للبقاء » لــم يصلا اليه ، ولم يقف عليهما (٣٣) • وما وصل اليه من أقوال وآراء من خــلال كتاب (الانصاف) لم يؤلف عنده مذهبا مستقلا يقف بازاء المذهب البصري ،ولذلك ذهب الى أن « علم النحو برمته بصري » (٤٣) ، ولا ريب أنه انما يعني أن النحو الذي تناوله الدارسون بعد غلبة المذهب البصري بصري ، لانه لم يكد يقــف على مصنفات للكوفيين كان الدارسون يتداولونها ويتناولونها بالدرس •

رأى (فايل) أن أهم ماأتسم به النحو الكوفي هو سلوكه منهجا خالف فيــه كثيرا من الاراء البصرية ، وقد أتاحت له دراسته كتاب (الانصاف) أن يقف عــلى

(٣٣) مقدمة كتاب الانصاف ـ ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار •

(٣٤) المصدر نفسه •

الاراء الكوفية وعلى الاراء البصرية ، وعلى اراء بعض البصريين المتقدمين الذين صدرت عنهم آراء تخالف آراء الفريق البصري السائد .

وكان(فايل) يرى أن للفراء بين الدارسين الكوفيين تأثيراً خاصا في نمو مدرسة الكوفة ، وأن حدة طبعه وميله الى الخلاف كانا سبيله الى اتخاذ مذهب خالف به معاصريه ، بل خالف الكسائي نفسه أيضا ، ولكن (فايل) رأى أن هذه المخالفة لم يبتدعها الفراء نفسه ولكن لها جذورا قديمة عند البصريين أنفسهم ، وغلب على ظنه أن يونس بن حبيب البصري كان صاحب التأثير الموجه في كلا الكوفيَّيْن الكسائي والفراء . وبنى رأيه هذا على أمور :

١ ـ أن اسمه قرن باسم الكوفيين في بضع مسائل ، كان الانباري يسميه فيها يمثل آراء الكوفيين ، وأن صاحب كتاب (المفصل) كان قد ذكره سبع مرات ، وكان رأيه يمثل آراء الكوفيين في خمس مرات منها .

٢ ـ ماذكره النحاة وأصحاب الطبقات عن يونس بن حبيب ، وخص بالذكر منهم أبا سعيد السيرافي ، ونقل عنه قوله : « وله قياس في النحو ، ومذاهب يتفرد بها » (٣٥) .

٣ ـ ماروا‌ه أصحاب الطبقات أن الكسائي والفراء كانا قد سمعا منه وأخذا عنه ، وأن الفراء ، خاصة ، استكثر عنه . غير أن هذه الامور لم تدعم رأيه ، ولا صوبت ماذهب اليه ، فاقتران اسم يونس باسم الكوفيين في بضع مسائل لايعني شيئا ، ولا ينهض حجة له ، لان موافقة الكوفيين اياه لاتعني أن يكون صاحب التأثير الموجه في الكسائي والفراء ، فاذا كان يونس أثر فيهما في بضع مسائل فمن ، ترى ، صاحب التأثير فيهما في سائر المسائل التي خالفا فيها يونس والبصريين ؟

---

(٣٥) أخبار النحويين البصريين ٢٧ .

وأما أن الكسائي والفراء قد سمعا منه ، كما يقول أصحاب الطبقات (٣٦) ، فلا يدعم زعمه أيضا ، لان اتصال الكسائي والفراء بيونس لم يكن من قبيل اتصال التلميذ بأستاذه ، ولم يصح أن يكون الكسائي أخذ عنه ٠

يضاف الى هذا أن الذي حكاه أصحاب الطبقات ينقض هذه التلمذة وينفيها فقد حكوا أن الكسائي لمّا قطع رحلته ورجع لم يكن له همّ الا البصرة ولكنه وجد الخليل قد مات ، وتصدر يونس بن حبيب في مجلسه ، وجلس الكسائي الى يونس « فجرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها ، وصدره في موضعه» (٣٧) ٠

ومما يؤيد أن اتصال الكسائي بيونس لايعني تلمذته له ، ولا الاخذ عنه : ماروﺍه السيرافي عن ابن السراج أنه قال : « ان مروان بن سعيد سأل الكسائي بحضرة يونس عن (أي) ، ثم سأله ، وأكثر من الاسئلة عن اختلاف حالها اعرابا وبناء ، فقال له الكسائي : « أي كذا خلقت » ٠ فغضب يونس لالحاح مروان في مسألته وقال : « تؤذون جليسنا ومؤدب أمير المؤمنين» ؟ ! (٣٨) فلو كان الكسائي يجلس الى يونس ليأخذ عنه أو يتلمذ له لما كان لسؤال الكسائي معنى ، ولكان السائل وجه السؤال الى من تصدر مجلس الدرس ، وهو يونس ٠ ولو كان مكان الكسائي في مجلس يونس مكان التلميذ لما غضب يونس ، ولما سماه جليسا ٠

وأما أن ليونس قياسا في النحو ، ومذاهب يتفرد بها فأمر لايدل على أن يونس كان صاحب التأثير في الكسائي ، فليونس وجهة نظر تلتقي مع البصريين في أكثر المسائل ، وتفترق عنهم في بعضها ، وللكسائي أيضا مذهب يتفرد به

---

(٣٦) أخبار النحويين البصريين ٢٧ ٠ نزهة الالباء ٦٠ ، معجم الادباء ٢٠/٦٤ ٠ وفيات الاعيان ٦/٢٤٢ ٠

(٣٧) نزهة الالباء ٨٤ ٠

(٣٨) اخبار النحويين البصريين ٢٨ ٠

ويخالف به البصريين في أكثر المسائل ، واذا التقت وجهة نظر الكسائي بوجهة نظر يونس في أربع مسائل او خمس فلا يعني هذا أن يكون يونس هو مؤسس مدرسة الكوفة أو صاحب التأثير الموجه في الكسائي ، والتشبث به تشبث بالاسباب الواهية لاثبات قضية خاسرة ٠

هذا مايتعلق باتصال الكسائي بيونس ، أما اتصال الفراء به فلا أحسبه الا اتصال دارس طلعة يعني بأن يلم بأطراف الدرس ، وأن يقف على الآراء المختلفة ، ولا أعلم أن الفراء كان قد انقطع الى يونس والى البصرة انقطاعا أخذ في أثنائه عنه أو تلمذ له ، أو تأثر به ، ولعل اتصاله به كان عابرا ، والدارس الذي يتحدث عن الفراء بأنه دارس « لم يهتم الا قليلا بالاخذ للتناقل في هذا العلم ، بل يبدو عليه طابع من يؤسس فرقة او مذهبا » (٣٩) لاينتهي الى مثل ماانتهى اليه من تشبث بالوهم في تأثر الفراء بيونس ٠

الحق أن الدارس ربما وقف على بضع روايات للفراء عن يونس ، ولكنها روايات لاتتعلّق بالنحو، ولا أحسبني وقفت على حكاية للفراء عن يونس تتعلّق بموضوع من موضوعات النحو ، فاذا كان الفراء يبدو عليه طابع المؤسس لمذهب ، وأن المسائل التي يرويها الفراء عن يونس لاعلاقة لها بالنحو فمن التمحل ماذهب اليه (ڤايل) من أن يونس كان صاحب التأثير في الفراء ٠

ان كل ماصدر عنه (ڤايل) في مقالته هذه انما يستند في الواقع الى ذلك الاتفاق في الرأى بين يونس والكوفيين في خمس المسائل التي لاتكاد تذكر الى جانب المسائل التي تضمنها كتاب (الانصاف) ، وعدتها احدى وعشرون ومئة مسألة ، فاذا اعتمد (ڤايل) في بسط رأيه في تأثر الفراء بيونس على هذه المسائل فكيف يفسر اختلافه معه في سبع عشرة ومئة مسألة ؟ ومن كان صاحب التأثير في الفراء فيها ؟

(٣٩) مقدمة الانصاف ـ ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ٠

أما مازعمه «ڤايل» من أن الكوفيين أنفسهم كانوا يدّعون استكثار الفراء عن يونس ، والبصريين ينكرون ذلك فلا يؤيد رأيه ، لان استكثار الفراء عنه اذا صحت الرواية لايعني أنهم يريدون أن ينسبوا الدرس الكوفي الى يونس ، او يعدونه مؤسسا لمذهبهم ، ولو كانوا يريدون بهذا الى ماستنتجه «ڤايل» لما كان لزعم الكوفيين انفسهم رئاسة الرواسي للنحو الكوفي معنى ، وهذا هو ماذكره ڤايل نفسه أيضا . قال : « يبدو أن ثعلبا ـ تقليدا للروايات البصرية التي جمعها المبرد على عهده ـ مع زملائه عن النحوي القديم أبي جعفر الرواسي الذي لم تستفض شهرته من قبل ، على أنه أستاذ الكسائي والفراء ، وعدّوه مؤسسة مدرسة الكوفيين ، ونسبوا اليه كل الآراء القديمة المجهول أصحابها » (٤٠) .

على أن (ڤايل) كان قد استند في استنتاجه أن يونس مؤسس مدرسة الكوفة الى ماجاء في (بغية الوعاة) من قوله : « وأخذ [الفراء] عن يونس ، وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر عنه ، وأهل البصرة يدفعون ذلك » فقال « أي أن البصريين كانوا يريدون نسبته [يونس] الى مدرستهم معارضين في ذلك الكوفيين الذين يرون فيه مؤسس مدرستهم » (٤١) .

مع أن السيوطي الذي زعم أن أهل الكوفة يدعون ان الفراء استكثر عنه لم يدر في ذهنه أنهم بهذا يريدون الى القول بأن يونس مؤسس مدرستهم ، بل قال في ترجمته لابى جعفر : « وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو ، وهو أستاذ الكسائى والفراء » (٤٢) وقال في المزهر بعد أن عرض لرأي أبي حاتم فيه :« وأهل الكوفة يُعظّمون من شأنه ، ويزعمون أن كثيرا من علومهم وقراءاتهم مأخوذ عنه . قلت : الامر كذلك ، وأبو جعفر هذا هو أستاذ الكسائي ، وهو أول

---

(٤٠) مقدمة الانصاف .

(٤١) المصدر نفسه .

(٤٢) بغية الوعاة ١/٨٢ .

مَنْ وضع من الكوفيين كتابا في النحو » (٤٣) • فاذا كان الكوفيون قد نسبوا الى أبي جعفر الرواسي هذا لم يبق وجه لما استنتجه «فايل» من كلام السيوطى •

ولم يكن ڤايل ليكون مخلطا في مزاعمه على النحو الذي جاءت أقواله عليه لو أنه وقف على مصادر الدرس الكوفي ، ووصلت اليه كتبهم ، وقد مر بنا أنه لم يقف على (معاني القرآن) الذي حوى كثيرا من آراء الفراء الصائبة على حد قوله ، والذي جعله يطمئن الى سلامة النتائج التي توصل اليها أن الكتاب المتأخرين لم يعرضوا النصوص منه ، ولا أشاروا الى آراء الفراء النحوية فيه •

ويبدو ان أشتداد المنافسة بين تلاميذ ثعلب وتلاميذ المبرد ، وغَلَبَة تلاميذ المبرد وسيطرتهم على التعليم في مجالس الدرس وفي المدارس التي اسست كالنظامية وغيرها حملت الدارسين على اطّراح كتب الكوفيين ، فضاع منها ما ضاع، وبقي منها مابقي ، ولكن الباقي منها لم يتداول ، ولم يتدارس ، ولم يعرفه الدارسون الا منذ الثلاثينيات من هذا القرن ، فلم يطبع كتاب (المجالس) لثعلب الا في سنة ١٩٤٨ ، ولم يطبع كتاب (معاني القرآن) جزؤه الاول الا في سنة ١٩٥٦ ، ولم يتم طبعه الا في هذا العام أي سنة ١٩٧٣ ،وهذان الكتابان، وان لم يخلصا للنحو ، كانا قد احتويا كثيرا من الاراء الناضجة الصائبة التي تحمل في ثناياها سمات المنهج الكوفي البغدادي والخطوط الرئيسة التي قام عليها الدرس الكوفي في بغداد • وكان ينبغي لمثل (ڤايل) أن يبذل الجهد للوقوف على هذين الكتابين وغيرهما اللذين كانا من المخطوطات التي كان الدارسون ، فيما يظن ، يحجمون عن الاضطلاع بتحقيقها ونشرها •

بروكلمان ومدرسة الكوفة :

ولم يكن حظ الدرس الكوفي عند (بروكلمان) بأحسن من حظه عند (فايل) بالرغم من وقوف (بروكلمان) على كتاب (معانى القرآن) ، فقد وصفه

(٤٣) المزهر ٢/٤٠٠ •

وصفا يدل على انه لم يفته ان يقف على مخطوطته ، وقد لاحظ ان الفراء « هو الكوفى الوحيد الذى تناول مسائل النحو على وجه متسلسل فى تفسيره للقرآن الكريم ؛ كتاب معانى القرآن»(٤٤) ٠

وكان (بروكلمان) يأسف لنقص علمه بنمو هذه المدرسة اعنى مدرسة الكوفة ، وذلك لقلة ما وصل الى الدارسين من مصنفات الكوفيين ٠ أما الآراءالتى يتمثل فيها الخلاف بين المذهبين مما نقلته مصنفات المتأخرين من النحاة فلم تعرض فى امانة ودقة ، لانها فى رأيه « قليلة الانصاف للمدرسة الكوفية ذلك ان المتأخرين فضلوا المذهب المدرسى النظرى الذى تم له الانتصار وهو مذهب البصريين الذى يؤثر التعمق فى النكات والدقائق النحوية على مذهب الكوفيين المتجه الى واقع الاستعمال »(٤٥) ٠

كان (بروكلمان) على صواب فى تفسيره غلبة المذهب البصرى على المذهب الكوفى ، فقد وضع يده على السبب الذى كتب به انتصار المذهب البصرى على منافسه ٠

واكبر الظن ان الدرس النحوي الذي يعتمد على المصادر الحية من كلام العرب كان قد انتهى بنضوب المصادر الحية ، وتحول لغة المحادثة عن اللغة الموحدة ، وانقسام اللغة الموحدة الى لهجات ، وانحسار الفصاحة عن لغة التخاطب ، واقتصارها على لغة الكتابة والشعر والتأليف ، فلم يبق امام الدارسين المتأخرين الا آراء ونقول تعبر عن وجهات النظر المختلفة التى كانت المصادر الحية من كلام العرب تمليها على الدارسين من وجهات نظر متفاوته تستهدى فى تفاوتها بمناهج دراسية تتفاوت فى قربها من طبيعة الموضوع المدروس وبعدها عنه ٠ وصار علم الدارس بالنحو يُقَوَّم بمقدار قدرته على

(٤٤) تاريخ الادب العربى ٢/١٩٦ الطبعة العربية ٠

(٤٥) تاريخ الادب العربى ٢/١٩٦ الطبعة العربية ٠

التعليل والتأويل وبمدى تعمقه في استخلاص الوجوه العقلية المحتملة للمسألة الواحدة وفي استخراج القياس ، واستنباط القواعد المحكمة ، وتحديد الموضوعات النحوية بحدود المناطقة الجامعة المانعة .

وكان الدرس البصرى اخبر في القياس والتعليل ، واقدر على اصطناع الاساليب العقلية ، وكان الدرس الكوفى الصق بواقع الاستعمال واعنى بتعبيرات الفصحاء ، واحفل بالنقل والسماع ، وابعد في التتبع والاستقراء .

وهذا في رأيي من اهم الاسباب التي حملت الدارسين على العزوف عن الدرس الكوفى ، واطراح المصنفات الكوفية ، وعلى ترويجهم للدرس البصرى وايثارهم اياه .

وقد اطّلى على (بروكلمان) ماكان قد اطّلى على جمهور الدارسين ففهم من النسبة الى الكوفة ان يكون للكوفة تاريخ في النحو ، كما كان للبصرة،وعرض لابى جعفر الرواسى على انه مؤسس مدرسة النحو في الكوفة ، وان الخليل استفاد من بعض مصنفاته ، وجاز عليه تخليط السيوطى فذكر ان معاذ الهراء واضع علم الصرف ، وذهب الى انهما يمثلان تاريخ النحو والصرف في الكوفة ، وكان (بروكلمان) في عرضه لهذا متابعا للقدماء لا محققا ولا ناقدا .

وفي حدود ما أعلم أنّ الكسائي والفراء وثعلبا لم يسموا بالكوفيين الا في اثناء القرن الرابع للهجرة ، ولم اجد فيما وقفت عليه من اقوال ومصنفات أنّ أحدا من الدارسين الاوائل كان يسمى الكسائي أو الفراء أو ثعلبا أو أحد اصحابهم وتلاميذهم بالكوفى ، وسيأتى بيان ذلك في فصل قابل . اما ابو جعفر الرواسى ومعاذ الهراء فليس لهما من الأقوال والآراء ما يدل على ان

لهما مذهبا بعينه او ان لهما صلة بمدرسة بعينها ، ولذلك كان من التخليط أن يقرنا بأحد من رجال المدرستين ، او ان يتوهم احد الدارسين ، فيزعم ، في غير وعي ، ان الرواسى مؤسس مدرسة النحو فى الكوفة ، وان الهراء واضع علم الصرف ٠

شوقي ضيف ومدرسة الكوفة :

وجاء الدكتور شوقي ضيف فى كتابه (المدارس النحوية) بعد ان وقف على اعمال هؤلاء الدارسين ، ووقف على الدراسات الحديثة التى تمت باشرافه او باشراف غيره من شيوخ النحو الذين اخذ هو عنهم ، ووقف على مصنفات للكوفيين لم يتح لكثير ممن سبقه ان يقف عليها ، ككتاب (مجالس ثعلب) ، وكتاب (معاني القرآن) للفراء وكتاب (المنقوص والممدود) للفراء ٠ وغيرها من الكتب التى اخرجها دارسون عرفوا بالتحقيق ونشروها ، واغنوا المكتبة العربيـة بهـا ٠

جاء الدكتور شوقي ضيف بعد كل هذا ليتبنّى رأيا مخلّطا سبق لقايل ان تبنى مثله ٠ وليطّلي عليه ما اطّلى على من سبقه ، ويجوز عليه ما جاز على غيره، من زيف جرت به اقلام المدعين من النحاة المتعصبين على الدرس الكوفىالبغدادى الذين تحاملوا على الكسائى والفراء وثعلب واصحابهم وتلاميذهم ٠ وحاولوا ان يغضبوا من شأنهم ، ويتهموهم بانهم افسدوا النحو ، او بانهم كانوا حشو عسكر الخليفة ، لم يكن فيهم من يوثق بروايته او يعتد بعلمه « فان ادعى احد منهم شيئا رأيته مخلطا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة »(٤٦) ٠

واذا كان مثل الافغانى فى كتابه (فى اصول النحو) والدكتور عبد الرحمن السيد في رسالته (مدرسة البصرة النحوية) قد انطلقا في تخليطهما من منطق التعصب الذي لايليق بالدارسين ، ومن التعجّل في اطلاق الاحكام

(٤٦) مراتب النحويين ١٠١ ٠

الذى لا يجوز مثله للباحثين فلا يصح ان يورط الدكتور شوقى ضيف نفسه فيتناول موضوعا لم تكتمل لديه أسباب نضجه ، ولا امتدت يده الى ابعاده ٠

لقد بدا على الاستاذ الجليل فى كتابه (المدارس النحوية) انه طارىء على الدرس النحوى ٠ مقحما نفسه فى ميدان ليس له موضع قدم فيه ، الا انشهرته فى العلم ، وبُعْد صيته فى التأليف كان قد وطأ له هذا المركب الخشن ، وان اخلاد الناقدين الى اعفاء انفسهم من ملاحقة الكُتّاب الذين أجترءوا على ألسخرية من الدارسين كان قد شجعه على ارتياد هذه الطريق ٠

وقد بدا الدكتور (ضيف) فى كتابه هذا مناقضا نفسه فى تقويمه مدرسة الكوفة النحوية ، وكان في كتابه هذا مع (فايل) ، لم ير فى مدرسة الكوفة اصالة ، ولا اعتد بمذهبها النحوى الذى نافس بقوة مذهب البصريين وفعل ما فعله (فايل) فأرجع مقومات الدرس الكوفى الى نحوى بصرى كان فى رأيه هو صاحب التأثير الموجه فى الدارسين الكوفيين فى بغداد ، الا انه خالف (فايل) فلم يذهب الى ان يونس بن حبيب هو ذلك الرجل ، بل لقد عاب على (فايل) رأيه في تأثير يونس في الكوفيين لاتفاقه معهم فى بضع مسائل « وهى لا تعدو اربعة آراء »(٤٧) ٠

البصري الذي يرى الدكتور (ضيف) انه الموجّه والمؤثر في الكوفيين هو الأخفش سعيد بن مسعدة صاحب سيبويه وتلميذه ، فقد زعم ان الاخفش هو الذى مهد لنشأة مدرسة الكوفة والمدارس المتأخرة المختلفة ، فقد كان – على حد زعمه – اكبر ائمة البصريين بعد سيبويه ، وهو الذي جرّأ النحاة من بعده على تخطئة سيبويه ، او «فتح ابواب الخلاف عليه»(٤٨) ٠ او الذى « فتح للكوفيين ابواب الخلاف على سيبويه واستاذه الخليل بما بسط من

(٤٧) المدارس النحوية ٩٥ ٠

(٤٨) المدارس النحوية ٩٥ ٠

وجوهه »(٤٩) ، والذى تلمذ له الكسائى والفراء وتابعاه فى كثير من آرائه التى خالف فيها سيبويه والخليل ٠

ولابد للدكتور (ضيف) بعد ان رتب هذه المقدمات أن يصل الى مثل ماوصل اليه «قايل» من قبل ، فكان الاخفش في رأيه هو صاحب التأثير في الكوفيين ، وهو الذى اوحى للكوفيين اتجاهات المذهب الكوفى ، وهو الذى اعد بما تلقاه الكوفيون عنه من آراء واقوال لنشأة مدرستهم ، فهو بحق «الاستاذ الحقيقى للمدرسة الكوفية»(٥٠) ، او هو«الامام الحقيقى للكوفيين ومدرستهم»(٥١)٠

وكان سبيله الى هذا الزعم هو موافقته الكوفيين فى ثلاثين مسألة من مسائل الخلاف التي تضمنها كتاب (الانصاف) « واذا كان (قايل) لاحظ ان بعض الكتب النحوية ذكرت اتفاق يونس والكوفيين فى مسائل لا تعدو اصابع اليد الواحدة فقد مر بنا فى ترجمة الأخفش انفاق الكسائى والفراء الكوفيين معه في نحو ثلاثين مسألة » (٥٢) ، وكأنّ هذا الاكتشاف انتصار للفكرة التي طلع بها على «قايل» الذي قنع باتفاق يونس مع الكوفيين في مسائل لا تعدو اصابع اليد الواحدة ٠

اذا صار الأخفش امام الكوفيين باتفاقه معهم فى نحو ثلاثين مسألة فمن امامهم فى الاحدى والتسعين مسألة التى نهضوا بعبء المخالفة فيها دون توجيه من الاخفش ؟! وليس هذا العدد هو كل ما خالف الكوفيون البصريين فيه فمسائل الخلاف كثيرة ولم يحط بها الأنبارى ولا غيره ، ولم يقل الأنبارى انها كل مسائل الخلاف بل قال : هى مشاهيرها ، كما جاء فى مقدمته لكتابه ، وفى كتب النحو مسائل لا يسهل عدها كان الكوفيون يخالفون فيها البصريين. ولم يكن للأخفش مشاركة فيها ٠

---

(٤٩) المدارس النحوية ٩٦ ٠

(٥٠) المدارس النحوية ٩٦ ٠

(٥١) المدارس النحوية ٩٦ ٠

(٥٢) المدارس النحوية ١٥٦ ٠

ويبدو لى ان (قايل) كان اقوى حجة من الدكتور (ضيف) وان كان عـــدد المسائل التى استند اليها فى تأثير يونس فى الكوفيين لا تعدو اصابع اليـــد الواحدة ، لأن شخصية يونس النحوية لا تدانيها شخصية الأخفش ، فيونس استاذ سيبويه ، وآراؤه التى نقلها سيبويه وحده آراء لم تكن لتصدر الا عن فحوى له مذهب تفرد فيه فعلا ٠ اما سعيد بن مسعدة الاخفش فلا يسمح ماضيه في النحو خاصة ان يتخذ له مـــكانا في المؤسسين ، او الملهمين او الائمـــة ، بالرغم من كثرة ما نسب اليه من اقوال وآراء فى كتب النحو ٠

على ان الدكتور(ضيف)مالبث ان ناقض نفسه ، فحين ترجم الكسائي قال جازما: « لا ريب فى ان الكسائى يعد امام مدرسة الكوفة ، فهو الذى وضع رسومهـــا ووطأ منهجها »(٥٣) ، وحين ترجم للفراء قال جازما ايضا : « ان الفراء يقـــوم فى الكوفة مقام سيبويه فى البصرة ، فهو الذى اعطى المدرسة الكوفية تشكّلها النهائى الا بعض اضافات زادها الكوفيون بعده وفى مقدمتهم ثعلب »(٥٤) ٠

فاذا كان الكسائى هو الذى وضع رسوم المدرسة ، ووطأ منهجها ، والفراء هو الذى اعطى المدرسة طابعها المتميز فماذا بقي للأخفش الذى قدر لـــه ، على يد الدكتور ضيف ، أن يحتل مكانا لم يؤيده ماضيه فى اعلام فـــى احتلالـــه ؟!

واذا فطن الدكتور (ضيف) لاتفاق وجهة نظره من بعض المسائل مع وجهة نظر الكوفيين فقد فاته ان يفطن انه لم يكن شيئا عند سيبويه ، ولا عنـــد تلاميذه ، ولم يسمع له رأى فى مسألة نحوية قبل وفاة سيبويه ، او وجهـــة نظر نحوية قبل وروده بغداد ٠

وقد روي عن ابى عثمان المازنى انه قال : «حدثنى الأخفش قال : حضرت مجلس الخليل فجاءه سيبويه فسأله عن مسألة ، وفسرها له الخليل فلم افهـم

(٥٣) المدارس النحوية ١٧٥ ٠
(٥٤) المدارس النحوية ١٦٥ ٠

ما قالا ، فقمت وجلست له في الطريق ، فقلت له : جعلني الله فداءك . سألت الخليل عن مسألة فلم افهم ما رد عليك ففهمنيه ، فاخبرني بها فلم تقع لي ولا فهمتها ، فقلت له : لا تتوهم اني اسألك اعناتا فاني لم افهمها ، ولم تقع لي ، فقال : ويلك : ومتى توهمت اني اتوهم انك تعنتني ؟!»(٥٥) . كما روي ايضا ان الأخفش جاء سيبويه يوما يناظره « فقال له الأخفش : انما ناظرتك لأستفيد منك . فقال سيبويه : اتراني اشك في هذا ؟ »(٥٦) .

وروى ايضا « ان ابا عمر الجرمي وابا عثمان المازني ، وكانا رفيقين ، توهما ان ابا الحسن الأخفش قد هم ان يدعي (الكتاب) لنفسه ، فقال احدهما للآخر : كيف السبيل الى اظهار الكتاب ، ومنع الأخفش من ادعائه ؟ فقال له : ان نقرأه عليه . فاذا قرأناه عليه اظهرناه واشعنا انه لسيبويه فلا يمكنه ان يدعيه ... وشرعا في القراءة عليه ، واخذا الكتاب عنه ، واظهرا انه لسيبويه ، واشاعا ذلك فلم يمكنا ابا الحسن ان يدعي الكتاب »(٥٧) .

وهذا ابو حاتم سهل بن محمد السجستاني ، وهو احد تلاميذ الاخفش ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، كان لا يرى في الأخفش ، وهو يعاصره ما يراه الدكتور (ضيف) في هذا العصر ، فقد كان أبو حاتم يتهم الأخفش بوضع كتابه في القرآن على كتاب ابي عبيدة(٥٨) . ويظن ان الأخفش كان قد وضع كتابه في النحو من كتاب عليّ الجَمَل(٥٩) ، وهو نحوي من المدينة .

ولا ريب أن نظرة الأخفش الى نفسه فيما حكاه المازني ، ونظرة الجرمي والمازني فيما حكي منها ، ورأي أبي حاتم فيه وفيما صنف في القرآن والنحو

(٥٥) معجم الادباء ١٦/١٢٦ .
(٥٦) أخبار النحويين البصريين ٤٩ . نزهة الالباء ٧٨ ، ٧٩ .
(٥٧) معجم الادباء ١١/٢٢٦ . نزهة الالباء ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٥٨) طبقات النحويين واللغويين ٧٤ .
(٥٩) مراتب النحويين ١٠٠ . طبقات النحويين واللغويين ٧٥ .

يجعل موقف الدكتور (ضيف) برفعه الأخفش الى مكان المؤسسين الموجهين حرجا ضعيفا •

يؤيد ما قيل عنه أن الذين ترجموا له لم يذكروا احدا من شيوخ النحو باسمه كان الأخفش قرأ عليه النحو ، وكل ما قالوه هو أنه « لقي من لقيه سيبويه من العلماء »(٦٠) ، أو « اخذ عمن اخذ عنه سيبويه »(٦١) •

ولكن سيبويه كان قد لقي الخليل ، وتلمذ له ، واكثر من الأخذ عنه ، ولم يأخذ الاخفش عن الخليل شيئا (٦٢) ، فاذا لم يأخذ الاخفش عن الخليل فعمن اخذ ؟ ومن النحوي الذي تلمذ له الاخفش ، واستكثر عنه ، ووصل به الى ان يكون اعلم الناس ؟

تذكر بعض كتب الطبقات التى بين أيدينا انه اخذ عن ابى مالك عمرو بن كركرة النميرى (٦٣) ، ولم يقع لي ان ذكر غيره ، وابو مالك هذا هو احد فصحاء العرب الذين سمع منهم العلماء ، وقد ذكره ابن النديم في فصحاء العرب المشهورين الذين سمع العلماء منهم(٦٤) ، وهذا يعنى انه اخذ عنه اللغة، أما النحو فلا ، لأن النميرى لم يكن من النحاة •

اما قولهم انه اخذ عمن اخذ عنه سيبويه ، أو لقي من لقيه سيبويه من العلماء فقول مُبْهَم" لا يعني شيئاً ، لأ الذين لقيهم لم يكونوا ذوى تأثير في سيبويه • والأخفش لم يأخذ عن الخليل ، ولم يفد منه شيئا ، لانه « كان مع الخليل فى بلد واحد فلم يحك عنه حرفا واحدا»(٦٥) •

(٦٠) اخبار النحويين البصريين ٣٩ •
(٦١) معجم الادباء ١١/٢٢٥ •
(٦٢) مراتب النحويين ٦٨ •
(٦٣) مراتب النحويين ٦٨ • انباه الرواة ٢/٤٠ •
(٦٤) الفهرست ٦٦ •
(٦٥) الخصائص ٣/٣١١ •

اما ما قيل من أنه تلمذ لعيسى بن عمر بقرينة نقله عنه ، او سماعه منه فلا يعنى شيئا ايضا ، لان حدود عيسى بن عمر فى علمه لا تتجاوز حدود طبقته ، ولو كان علم عيسى بن عمر فى النحو مما جعل الأخفش يستكثر عنه ، ويكون أعلم الناس لما كانت نقول سيبويه عنه لا تكاد تتجاوز العشرة ، ولما انقطع سيبويه عنه الى مجلس الخليل اذا ثبت حقا أنه تلمذ له .

أما الاخبار التى تروى انه صار اعلم من سيبويه بما فى الكتاب بعد ان كان سيبويه اعلم به منه فصادرة عن الاخفش نفسه . فقد قال الرياشى : « حدثنى الأخفش قال : كان سيبويه اذا وضع شيئا من كتابه عرضه على ، وهو يرى انى اعلم به منه ، وان كان اعلم منى ، وانا اليوم اعلم منه »(٦٦) .

ولا يسع الدارس الا أن يرد هذه القولة ، ويشك فى صحة هذا الزعم ، لان ذلك يتعارض مع ما رواه ابو عثمان المازنى عنه مما سبق ذكره ، ولان تلاميذه ومعاصريه لم يروا فيه هذا ، بل لم يروه فى النحو شيئا .

واما تلمذة الكسائى والفراء له فليس فى حياة الأخفش العلمية ما يؤيدها ، وليس ما استمسك به القائلون بهذه التلمذة الا روايات غامضة مصدرها الأخفش نفسه ، ويبدو عليها الافتعال ، لانها اطلقت مجملة لايهام الدارسين بأنها واقع ، ولصرفهم عن الدرس الكوفى والغض من شأنه ، ولم تبين الروايات كيف كانت تلك التلمذة ، ولا ما أفاده الكسائى والفراء منها . وكل ما جاء فيها مزاعم لا تكاد تخفى التعصب الذى كان منطلق تلك الروايات .

يبدو مما حدّث به الأخفش نفسه أيضا أن أتصاله بالكسائي واصحابه انما انما كان فى بغداد ، وقد ورد الأخفش بغداد طلبا للرزق وان كان كلامه يلمح انه وردها ليثأر لسيبويه بعد فشله فى المناظرة التى حدثت فى بغداد بينه وبين الكسائى .

(٦٦) مراتب النحويين ٦٩ .

ومهما تكن الدوافع التي دفعت الاخفش الى الاقامة في بغداد فان الكسائي قد استطاع بعلمه وكفاءته ولباقته أن يغطي على شخصيته ، وأن يضمه الى اصحابه وان يستدرجه الى تأديب أولاد له ، ثم يجري عليه مقدارا من المال ، وقد مال الاخفش اليه فعلا ، وعاش في كنفه . وقد تحدث الاخفش عن نفسه فقال : « لما ناظر سيبويه الكسائي ورجع وجه الي فعرفني خبره معه ، ومضى الى الاهواز فوردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي فصليت خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته وقعد وبين يديه الفراء والاحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مئة مسألة فأجاب بجوابات خطأته في جميعها فأراد أصحابه الوثوب علي فمنعهم ، ولم يقطعني مارأيتهم عليه عما كنت فيه ، فلما فرغت قال لي : أما انت ابو الحسن سعيد بن مسعدة ؟ قلت : نعم . فقام الي وعانقني ، وأجلسني الى جانبه ، ثم قال : لي أولاد ، وأحب أن يتأدبوا بك ، ويتخرجوا عليك ، وتكون معي غير مفارق لي فأجبته الى ذلك » .

لقد التحق الاخفش فعلا بأصحاب الكسائي ، وانطوى في كنفه ، وطغت عليه شخصية الكسائي حتى كاد لايذكر من المواقف مايتناسب مع مزاعمه ومزاعم البصريين الا أخبارا قليلة كان أكثرها صادرا عن الكوفيين ، فقد روى ثعلب عن سلمة عن الفراء عن الكسائي أنه قال : « لم يكن في القوم – يعني البصريين – أعلم من الاخفش ، نبههم على عوار الكتاب وتركهم . يعني كتاب سيبويه» (٦٧) . وحكى ثعلب أيضا « ان الفراء دخل على سعيد بن سالم فقال : قد جاءكم سيد أهل اللغة ، وسيد أهل العربية فقال الفراء : أمّا مادام الاخفش يعيش فلا»(٦٨) وكان ثعلب يفضله ، « وكان يقول : هو أوسع الناس – ولعله يعني البصريين – علما » (٦٩) .

(٦٧) مراتب النحويين ٦٨ .
(٦٨) معجم الادباء ٢٢٧/١١ .
(٦٩) نزهة الالباء ١٨٧ .

اذ كان هذا من قول ثعلب فلا أظنه يعني الناس جميعا كوفيين وبصريين ولا سيما الفراء الذي قال ثعلب فيه : « لولا الفراء لما كانت اللغة ، لانه حصلها وضطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية ، لانها كانت تتنازع ، ويدعيها كل من أراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب » (٧٠) . وأكبر الظن أنه احتذى الكسائي فيما حكى عنه فلم يقصد بالناس غير البصريين .

ومن المستغرب أن تصدر هذه الاقوال عن ثعلب الذي لم يكن يرى البصريين شيئا ومن المستغرب أيضا أن يكون الفراء نفسه يشيد بعلم الاخفش في اللغة والعربية ، وهو الذي لم يكن يرى سيبويه شيئا ، لانه فيما زعموا ، كان « على تيه وعجب وتعظم وكان زائد العصبية على سيبويه » (٧١) .

ولو كان الفراء يرى في الاخفش ماصورته الرواية لكان الاخفش من مصادره في اللغة والعربية ، ولكن الدارس لايرى في مصنفات الفراء ذكرا للاخفش ولا اشارة اليه .

وليس ببعيد الاحتمال أن تكون هذه الاقوال مما افتعل على ثعلب ، افتعلها تلاميذ المبرد الذين تعصبوا للبصريين على الكوفيين . أو مما قاله ثعلب فعلا لانه من مذهبهم ، ومخالفته سيبويه في بعض المسائل التي خالفوه هم فيها متابعة لهم ، وتقربا اليهم .

أما القصة التي حكاها عن نفسه ووصف فيها وروده بغداد ، ومساءلته للكسائى أن يلازمه ، ويؤدب أولاده فهو مدع غال فيما حكاه من سؤال الكسائى بعد الفراغ من الصلاة عن مئة مسألة خطأه في جواباته كلها ، لان مثل هذا بعيد الوقوع ، والا كان على غير الحال التي آل اليها أمره . لقد جاء الى بغداد ــ كما قالت القصة ــ ليثأر لسيبويه ، ومن كان هذا قصده لم يضعف ، كما فعل

(٧٠) نزهة الالباء ١٢٧ .

(٧١) بغية الرعاة ٢/٣٣٣ .

حين لوح له الكسائي بالزلفى التي منحه اياها ، وبالجراية التي أجراها عليه ولم يكن الكسائي ، اذ ضمه الى أصحابه ، ليأخذ عنه ، ولا ليفيد منه ، ولكن ليؤدب أولاده ولو كان الاخفش على ما ادعى لكان للكسائي معه موقف آخر . ولكنه رضي من طلب الثأر بالانضمام الى أصحابه ، ومن فرض شخصيته العلمية بقيامه بتأديب أولاده ، ويبدو أن الاخفش كان قد مهر في هذا فقد كان يذهب الى التكسب .

أما تلمذة الفراء له فأبعد احتمالا ، وذلك أن الاخفش الذي زعم أنه اقرأ الكسائي الكتاب سرا (٧٢) ، لم يقل ذاك ولم يلمح اليه في الفراء وكل ماقاله أنه : « لما اتصلت الايام بالاجتماع سألني - يعني الكسائي - أن أؤلف له كتابا في معانى القرآن ، فألفت كتابي في المعاني ، فجعله اماما ، وعمل عليه كتابا فى المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعانى عليهما » (٧٣) .

لو كان الاخفش صادقا فيما ادعى لرأينا له أثرا فيما أملى الفراء من معاني القرآن ، ولكان الاخفش أحد من كان الفراء يروي عنهم فيه ، أو يروي لهم ، وما عهدنا الفراء الا ثقة أمينا فى كل ماروى وحكى وحدث .

أما العربية فلم يزعم أحد حتى الاخفش أن الفراء تلمذ له فيها . لان الفراء اذ ذاك كان يهيىء نفسه للرئاسة بعد الكسائي ، لم يزعم ذاك حتى أشد المتعصبين على الفراء .

فتلمذه الفراء للاخفش تفتقر الى الدليل ، وهو مالم يتيسر للزاعمين ، ولن ينقض رئاسة الفراء في العربية في بغداد أنه وقف على كتاب سيبويه ولازمه (٧٤) ، فكتاب سيبويه كتاب البصرة ، وخلاصة علم الخليل ، ولابد للدارس الحاذق أن يقف عليه ، وعلى مافيه من آراء ، واذا صح أنه كان ملازما

---

(٧٢) معجم الادباء ١١/٢٢٩ . مراتب النحويين ٧٤ .

(٧٣) انباه الرواة ٢/٣٧ .

(٧٤) مراتب النحويين ٨٧ .

للكتاب فليس في ذلك مايغض من شأنه ، لانه لم يتعلم العربية به فهو فيها رئيس لاينازع ، وقد خالف على سيبويه كثيرا « وكان زائد العصبية عليه » (٧٥) ٠

لم يجهل الدكتور (ضيف) شيئاً مّما عرضت ، فقد قيل ذلك كله ، ودُوّن ، وتناقلته أفواه الرواة وكتب الطبقات ، ولاشك أنه كان قد وقع له ، ووقف عليه، ولكنه لم ينفعه فيما خطط له ، فلو أخذ به لما كان لتأليفه (المدارس النحوية) فائدة ، ولا لاستنتاجاته في فصوله معنى ، ولما تسنى له أن ينعم بالمخالفة لمجرد أنها مخالفة ٠

(٧٥) مراتب النحويين ٨٧ ٠

تلاميذ ثعلب والمبرّد

شهدت بيئات الدرس في بغداد بعد ثعلب والمبرد جيلا من الدارسين اتسموا بالتحرر من العصبية المذهبية ، وشغلتهم الحياة الجديدة عن الخصومات القديمة ، فلم يتحرّجوا في الاخذ عن البصريين ولا عن غيرهم ، ولم يتوانوا عن الافادة من الثقافات المختلفة الوافدة من هنا وهناك ، لان الاذهان كانت اوسع أفقا ، واكثر انفتاحا ، وأوعى للافكار الجديدة ، وأبعد ماتكون عن التعصب الذي اتسمت به أذهان البصريين الذين وجدوا آباءهم على أمة فلم يحيدوا عن آثارهم ، ولا رأوا فيما وراء دائرتهم علما يعتد به ، أو درسا جديرا بالعناية .

فبغداد في نظر المتزمتين من البصريين « مدينة ملك ، وليس بمدينة علم ، وما فيها من العلم فمنقول اليها ، ومجلوب للخلفاء وأتباعهم ورعيتهم ، ونيتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة ، لان العلم جد ، وهم قوم الهزل أغلب عليهم ، واللعب أملك لهم » (١)

والدارسون في بغداد في نظر المتعصبين منهم « حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به من كلام العرب ، ولا من يرتضي روايته ، فان ادعى أحد منهم شيئا رأيته مخلطا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة ، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو ، وبين الرواسي والكسائي ، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة ، ويتحفظ أحدهم مسائل من النحو بلا علل ولا ولا تفسير » (٢) .

---

(١) مراتب النحويين ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه .

غير أن الحياة الثقافية في بغداد كانت تستعصي على فهم أبي الطيب اللغوي ، فلم ير فيها علما ، ولم يجد في نية البغداديين قوة ، لان العلم جد والقوم عنده هازلون ·

وكانت بغداد اوسع من أن يحيط بها ادراك أبي حاتم ، فلم ير فيها في الدارسين على اختلاف تخصصاتهم ، وتنوع مهاراتهم الا مخلطين أصحاب تطويل وكثرة كلام ومكابرة ·

ولكن الحياة الثقافية ظلت تنمو وتزدهر ، وتتسع وتتعمق ، وابو حاتم وابو الطيب اللغوي من بعده ظلا يعانيان جدبا وجمودا وضيقا وضحالة ، ولم يبق في أيديهما لمواجهة الجديد الا التحامل ونفث الحقد والتعصب ، فكان نصيب الفراء واصحابه من أبي حاتم ان يوسموا بميسم التخليط والمكابرة ، ومن نصيب ابن قتيبة من أبي الطيب اللغوي أن يوصف بأنه كان يخلط بالحكاية عن الكوفيين « ويتسرع في أشياء لايقوم بها » ، ويصف كتبه ، وفيها : أدب الكاتب ، وعيون الاخبار والمعارف ، والشعراء بأنها « مما أزرى به عند العلماء ، وان كان نفق بها عند العامة ومن لابصيرة له » (٣) ·

وكل ماعيب به على الفراء أنه خالف على البصريين ، و «تعمد الخلاف على سيبويه» ، واصطنع اوضاعا ومصطلحات ومسميات لم يألفها البصريون ، وكل ماعيب به على ابن قتيبة انه كان يحكي عن الكوفيين حكايات يزعم أبو الطيب أنه لم يكن اخذها عن ثقات» (٤) ·

وقد أدى ذلك الى أن يعيش الدارسون البصريون في عزلة ، وان يتحاموا الانفتاح لما يجري في غير بيئتهم ، لئلا يوسموا بالتخليط او يتهموا بالافساد ·

أما الدارسون في بغداد فحالهم مختلفة ، فهم أوعى للثقافات ، واكثر انفتاحا للافكار ، وأقل تحرجا في الاخذ والحكاية عن هذا الفريق او ذاك ·

وتمضي الاعوام ، ويمضي معها ثعلب والمبرد ، ويبقى جيل من الدارسين بعيد عن الخصومات ، لايرى في طلب العلم من بصري او كوفي حرجا ولايجد

---

(٣) مراتب النحويين ٨٥ ·

(٤) المصدر نفسه ·

في الحكاية عن كوفي غضاضة ، ولم يعدم أن يكون فيه من يواجه تعصب المبرد بما يجد منه ، كما كان من ابي الحسن بن كيسان مع المبرد ، فقد « كان ابن كيسان يسأل ابا العباس محمد بن يزيد المبرد عن مسائل فيجيبه ، فيعارضها بقول الكوفيين » (٥) .

لقد استرعى هذا الجيل الذي تلمذ لثعلب والمبرد انتباه الدارسين ، فرأوا فيه جيلا جديدا متفتحا ليس فيه تزمت البغداديين الاوائل ولا تعنت البصريين الاوائل ، ولا تعصبهم لاراء شيوخهم ، وكان هذا التفتح على ممثلي المذهبين وآرائهما لافتا انتباه ابن النديم خاصة فكان منه أن جعل رجاله فريقا ثالثا من الدارسين ، مميزا اياهم من رجال المذهب البصري ، ورجال المذهب الكوفي بأنهم خلطوا المذهبين ولم يعن ابن النديم بخلط المذهبين التلمذة للمبرد وثعلب ، بل كان يعني أنهم تحرروا من تزمت المتعصبين من الفريقين ، فلم يتحرجوا في الحكاية عنهما بآية أنه جعل ابن قتيبة الذى لم يأخذ عن ثعلب ولا عن غيره من البغداديين الكوفيين في مقدمة من خلط المذهبين ، لانه كان يحكي في كتبه عن الكوفيين .

ويمكننا أن نجعل أعلام هذا الجيل ثلاث طوائف :

الطائفة الاولى : جماعة من الدراسين لزموا ثعلبا ومذهبه ، وروجوا له ، ورعوه وانتصروا له .

والطائفة الثانية : جماعة من الدارسين لزموا المبرد ومذهبه ، وتعهدوه وانتصروا له .

والطائفة الثالثة : جماعة من الدارسين كانت تختلف الى ثعلب والمبرد ، وتتلمذ لهما ، وتستكثر عنهما .

---

(٥) مراتب النحويين ـ ترجمة الفراء ٨٨ . معجم الادباء ١٧/١٣٧ ، ١٣٨ .

اما الطائفة الاولى فمن أشهر اعلامها :

١ ـ أبو موسى الحامض ، سليمان بن محمد بن احمد (توفي سنة ٣٠٥ هـ) لزم أبا العباس ثعلبا ، وكان من اكابر اصحابه ، وألصقهم به ، وقد خلفه في الرئاسة ، وتصدر مجلس التدريس بعده ، وكان شديد التعصب على معاصريه من الدارسين الذين لازموا المذهب البصري ، واخذوا عن المبرد والزجاج وغيرهما .

كان ابو موسى من الشيوخ الذين كان الزجاجي كثيرا مايشير الى انه كان ممن جمع علم البصريين الى علم الكوفيين (٦) ، وكذلك فعل اصحاب الطبقات (٧) الا ياقوت فقد زعم أنه «كان جامعا بين المذهبين ، الكوفي والبصري» (٨)، ولعله تأثر ابن النديم في عد أبي موسى الحامض فيمن خلط المذهبين ، دون ان يذكر الذين اخذ عنهم من البصريين ، ولعل ابن النديم كان قد وهم فعده فيهم ، وما نسب اليه من رفض لمنع المصروف من الصرف اختيارا واضطرارا يوافق فيه جمهور البصريين (٩) ، لايعني انه كان يخلط المذهبين ، لانه اجتهاد من ابي موسى ، ووجهة نظر خاصة ، وليس من النادر ان يوافق كوفي بصريا في مسألة ليخالف اصحابه فيها ، كما ليس من النادر ان يوافق بصري كوفيا في هذه المسألة او تلك .

٢ ـ وأبو بكر بن الانباري ، محمد بن القاسم بن بشار (توفي سنة ٣٢٨هـ) أبرز تلاميذ ثعلب ، واوسعهم اطلاعا ، واغزرهم علما ، وقد جعله الازهري في عرضه لطبقات النحاة بوزن منافسه أبي اسحاق الزجاج ، بل يبدو من ثنايا

(٦) انظر : الايضاح في علل النحو ٧٩ .
(٧) طبقات النحويين واللغويين . انباه الرواه ٣/١٤١ . نزهة الالبا ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، و .. و ..
(٨) معجم الادباء ١١/٢٥٤ .
(٩) همع الهوامع ١/٣٧ .

حديثه انه كان يرجحه ، فقد كان « مقدما في صناعته ، معروفا بالصدق ، حافظا ، حسن البيان ، عذب الالفاظ ، لم يذكر لنا الى هذه الغاية من الناشئين بالعراق وغيرها أحد يخلفه ، أو يسد سده » (١٠) ٠

وكان ابو بكر بن الانباري من أعلم الناس في نحو الكوفيين ، ومن اكثرهم حفظا للغة ، وكان قد صنف في موضوعات شتى في علوم القرآن وفي الحديث ، وفي اللغة ، وفي النحو وفي الشعر(١١) ٠

ومن مصنفاته :

(رسالة المشكل) كان قد عملها للرد على ابن قتيبة وابى حاتم ، وهو كتاب فى تفسير المشكل فى القرآن ، وكان قد املاه وبلغ فيه الى سورة طه(١٢) ، وكان الازهرى يقول : « كان واحد عصره ، واعلم من شاهدت بكتاب الله ومعانيه واعرابه ، اختلاف اهل العلم فى شكله»(١٣) ٠

و (كتاب الاضداد) وهو مطبوع ، وابو بكر في هذا الكتاب كثير الرواية عن ابى العباس ثعلب ويعقوب بن السكيت وابن الأعرابى والفراء والكسائى، وبعض البصريين مثل ابى عبيدة والأصمعي ٠ وكان قد تصدى فى مواضع منه لتخطئة قطرب ، وابن قتيبة والرد عليهما ٠

من ذلك قوله : « انشدنا أبو العباس (يعنى ثعلب) وغيره :

وحديث ألذه هو مما تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

وقال : اراد (تلحن) تصيب وتخطىء ، واراد بقوله : (ما كان لحنا) : ما كان صوابا ٠ وقال ابن قتيبة : اللحن فى هذا البيت : الخطأ ، وهذا الشاعر

(١٠) تهذيب اللغة ١/٢٨ ٠
(١١) نزهة الالباء ٣٣٠ فما بعدها ٠
(١٢) المصدر نفسه ٠
(١٣) تهذيب اللغة ١/٢٨ ٠

استملح من هذه المرأة ما يقع في كلامها من الخطأ . قال ابو بكر : وقوله عندنا محال ، لان العرب لم تزل تستقبح اللحن من النساء كما تستقبحه من الرجال ، ويستملحون البارع من كلام النساء كما يستملحونه من الرجال » (١٤) .

ومن ذلك قوله : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد خذمت النعل ، اذا انقطعت عروقها وشسعها ، واخذتها أذا اصلحت عروقها وشسعها . وهذا ليس عندى من الاضداد ، لان (خذمت) لا يقع الا على معنى واحد ، وكذلك ولفظ (اخذمت) يخالف لفظ خذمت) ، وما لم يعبر الا عن معنى واحد بلفظه لا يكون من الاضداد »(١٥) .

ويبدو أن أبا بكر الأنبارى كان من المرموقين فى سعة علمه ، وكثرة حفظه، وكان قد شهد عنفوان العصبية المذهبية ، واضطر الى مواجهتها ، وكان المعاصرون من اتباع المذهب البصرى يحاجونه فى كثير من الاصول الكوفية ، فزعم الزجاجي انه كان يصطنع فى احتجاجه اسلوب البصريين ، ويدفع منطق البصريين ، ويناظر خصومه بمثل اساليبهم فى المناظرة ، وربما اضطر الى ان يحكى عن الفراء وغيره ، لم يقولوه من تعليلات وتفسيرات ، غير أن لم يحذق الجدل حذق البصريين ، ولا مهر فيه مهارتهم .

وقد ذكر الزجاجي بعض ما كان يجرى بينه وبين ابى بكر ، ومن ذلك ما جرى بينهما من مساءلة عن اصالة الفعل او المصدر ، وكان ابو بكر يحتج لاصالة الفعل بمثل الاسلوب الذى كان الزجاجي يحتج به لاصالة المصدر ، وذكر الزجاجي لأبى بكر بن الخياط ما جرى بينه وبين ابى بكر فى هذه المسألة ، فقال ابن الخياط : « هذه اشياء يولدها من عنده على مذاهب القوم ليست محكية عن الفراء ، ولا موجودة فى كتبه ، ولكنها مما يرى انها تؤيد المذهب وتنصره »(١٦) .

(١٤) الاضداد ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(١٥) الاضداد ٣٧١ .

(١٦) الايضاح فى علل النحو ٦٣ .

ولابى بكر بن الانبارى آراء تتناقلها كتب النحو ، لم تخرج عن الحدود التي رسمها شيوخه مؤسسو هذا المذهب من اعتداد بالنقل واعتماد لا يحد على القراءات .

من ذلك : ذهابه الى عدم اشتراط الاتفاق فى المعنى فى التثنية والجمع ، وذلك « لوروده في قوله تعالى : واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق . ومن قوله صلى الله عليه وسلم : الأيدي ثلاث ، فيد الله هي العليا ، ويد المعطي، ويد السائل السفلى ، وقول العرب : القلم احد اللسانين » [17] .

٣ ـ وأبو عمر الزاهد ، محمد بن عبدالواحد (توفى سنة ٣٤٥ هـ) . كان من تلاميذ ثعلب المقربين حتى عرف بغلام ثعلب . وقد اضطربت الآراء فيه ،فهى بين موثق ومضعف ، فبينما يشيد ابن برهان بعلمه ويرى انه اعلم من تكلم فى العربية اذ بالخطيب البغدادى يزعم ان جماعة من اهل الادب يطعنون عليه ، ويقولون : لو طار طائر فى الجو لقال : حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابى ، غير ان المحدثين يوثقونه » . وكان التنوخي يقول : « لم يُرَ قط احفظ منه»[19].

ولابى عمر مصنفات فى اللغة والنحو منها : المداخل فى اللغة ، وشرح الفصيح ، واليواقيت . وتفسير اسماء الشعراء ، وفائت الجمهرة . وفائت العين . وغريب الحديث ، والنوادر او كتاب العشرات .

لازم ابو عمر ثعلبا واستكثر عنه ، وكانت عامة الحكاية فى كتاب (المداخل في اللغة) عن ابي العباس ثعلب .

واخذ عنه أبو على محمد بن الحسن الحاتمى الأديب الكاتب اللغوى ، وأبو الطيب عبدالواحد بن على اللغوى الحلبى صاحب كتاب شجر الدر الذى

---

(١٧) همع الهوامع ١/٤٣ .
(١٨) تاريخ بغداد ٢/٣٥٧ . معجم الادباء ١٨/٢٢٧ . نزهة الالباء ٣٦٤ .
(١٩) معجم الادباء ١٨/٢٢٦ .

سلك فيه مسلك شيخه ابى عمر فى كتابه (المداخل) ، وابو القاسم عبدالواحد ابن على بن برهان الأسدى .

سمع الخطيب البغدادي ابن برهان هذا يقول : « لم يتكلم فى علم اللغة احد من الاولين والاخرين احسن من كلام ابي عمر الزاهد » (٢٠) .

وسمع الخطيب « غير واحد يحكى عن ابى عمر الزاهد ان الاشراف والكتاب واهل الادب كانوا يحضرون عنده ليسمعوا كتب ثعلب وغيرها »(٢١) .

اما تضعيفه ، واتهامه بالكذب ، واختلاق الحكايات التى تغمزه فنقوض بما سمعه الخطيب من مشايخه ، وبما حكاه عن تلاميذ ابى عمر وهم اعلام موثقون .

ولابى عمر اقوال تتناقلها كتب النحو وهو فى نحوه ولغته كوفىأصيل.

ومن آرائه فى النحو : ذهابه الى جواز حركة حرف المعرب لغير جزم ، نحو (يأمركم) وتابعه ابن مالك فى هذا ، وقال : « ان أبا عمرو حكاه عن لغة تميم ، وخرج عليه قراءة «وبعولتهن أحق» بسكون التاء » ٢٢) ، وهذا هو مذهب الفراء فى جواز حذف حركة يفعل) لغير جزم تخفيفا .

ومنها : الغاء (عسى) فقد حكى قولهم : «عسى زيد قائم » ، وقد تمسك بحكايته بعض النحاة فخرجها على اسناد (عسى) ضمير الشأن (٢٣) .

وبأمثال هؤلاء الدارسين امكن للمذهب الكوفى البغدادى ان يواصل مسيرته ، ويحتفظ بحيويته ونقائه على تعاقب العصور ، وتفاوت الآفاق .

واما الطائفة الثانية فمن اشهر اعلامها :

١ ـ أبو اسحاق ابراهيم بن السرى الزجاج (٢٣٠ـ٣١١ هـ) . كان

---

(٢٠) تاريخ بغداد ٢/٣٥٨ .

(٢١) تاريخ بغداد ٢/٣٥٦ .

(٢٢) همع الهوامع ١/٥٤ .

(٢٣) همع الهوامع ١/١٣٠ .

يشتغل بخرط الزجاج ، ليقتات ويقيت اسرته ، ويستعين بـه على طلـب العلـم شأنه فى ذلك شأن النابهين فى تلك البيئة الحضارية ٠

تلمذ لأبى العباس ثعلب عالم بغداد بالنحو واللغة والادب ، ووارث علـــم الفراء والكسائي ٠ وبقي ملازما ثعلب آخذا عنه نحو البغداديين الكوفيين،وعلمهم باللغة والنحو والأدب والشعر ٠

ثم ورد المبرد بغداد سنة ٢٤٧ للهجرة فارا من سامراء بعيد مقتل المتوكل وكان اذ ورد بغداد ورد بلدا « لا عهد له باهله ، فاختل وادركته الحاجـــة ، شهود صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة اقبل على بعض من حضره ، (وسأله) ان يفاتحه السؤال ليتسبب له القول فلم يكن عند من حضره علم ٠ فلمـــا رأى ذلك رفع صوته ، وطفق يفسر ، يوهم بذلك انه قد سئل » (٢٤) ٠ وقـد نجح فى ذلك ، واسترعى انتباه الدارسين اليه ، وأراد الزجاج ان يفاتشـــه ويعنته ، وكان ذلك اول اتصاله به ٠

حكى الخطيب عن ابى الحسن العروضى عن ابى اسحاق الزجاج انه قال : « كنت اقرأ على ابى العباس ثعلب ، واميل الى قولهم – يعنى الكوفيين – فعزمت على اعناته ، فلما فاتحته ألجمنى بالحجة وطالبني بالعلة ، وألزمني الزامـــات لم اهتد لها ، فتبينت فضله واسترجحت عقله ، وجددت فى ملازمته » (٢٥) ٠

وروى الزبيدى قصة انقطاع الزجاج عن ثعلب ولزومه المبرد بمثـل مـــا حكاه الخطيب ، ولكنه عزا مفاتشة الزجاج الى طلب ثعلب وزعم انه ذهب اليـــه مع هارون بن الحائك احد أصحاب ثعلب ، وبعد ان رأى الزجاج مـــن المبرد ما رأى اعتزم ملازمته ، والتلمذة له ٠ وأجرى على المبرد ثلاثين درهما فـــى الشهر هى ما كان يدخره من ايام عمله الخمسة من كل شهر لطلب العلم ،

---

(٢٤) طبقات النحويين واللغويين ١١٨ ٠

(٢٥) تاريخ بغداد ٣/٣٨١ ٠

ووافق المبرد بعد ان اشترط انقطاعه عن ثعلب ، واطراحه كتب الكوفيين . واذعن للأمر ، ولازمه حتى برع فى نحو البصريين ، ونبه ذكره فى اصحاب المبرد حتى كان المبرد لا يقرىء احدا كتاب سيبويه حتى يقرأه على ابراهيم ، ويصحح به كتابه » (٢٨) . وكان ذلك ايماء الى رئاسة ابي اسحاق بعد المبرد ، وكان أبو بكر مبرمان يقول ، فيما يروى الزبيدى عنه ، : « قصدت ابن كيسان لاقرأ عليه كتاب سيبويه . فامتنع وقال : اذهب الى أهله ، يشير بذلك الى الزجاج » ٢٧) . ثم آلت رئاسة النحو البصرى بعد المبرد الى الزجاج فعلا ، وكان من بعده مرجع الدارسين فى مذهب أهل البصرة فى النحو ، ولم يعده احد فيمن خلط المذهبين ، بل لم يذكر الا على انه امام المذهب واستاذ البصريين ، ولم تشفع له تلمذته لثعلب ليكون ممن خلط المذهبين ، ولا أخذه عن الرجلين ليكون احد رجال المدرسة البغدادية .

وهذا يؤكد أمرين :

اولهما : ان ابن النديم لم يكن ليعنى بمن خلط المذهبين ان يكون له مذهب ثالث ليس بالبصرى ولا بالكوفى ، ولو كان ذلك مما دار فى خلد ابن النديم لكان ابو اسحاق الزجاج عنده فى مقدمة الفريق الذى كان يخلط المذهبين ، ولكن ابن النديم لم يعده فيهم ، بل عده فى العلماء البصريين وفى اصحاب ابى العباس المبرد ، بل «اقدم اصحاب المبرد قراءة عليه » ٢٨) .

وثانيهما : ان الاساس الذى بنى عليه المحدثون فكرة المذهب البغدادى هو التلمذة لثعلب والمبرد ، والتعمق فى مصنفاتهما ومصنفات شيوخهما من البصريين والكوفيين ، وليس بين تلاميذ الرجلين من افاد منهما وتعمق فى مصنفاتهما ووقف على علم الكوفيين وعلم البصريين كابى اسحاق الزجاج .

(٢٦) طبقات اللغويين والنحويين ١١٩ .

(٢٧) طبقات اللغويين والنحويين ١٧١ .

(٢٨) فهرست ابن النديم ٩٠ .

ومع ذلك لم يكن الزجاج معدودا عندهم فى اعلام البغداديين ، وذلك يدل فى وضوح على ان الاساس الذى بنى المحدثون فكرتهم عليه متهافت لم يلبث ان انهـــار .

ولم أر احدا من الدارسين يعد الزّجّاج فى رجال المذهب البغدادى المزعوم غير هدى محمود قراعة ، فقد قدمت لكتاب (ما ينصرف ، وما لا ينصرف) للزجاج مقدمة سريعة عرضت فيها فكرة ان يكون الزجاج مؤسسا للمذهب البغدادى ، لانه كثيرا ما يتردد فى سمعها «ان المذهب البغدادى ما هـــو الا خلاصة المذهبين ، الكوفى والبصرى . ما هو الا ان يختار افضل ما فى المذهبين من آراء ليخلص لنا مذهب تتركز فيه الآراء المختارة ، ولن نرى اقدر مـــن الزجاج ولا افضل منه مؤسسا للمذهب البغدادى ، وواضعـــا نبتته الاولى ، فالزجاج قد جمع علم البصريين والكوفيين ... فاذا اضاف الى ذلك آراء انفـــرد بها وضح انه مؤسس المذهب البغدادى »(٢٩) .

بهذه السذاجة ارادت الدارسة هدى محمود قراعة ان تخوض فيما خاض فيه الدكتور الانصارى والدكتور ضيف من افتعال لمذهب ثالث ، وبهـــذه السذاجة ايضا فهمت ان جمع الآراء الى الآراء يؤلف مذهبا جديدا ، وان اضافــة آراء جديدة الى ما تلقاه من آراء الفريقين يقوى فكرة المذهب الثالث .

لو كانت الدارسة الفاضلة عنت ما قالت حقا لبينت لنا الآراء الكوفية التى اختارها الزجاج وجمعها الى الآراء البصرية ، لم تفعل شيئا من ذلك لانهـــا لا تملك شيئا من ذلك ، ولم تطلق الزعم اطلاقا الا تقليدا واتباعا .

كان للزجاج مكانة مرموقة فى الدارسين ، وقد تلمذ له اعلام الدرس فى القرن الرابع مثل ابى بكر بن السراج ، وابى القاسم الزجاجي ، وابى عـــلى الفارسى ، وابى جعفر النحاس ، وابى الحسن الرمّانى وابى بكر مبرمان وغيرهم .

(٢٩) ماينصرف وما لاينصرف ١٢ .

وله مصنفات كثيرة فى اللغة والنحو والصرف ، وفيما له صلة بهـــذه الموضوعات ٠

وهو بصرى المذهب ، يقيس ويعلل ويفترض ويصطنع الفاظ المتكلمـــين وعباراتهم ، وفى كتابه (ما ينصرف وما لا ينصرف) امثلة يفتح منها منهجـــه العقلى فى الدرس النحوى ٠

من ذلك قوله : «التنوين علامة لامكن الاشياء عندهم ، وقد يكون متمكن لا تنوين فيه ، فيترك التنوين فى المتمكن الذى هو ثقيل عندهم ، وذلك كـــل ما لا ينصرف غير منوّن ، ليفصل بين المستوفى التمكّن وبين النـــاقص التمكّن »(٣٠) ٠

وقوله فى تعليل امتناع الجر فيما لا ينصرف : « فاما الجر وهو الخفض فانما امتنع فيما لا ينصرف من قِبَل أنّ ما لا ينصرف فرع فى الاسماء ، كما ان الافعال فرع عن الاسماء ، لأن الاسم قبل الفعل ، فقد اشبه ما لا ينصرف الفعلَ فلا يكون فى انحاء اعرابه ما لا يدخل الفعلَ »(٣١) ٠

ومن ذلك تعليله انصراف ما زيد فيه الألف والنون فى النكرة ٠ فقـــد قال : « وانما انصرف فى النكرة لانه اشبه (سكران) فى الزيادتين ،وانحطعن باب (سكران) لانه ليس مثله فى الحركة والسكون ، وانه ليس لـه مؤنث على حـــدته »(٣٢) ٠

ومن ذلك اعتداده بالاجماع فى تثبيت حكم نحوى ، كقوله فى تعليل عـدم صرف ما كان على (افعل) صفة : «فاجماع النحويين انّ (افعل) ههنـــا لا ينصرف »(٣٣) ٠

---

(٣٠) ماينصرف وما لاينصرف – ص ١ ٠
(٣١) ما ينصرف وما لا ينصرف – ص ٢،١ ٠
(٣٢) ماينصرف وما لاينصرف ٣٦ ٠
(٣٣) ماينصرف وما لاينصرف ص ٦ ٠

وقوله : « وقد اجمعوا ان جميع ما لا ينصرف يصرف فى الشعر »(٣٤) ٠

ومن ذلك تمسكه بالاوضاع البصرية كالاوضاع التى يرددونها فى بـــاب ما لا ينصرف ، كالعدل ، وشبه الفعل ، وما لا ينصرف ، وتعليله منع الصرف بوجود علتين فرعيتين الى غير ذلك ٠

٢ ـ وابو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجى (توفى سنة ٣٣٧هـ) احد اعلام الدارسين ، وصاحب التصانيف وصاحب كتب (الجمل) الـذى لم يحظ كتاب فى النحو بمثل شهرته بعـــد كتاب سيبويه ، وبمثل ما اقبل عليه الدارسون قراءة وشرحا وتحليلا ٠

كان الزجاجى قد اخذ عن اعلام عصره وتلمذ لابى اسحاق الزجاج ، ولزمه واستكثر عنه حتى نسب اليه ، ولابى الحسن بن كيسان وابى بكر بن الخياط وابى بكر بن الأنبارى ، وعلى بن سليمان الاخفش وغيرهم ٠

وقد عُرِف الزجاجى فى كل ما كتب ناهجا نهج استاذه ابى اسحق فـى النزوع الى مذهب البصريين ، والاحتجاج له ، والرد على من خالفه من اتبـــاع مذهب الكسائي والفراء وثعلب ، وفي تصانيفه شاعت التسمية بالكوفي والكوفيين عَلَماً لاتباع ثعلب ويبدو ان هذه التسمية ظهرت ، اول ما ظهرت ، فيمجالس أبي اسحاق الزجاج ومصنفاته تمييزا له ولاتباعه من معاصريه تلاميذ ثعلب الذين لازموه وانتصروا لمذهبه ، ولم يظهر الى أنّ أحداً من الدارسين قبل الزجاج كـان يصطنع هذه التسمية ٠

وكان احتذاء الزجاجي استاذه في هذه التسمية واضحا حتى لايجد الدارس عنده تسمية غيرها لاتباع مشايخ بغداد الاولين ، وبالرغم من أنه كان قد تلمـذ لتلاميذ ثعلب ، واخذ عنهم ، ووقف على مذهب البغداديين بهـم ، سـواء مـــن خلص منهم لمذهب ثعلب ، مثل أبي بكر بن الانباري أم من تلمذ منهم لثعلـب

(٣٤) ماينصرف وما لاينصرف ص ٥٠ ٠

والمبرد ، وجمع علم البصريين الى علم الكوفيين ، مثل أبي بكر بن الخياط ، وأبي بكر بن شقير وعلي بن سليمان الاخفش وغيرهم .

واذا أردنا أن نتخذ من محض التلمذة للشيخين والوقوف على علم الفريقين أساسا للقول بالمذهب الثالث كان الزجاجي احد اعلام هذا المذهب ، لانه اخذ عن تلاميذ المبرد وتلاميذ ثعلب ، ووقف على علم البصريين وعلم الكوفيين ، غير ان هذه الفكرة بلغت من السذاجة حدا لاتجد معه في نفس الدارس الجاد قبولا .

وكان الدكتور مازن المبارك في كتابه (الزجاجي) حاول أن يطبق هذه الفكرة التي سبق اليها فلوگل وبروكلمان واحمد امين ومن تابعهم على مذهب الزجاجي في النحو ، فذهب الى مثل ماذهبوا اليه ، وقال : « والزجاجي واحد من هؤلاء الذين تلقوا علم البصرة والكوفة ، وبسطوا أقوال علماء المذهبين جميعا ، منتخبين منها مايرون أنه الحق ، وكان بعد ذلك اميل الى البصريين في آرائه وأحكامه ، وليس غريبا أن يكون الزجاجي بغدادي النزعة مع ميله الى الاخذ باقوال البصريين » (٣٥) .

وقد استخلص الدكتور المبارك هذا من أقواله في كتابه (الايضاح في علل النحو) ، وكان الزجاجي حقا لايخفي أنه انتفع باخذه عن علماء الكوفيين الا ان الذين اخذ عنهم علم الكوفيين طائفتان :

طائفة كان اول اعتمادها على علم الكوفيين ، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك ، فجمعوا بين العلمين ، وذكر منهم أبا الحسن بن كيسان وأبا بكر بن شقير وأبا بكر بن الخياط ، وابا الحسن علي بن سليمان الاخفش .

وطائفة كان اعتمادها على علم الكوفيين ، لم يجمعوا بينه وبين علم البصريين ، وذكر منهم أبا بكر بن الانباري وأبا موسى الحامض وابا الفضل

---

(٣٥) الزجاجي ـ حياته وآثاره ومذهبه النحوي ١٠ .

الملقب بزبيل وأبا محمد عبدالملك بن مالك الضرير · ولم يبد من مقالته أنه أفاد من هؤلاء كثيرا الا أبا موسى الحامض ، فقد ذكر أنه اخذ عنه حكايات يسيرة ·

ويبدو للدارس أن الدكتور المبارك تغافل عن مواقف الزجاجي من الكوفيين ومناظرته اياهم ورد مذهبهم بالمذهب الذي اتبعه وهو مذهب البصريين ، وباسلوبه في الاحتجاج والجدل · واغفل ان يذكر لنا رأيا كوفيا اختاره اللهم الا بعض الاوضاع والمصطلحات الكوفية التي رأى الزجاجي يصطنعها في كتاب (الجمل) ، ولا يعني اصطناع المصطلحات الكوفية أن يكون الزجاجي ممن خلط المذهبين ، واختار من أقوال علماء المذهبين مارأى أنه الحق ، لان كثيرا من المصطلحات الكوفية كانت قد شاعت في بيئات الدرس ، فلم يكن من السهل تجاهلها والاضراب عنها ، فقد جرى بها قلم الزجاج وابن السراج ، ولم يكن ذلك بمخرج اياهما عن دائرة المذهب البصري ، بل لم يكن اخذ ابن السراج ببعض الاراء الكوفية ، وحكايته عن الكوفيين بمخرج ابن السراج عن كونه أحد أتباع المذهب البصري ، ولم أر احدا من القائلين بفكرة المذهب الثالث من جعل ابن السراج واحدا من أتباعه ·

ولم يتغافل الدكتور المبارك عن ذلك حسب ، ولكنه رأى الزجاجي نفسه يسلك نفسه في البصريين حين كان يعبر عنهم بعبارة (أصحابنا) فلم يعره شيئا من اهتمامه ·

وأخشى ما أخشاه أن يكون الدكتور المبارك قد اوقع نفسه في تناقض لم يوقعه فيه الا تمحله في جعل الزجاجي بغدادي النزعة ، فعد الزجاجي نفسه في البصريين ، واصطناعه الجدل والاعتلال ، وفتحه ابواب الجدل على نفسه لايلتقي مع فكرة ان النزعة الكوفية تمثل الوجه الآخر لمذهبه النحوي ·

وليس عدم اغلاظه القول للكوفيين اذا رد عليهم مُخرِجاً اياه عن الخط المذهبي الضيق الذي اختاره استاذه أبو اسحاق الزجاج ، وتابعه الزجاجي فيه

أعني متابعته المحضة للمذهب البصري ، لان فتور التعصب على الكوفيين عند الزجاجي يرتبط بمزاجه لابنزوعه منازع البغداديين ، وكيف يكون الزجاجي بغدادي النزعة ، وهو لايفتأ يتحدث عن الكوفيين تحدث من لاصلة له بهم ، ويرد عليهم آراءهم في كل مسألة يعرض لها في (الايضاح) ، ويذكر البصريين على انهم أصحابه ؟ ألم يكن النص الذي نقله الدكتور المبارك عن (مختصر الزاهر ـ الورقة ١) : « وليست هذه المسألة مسطرة لاصحابنا في شيء من كتبهم البتة، وهي مسطرة في كتب الكوفيين » (٣٦) ، كافيا في الدلالة على ان الرجل اتهم بالنزعة البغدادية اتهاما ، ولم يشفع له عند من اتهمه انه جهر بالانتساب الى البصريين ، والنزوع الى مذهبهم ، وأنه ألف كتابا في العلل هو كتاب (الايضاح) ٠

وبعد ثماني سنوات من تأليف الدكتور المبارك كتابه (الزجاجي) يجيء الدكتور شوقي ضيف بكتابه (المدارس النحوية) ليردد ما قاله الدكتور المبارك، ويضفي عليه طابعا جديدا حتى لكأنه ابتداع لم يُسبَق اليه ٠

ويتحدث الدكتور ضيف عن الزجاجي ، كما تحدث عنه الدكتور المبارك الا بعض الاختلاف في اسلوب العرض ، فالزجاجي عنده من البغداديين ، ولكنه جعله آخر الجيل الاول منهم (٣٧) ٠

ولم يستطع الدكتور ضيف ان يُوفِّق بين ذهابه الى بغدادية الزجاجي ، ووصفه كتاب (الايضاح) بقوله : « ومن يقرأ الكتاب يرى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفقه ، او بعبارة ادق عللها جميعا تمس جوانب التعليل والاحتجاج فيه » (٣٨) ، ولم يشفع للزجاجي عنده ذلك ، ولا اصراره على أن « يسلك نفسه

(٣٦) الزجاجي ١٤ ٠

(٣٧) المدارس النحوية ٢٤٦ ٠

(٣٨) المدارس النحوية ٢٥٢ ، ٢٥٣ ٠

في البصريين » (٣٩) ، ولا معالجه الحجة الكوفية التي تنقصها الدقة المنطقية الشائعة في حجج البصريين « حتى تسبك في الصورة البصرية» (٤٠) ... لم يشفع ذلك كله للزجاجي عنده ليسلكه في اعلام المدرسة البصرية .

ان من حق الدارس أن يتوقع من الدكتور ضيف أن يبسط فكرته ، ويرسم خطوطها العريضة ، ويبين كيف يكون الدارس بصريا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار أسلوبه في الجدال والحجاج ، ومنطقيته في تناول الموضوعات بالدرس ، ولم نعتد بصريح انتسابه الى البصريين ومناهضته الكوفيين ، وتعصبه عليهم !

واما الطائفة الثالثة فتتألف من الدارسين الذين كان اعتمادهم اولا على الكوفيين ، ثم اخذوا عن البصريين ، فجمعوا علم البصريين الى علم الكوفيين ، وهم الذين كان ابن النديم وغيره يعدونهم في العلماء الذين خلطوا المذهبين .

واشهر اعلام هذه الطائفة : ابو الحسن بن كيسان ، وابو بكر بن الخياط، وابو بكر بن شقير وابو الحسن علي بن سليمان الاخفش ، الا أنهم ، في اكبر الظن ، لايمثلون اتجاها ثالثا مستقلا عن الاتجاهين الرئيسين ، البصري والكوفي ، ولم يحل جمعهم بين العلمين دون أن يسلكوا في احد الفريقين .

ويمكن للدارس أن يسلك بعضهم في الكوفيين ، وبعضهم فى البصريين ، وبين يديه من اقوال الدارسين القدماء ، وآراء الدارسين المحدثين مايؤيد ذلك .

ومن أجل أن يتضح الامر للدارس نتناول بالدرس ثلاثة من اعلام هذا الفريق ، ونقف على آراء القدماء فيهم ، وهم : ابو الحسن بن كيسان ،وابوبكربن شقير ، وابو الحسن علي بن سليمان الاخفش .

اما ابو الحسن بن كيسان فهو محمد بن احمد (توفي سنة ٢٩٩) كان من اوائل من تلمذ لثعلب ، ووقف على دقائق المذهب البغدادي ، وبعد ورود المبرد

(٣٩) المدارس النحوية ٢٥٥ .

(٤٠) المصدر نفسه .

بغداد ، واقبال الدارسين على مجلس المبرد كان ابن كيسان من اولئك الذين اختلفوا الى مجلسه واستكثروا عنه ، ولعل اسلوب الدرس عند المبرد ، وفي المصنفات النحوية القديمة كان قد راقه ، ووقع من نفسه موقعا حسنا ، لان ابن كيسان،فيما يبدو، كان من اولئك الدارسين الذين شغفوا بالثقافات الجديدةالتي اخذت منذ اوائل القرن الثالث تتلمس طريقها الى مجالس الدرس على اختلافها ، ووجد في منطق المبرد واسلوب تناوله موضوعات الدرس ما يتفق مع منازعه الفكرية ٠

وبعد المبرد وثعلب كان ابن كيسان في مقدمة الذين حفظوا المذهبين وألموا بأسلوبهما في الدرس ، ومعالجتهما موضوعاته ، وكان مرجع طلاب العلم الذين كانوا يريدون الوقوف على مذهب البغداديين الاوائل ، المذهب الذي أخذ ظله ينحسر عن مجالس الدرس بعد غلبة المذهب البصري . وكان الزجاجي يعده في مقدمة العلماء الذين كانوا قدوة اعلاما في علم الكوفيين (٤١) ، الا ان حفظ المذهبين ، والاخذ عن الشيخين لايؤلف مذهبا نحويا جديدا ، لان محض الوقوف على الآراء لايعني التأثر بها مالم يوافق ذلك هوى في نفس الدارس ، ومالم يكن اسلوبه في معالجة موضوعات الدرس متأثرا بها مطبوعا بطابعها ٠

والطابع العام للدرس عند ابن كيسان ، فيما يبدو من اقواله وتوجيهاته هو الطابع البصري المتأثر بأساليب المتكلمين والمحكم الاعتبارات العقلية في أصول الدرس النحوي ومسائله ، فقد كان ابن كيسان يعالج الدرس النحوي بمثل ماكان البصريون يعالجونه به ، وكان في تأليفه كتاب (المختار في علل النحو) الذي ذكره الزجاجي(٤٢) ، يبدو كمن يريد ان يفلسف النحو البصري،ويقوّم من مَيَله عند النظارة والحِجاج ، وكتاب المختار في علل النحو يان ابن كيسان

---

(٤١) الايضاح ٧٩ ٠

(٤٢) الايضاح ٥٠ ٠

صنفه في ثلاث مجلدات او اكثر(٤٣) ، ويدل اسمه على انه ليس كتابا في النحو، ولكنه في بيان علل النحو ٠

كان كتاب « المختار في علل النحو » فى اكبر الظن ، الصدر الذى صدر عنه الزجاجي في تصنيفه كتاب (الايضاح في علل النحو) ، وكان ملهم ابن جنى فى وضع كتابه (الخصائص) ، وجاء ابو البركات الانباري (توفي سنة ٥٧٧ هـ) فتابع ابن جنى والزجاجي وعمل كتابه (اسرار العربية) وكتابه (الاغراب فى جدل الاعراب) ، وكتابه (لمع الادلة) فظهر الدرس النحوي فيها هيكلا لاينطوي على حياة ، ولم يبق من الدرس النحوي فيها الا اسمه والا مصطلحات وعبارات ليس لها مدلول لغوي ، ومع ذلك يجيء باحث فى آخر الزمان فيبارك عمل الانباري ، ويحاول ان يقيل من عثراته ، ويسدد من خطواته فيقول : « نحن نعرف أن التطلع الى ان يكون للعربية علوم وقواعد وأصول على مثل ما للشريعة أمنية داعبت همم الكثير من العلماء منذ المئة الثانية للهجرة ، فمحاكاة اهل الحديث فى فن الرواية ، والعناية باسند معروفة ، وكذلك تقليدهم مدرسة الرأى في الفقه في تعليل الاحكام حدتهم على ان يجدوا لاحكام العربية عللا تشبه تلك من جهة ، وتشبه من جهة ثانية علل المتكلمين الذين اعتمدوا العقل والمنطق سلاحين في دعوتهم الى فلسفة العقيدة ، فكان للنحاة احتجاج بقواعد تشبه ما للمحدثين ، وقياس وعلل يشبهان ما للفقهاء والمتكلمين » (٤٤) ٠

وهو كلام لايصدر مثله عن دارس واع لطبيعة الدرس النحوي ، واذا كان للانبارى عذر في تصنيفه هذه الكتب بجهله طبيعة الموضوع والمنهج الذي يدرسه وفقه فما عذر دارس معاصر توافرت له مناهج الدرس الحديث ،ورسمت له خطوط الدرس اللغوي والنحوي بوجه خاص !

---

(٤٣) معجم الادباء ١٧/ ١٣٩ ٠

(٤٤) انظر ماقدمه الافغانى لكتابى الانبارى : الاغراب فى جدل الاعراب ولمع الادلة ،ص ١٩

وبتلمذة ابن كيسان لثعلب والمبرد ، وجمعه علم البصريين الى علم الكوفيين عدّه ابن النديم فيمن خلط المذهبين ، وقال عند ذكره اياه : « كان ابو الحسن فاضلا ، خلط المذهبين ، واخذ عن الفريقين » (٤٥) .

وسلكه أبو سعيد السيرافي في النحويين البصريين ، وفي أصحاب ابي العباس المبرد ، وكان يرى أن الرئاسة في النحو البصري آلت اليه والى أبي اسحاق الزجاج بعد المبرد ، فهو بصري المذهب وان كان يخلط المذهبين»(٤٦) .

وذكره ياقوت وقال : « كان يخلط المذهبين ، الكوفي والبصري في النحو، لانه أخذ عن المبرد وثعلب » ، وعقب على مازعمه ابو بكر بن مجاهد من ان ابن كيسان كان « أنحى من الشيخين ، يعني المبرد وثعلبا » ، فقال : « كان ، كما قال ، يعرف المذهبين الا أنه كان الى البصريين اميل » (٤٧) .

اما مؤلف «المدارس النحوية» فرأى من تلمذته للشيخين، وخلطه المذهبين تأييدا للفكرة التي دعا اليها ، ولكي يجعل من ابن كيسان نموذجا للدارسين البغداديين اخذ يتقوّل على الذين ترجموا له ، فزعم انهم يقولون : « انه مزج النحوين البصري والكوفي ، فاخذ من كل واحد منهما ماغلب على ظنه صحته واطرد له قياسه ، وترك التعصب لاحد الفريقين» (٤٨) .

غير ان المترجمين له لم يقولوا هذا ، وكل ما قالوه انه خلط المذهبين،لانه أخذ عن الشيخين ، اما انه كان يختار من الاراء من كل واحد منهما ماغلب على ظنه صحته ، واطرد له قياسه ، وترك التعصب لاحد الفريقين ، فزيادة وتلفيق من عنده ، طاويا الاشارة الى اختلاف القدماء فيه ، لكي تستقيم له الفكرة ، وتقوى له الحجة ، ولو رجعنا الى اقوال القدماء فيه لرأينا انهم اختلفوا في تقويم نزعته مذاهب شتى :

---

(٤٥) فهرست بن لنديم ١٢٠ .

(٤٦) انظر : أخبار النحويين البصريين ١٠٨ بيروت .

(٤٧) معجم الادباء ١٧/١٣٧ .

(٤٨) المدارس النحوية ٢٤٩ .

فالزبيدى يرى أنّ «ميله الى مذهب البصريين اكثر »(٤٩) ، ولكنه جعله فى الطبقة السادسة وهى طبقة اصحاب ثعلب(٥٠) ٠

والمرزبانى لم يضعه فى طبقة بعينها ، ولم يترجم له ، ولم يذكره الا فى ترجمة المبرد(٥١) ٠

وابن النديم يصفه فى جماعة من العلماء خلطوا المذهبين(٥٢) ٠

والزجاجى يذكره في العلماء الكوفيين ٠

والسيرافى يسلكه فى النحويين البصريين ، ويجعله فى طبقة اصحاب المبرد وان كان يخلط المذهبين ٠

وياقوت يرى انه كان يخلط المذهبين ، ولكنه الى البصريين اميل ٠

وقد اغفل الدكتور ضيف هذا كله وجعله على رأس البغداديين ، وراح يعرض آراء له وافق فيها البصريين ، وآراء اخرى وافق فيها الكوفيين ثم آراء اشتقها لنفسه(٥٣) ، ليخلص الى ان ابن كيسان كان المؤسس للمدرسة البغدادية ٠ ولا اظن منهج البحث يقر الدارس اى دارس على ان يترخص فى تشويه النصوص وتقطيعها ، واختيار ما يتلاءم من اجزائها مع الفكرة التى يدعو اليها ٠

الحق انّ الاقوال التى حكاها النحويون عن ابن كيسان تدل على انه ينزع الى البصريين ويعالج مسائل النحو بالطريقة التى كان البصريون يعالجونها بها ٠

فقد كان يتمسك بالعامل ، وبتقديره اذا لم يكن مذكورا ، وكان يرى ان الظرف فى نحو قولهم : زيد امامك ، ليس خبرا ، لان الخبر فى الحقيقة

(٤٩) طبقات النحويين واللغويين ١٧١ ٠
(٥٠) طبقات النحويين واللغويين ١٧٠ ٠
(٥١) نور القبس ٣٢٧ ٠
(٥٢) فهرست ابن النديم ١٢٠ ٠
(٥٣) المدارس النحوية ٢٥١ ٠

« هو العامل المحذوف ، وان تسمية الظرف نفسه خبرا مجاز »(٥٤) • ولاشك ان القول بان الخبر هو العامل المحذوف قول بصري • اما الكوفيون فيذهبون الى ان الظرف نفسه هو الخبر ، فهم اذن لا يقدّرون محذوفا •

وكان يتفلسف في كلامه على مسائل النحو ، شأن البصريين الذين فتحوا الباب للفلسفة الكلاميّة لتؤثر في موضوعاتهم النحوية ، فقد تناول واو العطف بالدرس تناولا فيه كثير من ظلال الفلسفة الكلامية ، فقال : « هي للمعية حقيقة • واستعمالها في غيرها مجاز ، قال : لانها لما احتملت الوجوه الثلاثة ، ولم يكن فيها اكثر من جمع الاشياء كان اغلب احوالها ان تكون لجمع في كل حال حتى يكون في الكلام ما يدل على التفرق »(٥٥) •

وكان يصطنع الحد الجامع المانع في تعريفات موضوعات النحو ، وقد حد الاسم بانه « صوت موضوع دال باتفاق على معنى غير مقرون بزمان»(٥٦) ، وقد كان للزجاج البصري مثل هذا الحد « فقد سئل الزجاج عن حد الاسم فقال : صوت مقطع مفهوم دال على معنى غير دال على زمان ولا مكان»(٥٧) •

والحدود التي جرى عليها البصريون لا تختلف عن الحدود التي جرى عليها المناطقة • قال الزجاجي : « وعندنا الحد : هو الدال على حقيقة الشيء »(٥٨) • وهل الحد الدال على حقيقة الشيء غير الحد الذى لا يكون الاجامعا مانعا ، وهو الحد الذى يقوم على ذكر الجنس والفصل ، وهو ما يقوم به مصطلح (الحد) عند المناطقة •

اما النحاة الكوفيون فلم يعرفوا الحدود بمعناها المنطقي ، ولم تجر على

---

(٥٤) همع الهوامع ٢/٩٩ •
(٥٥) همع الهوامع ٢/١٢٩ •
(٥٦) الايضاح ٤٨ •
(٥٧) الصاحبي ٥١ •
(٥٨) الايضاح ٤٦ •

السنتهم ، ولكن حدودهم تساق للتقريب على الدارسين · ومن حدود الاسم عندهم ·

الاسم : ما وصف ·· وهو قول الكسائى(٥٩) ·

والاسم : ما احتمل التنوين او الاضافة او الالف واللام · وهو قول الفراء(٦٠) ·

والاسم : ما دخل عليه حرف من حروف الخفض · وهو قول هشام ·

اما ابن كيسان فكان بصريا فى تعريفه الاسم ، فقد عرفه بمثل ما عرفه به الزجاج ، وهو بكلام المناطقة اشبه · وكان الزجاجى يقول : « ولابن كيسان في كتبه حدود للاسم غير هذا هى من جنس حدود النحويين ، وحده فى الكتاب المختار بمثل الحد الذى ذكرناه من كلام المنطقيين »(٦١) ·

اما الآراء التى تابع فيها الكوفيين فلا تعدو ان تكون من الآراء التى تنطلق من وجهة نظر خاصة ، واتباع دارس مذهبا معينا لا يعنى اغلاق باب الاجتهاد دونه ، ولا الحجر على ان يفكر تفكيرا مستقلا ، ولم يكن اتباع المذهب مُلغياً المزايا العقلية الخاصة ، ولا حاجرا على الحرية فى التفكير ، ولو كان الامر كذلك لخرج المبرد عن الدائرة البصرية باختلافه مع سيبويه رأس المذهب ، ونقضه كثيرا من آرائه ، ولخرج الفراء عن الدائرة الكوفية بمخالفته الكسائى رأس المذهب ، ونقضه كثيرا من آرائه ·

على ان بعض الآراء التى وافق فيها ابن كيسان الكوفيين كان الزجاج ، وهو من اعلام المذهب البصرى ، قد وافقهم فيه ايضا · من ذلك ان الكوفيين كانوا يرون ان الضمير فى (هو) و (هى) هو الهاء فقط ، وقد وافقهم الزجاج وابن كيسان فذهبا الى مثل ما ذهبوا اليه ، ولم يخرج هذا بالزجاج عن كونه من أشد الدارسين لزوما لمذهب البصريين ، وانتصارا له ·

---

(٥٩) الصاحبى ٤٩ ·

(٦٠) الصاحبى ٥٠ ·

(٦١) الايضاح ٥٠ ·

اما عدم تعصبه على الكوفيين ، وهو الذى اتخذ منه الدكتور ضيف قرينة على كونه بغدادى المذهب ، فلا يعنى الاخذ بمذهبهم ، لان ذلك يتفق مع مزاجه الخاص ، ونرتبط بتلمذته لثعلب ، وصلته به وتعظيمه اياه ، وقوة شخصيته التى لم تضعف امام اغراءات المبرد ، كما ضعفت شخصية الزجاج حين ائتمر بأمره ، واطّرح كتب الكوفيين .

وبعد فابن كيسان فى نهجه وطريقة تفكيره وتناوله موضوعات النحو بالدرس لم يخرج عن حدود المذهب البصرى ، فقد كان معنيا بالعلل والأسباب غاليا فى العامل وتقديره ، والنحوى الذى يعنى بالعلل ، ويصنف فيها كتابا كبيرا ابعد ما يكون عن أن يكون آخذا بمذهب الكوفيين .

واكبر الظن ان الدارسين الذين جعلوا ابن كيسان فيمن خلط المذهبين لم ينظروا الى خصائص طريقته ، وانما نظروا الى انه كان ملما بآراء البصريين والكوفيين بتلمذته لثعلب والمبرد . ووقوف الدارس على آراء مدرسة بعينها لا يعنى انه من رجالها ما لم يكن آخذا بأسلوبها فى تناول الموضوعات بالدرس ، ولا أرى ابن كيسان الا بصريا ، لانه كان ينزع الى البصريين بعنايته بالعلل ، ومزج كلامه بالمنطق ، وتلك سمة من ابرز سمات مذهب البصريين فى الدرس النحوى .

وأما أبو بكر بن شقير فهو احمد بن الحسن بن العباس (٦٢) ، « توفى سنة ٣١٧ هـ»(٦٣) ، روى عن ابى عصيدة احمد بن عبيد بن ناصح تصانيف الواقدى . وحدث عنه ابو بكر بن شاذان(٦٤) . له من المصنفات : كتاب مختصر فى النحو ، وكتاب فى المقصور والممدود ، وكتاب فى المذكر

---

(٦٢) وفى الايضاح (ص٧٩) : أحمد بن الحسين بن العباس . وما أثبته هو الصواب .

(٦٣) تاريخ بغداد ٤/٨٩ .

(٦٤) المصدر نفسه .

والمؤنث(٦٥) ، وكان من أئمة العربية(٦٦) واضطربت الاقوال في مذهبه النحوي ٠

فالسيرافي يعده فيمن خلط المذهبين ، ويضعه هو وابا بكر بن الخياط في طبقة ابي بكر بن السراج وابي بكر مبرمان(٦٧) ، ولعل السيرافي في ذكره اياه في النحويين البصريين يشير الى انه من اتباع المذهب البصري ٠

وابن النديم يعده فيمن خلط المذهبين ، ولم يلحقه بالبصريين ولا بالكوفيين ٠

وأبو بكر الزبيدي يضعه في طبقة اصحاب المبرد ، وان سقطت ترجمته في النسخة المطبوعة ، ولم يثبت الا اسمه(٦٨) ٠

وأبو القاسم الزجاجي وهو معاصره وآخذ عنه يتحدث عنه وعن ابن الخياط وابن كيسان ، ويعدهم في الكوفيين ، ويقول : «ومن علماء الكوفيين الذين اخذت عنهم : ابو الحسن بن كيسان ، وابو بكر بن شقير ، وابو بكر بن الخياط ، لأن هؤلاء قدوة اعلام في علم الكوفيين ، وكان أول اعتمادهم عليه ، ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين »(٦٩) ، ثم خصه بشيء لم يشرك صاحبيه فيه فقال : « كان شديد التعصب مع الكوفيين على البصريين »(٧٠) ٠

وابو البركات الأنباري يعده في النحاة الكوفيين ٠ قال : « كان عالما بالنحو ، وكان على مذهب الكوفيين » (٧١) ٠

---

(٦٥) نزهة الالباء ٣١٥ ٠

(٦٦) المصدر نفسه ٠

(٦٧) أخبار النحويين البصريين ٩ ٦٠ ٠

(٦٨) طبقات النحويين واللغويين ١٢٨ ٠

(٦٩) الايضاح ٧٩ ٠

(٧٠) الايضاح ٨١ ٠

(٧١) نزهة الالباء ٣١٥ ٠

ويعنى خلطه المذهبين انه جمع بين العلمين علم الكوفيين وعلم البصريين ، ولا تكاد كتب الطبقات تذكر من شيوخه غير ابى عصيدة احمد بن عبيد بن ناصح . فقد روى عنه تصانيف الواقدى(٧٢) ، وابن ناصح هذا نحوى كوفى ، وكان يحدث عن الأصمعى والواقدى ، وعنه القاسم الانبارى . وكان من أئمة العربية(٧٣) .

وقد ذكرت كتب الطبقات أنَّ لابن شقير مصنفات سبقت الاشارة اليها الا أنَّ نقول النحاة نادرة منها :

ما عرض له الزجاجى من احتجاج للكوفيين على أن اصل الاعراب للاسماء والافعال معا ، فقد كان ابن شقير يحتج بمثل ما كان معاصروه من الكوفيين يحتجون . فيرى ويرون « ان الافعال مستحقة للاعراب فى الاصل كما استحقت الاسماء »(٧٤) ، وذلك « ان الافعال ايضا تختلف معانيها كما اختلفت معانى الاسماء فتكون ماضية ومستقبلة ، وموجبة ومنفية ، ومجازى بها ، ومأمور بها ، ومنهيا عنها ، وتكون للمخاطب والمتكلم والغائب ، والمذكر والانثى »(٧٥) .

قال الزجاجى : « وكان ابن شقير يعتل بمثل هذا الاعتلال ، ويردده كثيرا وكان شديد التعصب مع الكوفيين على البصريين مع اعتقاده مذهب البصريين »(٧٦) .

ومنها : ذهابه الى ان (ليس) حرف ، والقول بحرفيتها قول كوفى ..

فقد كان الكسائى يقول : « اجريت (ليس) فى النسق مجرى

---

(٧٢) تاريخ بغداد ٤/٨٩ .
(٧٣) نزهة الالباء ٣١٥ .
(٧٤) الايضاح ٨٠ .
(٧٥) الايضاح ٨١ .
(٧٦) الايضاح ٨١ .

(لا) »(٧٧) . وقال : « (ليس) يكون جحدا ، ويكون استثناء ينصب به . . . .

وربما جاءت (ليس) بمعنى (لا) التى ينسق بها ، كقول لبيد :

« انما يجزى الفتى ليس الجمل »(٧٨) .

وقال الفراء : « اذا حسنت (ليس) موضع (لا) جاز ، وانشد :

« انما يجزى الفتى ليس الجمل »

اى : انما يجزى الفتى لا الجمل(٧٩) . وانشد الفراء :

قد سوّأ الناس ياما ليس بأس به واصبح الدهر ذو العرنين قد جدعا

«فجعل (ليس) تقوم مقام التبرئة »(٨٠) . اى : تقوم (لا) التى يسميها البصريون بالنافية للجنس ، فهى اذن حرف .

وقال ثعلب فى مجالسه : « حكى ابن الاعرابى : قد جعل الناس ما ليس بأس به »(٨١) . وقال : «مررت بزيدٍ ليس عمروٍ »(٨٢) و (ليس) هنا نسق مثل (لا) .

ونسب البغدادى فى الخزانة القول بحرفيتها الى الكوفيين حاكيا ذلك عن ابى حيان ، والى البغداديين ، حاكيا ذلك عن ابن عصفور(٨٣) ، وقد سبق أنْ قلنا : انّ الرأى واحد ، وانّ البغداديين عند ابن عصفور هم الكوفيون عند ابى حيان .

---

(٧٧) الصاحبى ١٤١ .

(٧٨) لسان العرب ٦/٢١١ . .

(٧٩) خزانة الادب ٤/٤٧٧ .

(٨٠) مجالس ثعلب ٢/٣٥٤ .

(٨١) مجالس ثعلب ١/١٣٢ .

(٨٢) خزانة الادب ٤/٤٧٧ .

(٨٣) المرجع نفسه .

غير ان ابن هشام والسيوطي الذي تابعه كانا قد وهما ، فنسبا القول بحرفيتها الى أبي بكر بن السراج .

قال ابن هشام : « وزعم ابن السراج انه حرف بمنزلة (ما) ، وتابعه الفارسي في (الحلبيات) وابن شقير وجماعة »(٨٤) .

وقال السيوطي : « وذهب ابن السراج الى حرفية عسى وليس مستندا الى عدم تصرفها ، ووافقه فى الاولى ثعلب ، وفي الثانية الفارسي وابن شقير»(٨٥) .

وقد خلّط السيوطي في هذا ، فجعل ثعلبا موافقا لابن السراج ، ومنطق البحث يقتضيه أن يعكس الامر ، وجعل القول بحرفية (ليس) منسوبا الى ابن السراج مع ان الكسائي والفراء وثعلبا كانوا قد سبقوه الى القول بحرفيتها ، كما ان ابا احيان ، فيما حكاه البغدادي ، كان قد نسب الرأى الى الكوفيين .

ورأى الشيخ محمد محيي الدين ناشر ابن عقيل ما قاله ابن‌هشام فخيل اليه ان ابن السراج هو اول من قال بهذا ، وجزم واهما بأن « اول من ذهب من النحاة الى أن (ليس) حرف هو ابن السراج ، وتابعه على ذلك ابو علي الفارسي في «الحلبيات» وابو بكر بن شقير وجماعة »(٨٦) ، واكبر الظن ان الشيخ لم يرجع الى غير ابن هشام ، لان نص العبارتين واحد ، فوهم بوهمه .

فابن شقير ، وان كان يحفظ المذهبين كما زعم السيرافي وابن النديم وغيرهما ـ معدود من الكوفيين ، لم يخرجه عن دائرته المذهبية في النحو كونه خلط المذهبين ، وجمع علم البصريين الى علم الكوفيين ، بل كان الزجاجي يراه

(٨٤) مغنى اللبيب ١/٣٢٧ .
(٨٥) همع الهوامع ١/١٠ .
(٨٦) شرح ابن عقيل ـ هامش ١/٢٢٧ ط ٧ .

احد علماء الكوفيين الذين هم قدوة اعلام في علم الكوفيين[٨٧] ، وكـــان ابو البركات الانباري يرى أنه « كان عالما بالنحو ، وكان على مذهب الكوفيين »[٨٨] .

ولا اعلم انه اخذ عن بصري ، لان كتب الطبقات لم تذكر احدا من الدارسين أخذ عنه ابن شقير غير ابي عصيدة ، او ابن عصيدة احمد بن عبيد بـــن ناصح ، وهو من أئمة العربية الكوفيين[٨٩] . واذا صح انه اخذ عن بصريين وكوفيين ، وجمع علم البصريين الى علم الكوفيين فانه كوفي النزعة ، وأحد علماء الكوفيين ، والاراء التي اخذ بها وحكيت عنه آراء كوفية .

أما مازعمه ابن هشام والسيوطي من بعده من متابعة ابـــن شقير لابـــن السراج في القول بحرفية (ليس) فوهم وتخليط كما بيّنا ، لان القول بحرفيـــة (ليس) كان الكسائي والفراء وثعلب قد سبقوا اليه ، ولم يكن ابن السراج هـــو صاحب القول ، كما زعموا ، بل كان متابعا للكوفيين ، وآخذا بمقالتهم ، وليست هذه هي المرة الاولى التي أخذ فيها ابن السراج برأي كوفي ، فقد حكى كثيرا من آرائهم وتابعهم في كثير من اقوالهم .

ومع ذلك كان السيرافي يتغافل عن هذا ، ولا يعدّه فيمن خلط المذهبين، بل سلكه في البصريين الذين محض علمهم فلم تشبه شائبة كوفية ، وكـــان ابن النديم يرى انه من البصريين ايضا ، وان الرئاسة في النحو البصري آلـت اليه بعد موت الزجاج ، ويحكى عن ابن درستويه « انه ـ يعني ابن السراج ـ كان من احدث غلمان المبرد سنا »[٩٠] . ولم اقف ـ فيمـا وقفت عليه من كتب الطبقات ـ على رأى مخالف لما رآه السيرافي وابن النديم .

ومع ذلك كله ايضا لم اجد من الدارسين المعاصرين القائلين بالمذهب الثالث من سلك ابن السراج في المدرسة البغدادية على حين انهم سلكوا فيها مـــن كان اضعف صلة بعلم الكوفيين ومذهبهم منه كالزجاجى والفارسي وابن جني .

---

(٨٧) الايضاح ٧٩ .
(٨٨) نزهة الالباء ٣١٥ .
(٨٩) بغية الوعاة ١/٣٣٣ .
(٩٠) فهرست ابن النديم ٩٢ .

واما أبو الحسن علي بن سليمان الاخفش (توفي سنة ٣١٥ هـ) فقد « سمع أبوي العباس ثعلبا والمبرد » (٩١) ، واستكثر عنهما ، ولكنه ، فيما زعم المرزباني ، لم يكن متسعا في الرواية للاخبار والعلم (٩٢) ، وكان المرزباني يتحدث عنه في (المقتبس) فيما ذكر ياقوت ، فقال : « ماعلمته صنف شيئا البتة، ولا قال شعرا ، وكان اذا سئل عن مسائل النحو ضجر ، وانتهر كثيرا من يواصل مساءلته ، ويتابعها »(٩٣) .

وذكره ابن النديم فيمن خلط المذهبين الا أنه قال : « كان يضجر كثيرا اذا سئل عن شيء من النحو » (٩٤) ، وذكر من مصنفاته كتاب الانواء ، وكتاب التثنية والجمع ، وكتاب الجراد .

وتكاد الروايات تتفق على أنه لم يكن شيئا في النحو ، وأنه كان يضجر حين يسأل عن مسألة منه ، الا أن ياقوتا ذكر عن ابن النديم عن نسخة من الفهرست بخط مؤلفه أن لعلي بن سليمان الاخفش « من التصانيف : كتاب الانواء ، وكتاب التثنية والجمع ، وكتاب شرح سيبويه » (٩٥) . وكان هذا الذي ذكره ياقوت هو مصدر الوهم الذي وقع فيه المحدثون .

فقد جاء في (دائرة المعارف الاسلامية) ، في مادة (سيبويه) استعراض لشراح الكتاب ، وكان علي بن سليمان الاخفش واحدا منهم .

وذهب بروكلمان في (تاريخ الادب العربي) الى هذا ايضا ، موهما انه انما استند في ذلك الى ماذكره البغدادي في خزانة الادب (٢/٣٥١ س ٦ من اسفل) (٩٦) .

---

(٩١) تاريخ بغداد ١١/٤٣٣ .

(٩٢) نور القبس ٣٤١ .

(٩٣) معجم الادباء ١٣/٢٤٧ .

(٩٤) فهرست ابن النديم ١٢٣ الرحمانية بمصر ، ٨٣ لايبزك .

(٩٥) معجم الادباء ١٣/٢٤٨ .

(٩٦) تاريخ الادب العربي ١/٢٣٩ الطبعة العربية .

وعند الرجوع الى ماكتبه البغدادي في شرح الشاهد التاسع عشر بعد ثلاث المئة رأيناه يورد قول الشاعر :

فزججتها بمزجة زج القلوص أبي مزادة

وهو شاهد على الفصل بين المضاف والمضاف اليه بغير الظرف ،والمضاف اليه بالاداة . وينقل عن السيرافي أن مثل هذا الشاهد ممّا لم يثبته « احد من اهل الرواية . وهو من زيادات ابي الحسن الاخفش في حواشي كتاب سيبويه، فأدخله بعض النساخ في بعض النسخ ، حتى شرحه الاعلم وابن خلف في جملة أبياته » يعني أبيات الكتاب . ثم ذكر البغدادي ان الاخفش المسمى هنا « هو ابو الحسن سعيد بن مسعدة صاحب سيبويه ، لا الاخفش ابو الخطاب فانه شيخ سيبويه » (٩٧) .

فالبغدادي لم ينسب مثل هذا الى علي بن سليمان الاخفش ، ولم ينسب اليه شرحا لكتاب سيبويه ، كما وهم بروكلمان .

لقد عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين ، ولكن الاراء المنسوبة اليه تقفنا على حذر من تصديق أنه نحوي خلط المذهبين ، فهو مع أنه اخذ عن ثعلب والمبرد، وحكى عنهما ليس بالنحوي الذي يقف بازاء نحاة الجيل ، ولعل عده فيمن خلط المذهبين يقوم على أساسٍ من روايته عن البصريين والكوفيين ، وهو كذلك فيما يبدو من نقول الزجاجي عنه في أماليه ، فقد حكى عنه فى اكثر من خمسين موضعا منها ، وكان بعض هذه الروايات عن المبرد ، وبعضها عن ثعلب ، فخلطه المذهبين انما يعني انه لم يلتزم بالرواية عن البصريين وحدهم ، ولا عن الكوفيين وحدهم . وكل ماأثبته الزجاجي له في أماليه من حكايات وروايات انما

---

(٩٧) خزانة الادب ٢/٢٥١ س ٧ من اسفل .

يتعلق برواية الشعر والاخبار ، أما النحو فليس له ، فيما حكاه الزجاجي عنه ، نصيب منه ، ولم اقف له في هذه المواضع التي ذكر الزجاجي اسمه فيها رأيا نحويا ، او مسألة من مسائل النحو ٠

أما كتب النحو فقد روت له اقوالا في النحو ، ولكنها قليلة ، وقد يكون بعضها لغيره من الاخافش ، فنسب اليه وهما ، كما وهم محقق كتاب (اعراب القرآن) المنسوب الى الزجاج ، فقد ورد فيه اسم الاخفش او كنيته في ثمانية وخمسين موضعا ، وزعم محقق الكتاب أن المقصود هو : أبو الحسن علي بن سليمان الاخفش ، وقد اثبت في فهرس الاعلام : « الاخفش ابو الحسن = علي ابن سليمان الاخفش أبو الحسن»(٩٨) ٠ فاذا وصل فى فهرسه الى حرف العين آثبت اسم (علي بن سليمان الاخفش ابو الحسن) ٠ وذكر بازائه ارقام الصفحات وعدتها ثمان وخمسون صفحة (٩٩) ، وليس للاخفش علي بن سليمان قول واحد منها ، وهي كلها من اقوال ابي الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش ، كما يتضح ذلك عند مقابلة هذه الاقوال باقوال سعيد بن مسعدة المنقولة في كتب النحو ٠

أكبر الظن أنّ الذي اوهم محقق كتاب (اعراب القرآن) ٠ وأوهم غيره هو هذا التوافق بين الرجلين في الكنية واللقب ، فكلاهما يكنى بأبي الحسن ، وكلاهما يلقب بالاخفش ٠

ومهما يكن من أمر فعلي بن سليمان الاخفش لايصلح أن يكون مثالا لرجال الجيل الذي خلط المذهبين ، لانه اذا كانت حاله في النحو على ما ذكر المرزباني وابن النديم فليس له مذهب يُعتدّ به ٠ يضاف الى هذا ان الاقوال القليلة التي ترويها كتب النحو لا تقدم صورة واضحة لمذهبه في النحو ٠

---

(٩٨) عراب القرآن ١٠٥٧ ٠

(٩٩) اعراب القران ١٠٦٢ ٠

الدرس النحوي في القرن الرابع

اذا كان الدرس البصري قد بسط نفوذه على بيئات الدرس في بغداد في القرن الرابع فليس يعني هذا أن امر الكوفيين قد انتهى ، وآل الدرس الكوفي ألى زوال · فقد بقي هذا الدرس حيا بأعمال دارسين اعلام كان لهم الاثر الكبير في بقاء هذا الدرس ، ومنهم لغويون مثل ابن خالويه وابن فارس ، ومنهم أدباءوشعراء مثل أبي الطيب ·

ابن خالويه :

أما ابن خالويه فهو ابو عبدالله الحسين بن احمد (توفي سنة ٣٧٠ هـ) · نحويا على طريقة الكوفيين ·

لان اعتماده في النحو واللغة على تلاميذ ثعلب ، فقد أخذ عن أبي بكر بن الانباري ، وأبي عمر الزاهد ، وابي عبدالله ابراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه ·

ولانه كان كثير الرواية عن ثعلب وابن الاعرابي والفراء وألكسائي ·

ولانه كان يصطنع الاوضاع الخاصة بالكوفيين ، كالنسق مكان العطف ، وحروف الصفة مكان حروف الجر ، فقد قال في اعراب قوله تعالى : « تواصوا بالصبر » : « تواصوا : نسق على الاول · بالصبر جرٌ بباء الصفة »(١) · والجحد مكان النفي · قال في اعراب قوله تعالى : «ما اغنى» : ما : جحد » (٢) ·

ويبدو أن الدارسين الذين عاصروه كانوا قد عرفوا أنه ينزع الى الكوفيين ، فقد حكى ابو البركات الانباري : « أنه اجتمع هو وأبو علي الفارسي ، فجرى

(١) اعراب ثلاثين سورة ١٧٧ ·
(٢) اعراب ثلاثين سورة ٢٢٢ ·

بينهما كلام ، فقال لابي علي : نتكلم في كتاب سيبويه ، فقال أبو علي : بل نتكلم في الفصيح » (٣) ٠

وفي هذا ايماء الى أن اللغة تغلب عليه ، والى أنه كوفي النزعة ، لان أبا علي لم يحله على كتاب بصري في اللغة ، ولكنه أحاله على فصيح ثعلب ، وكأن أبا علي فهم ان ابن خالويه كان يتحداه في فهم كتاب سيبويه فتحداه أبو علي في فهم فصيح ثعلب ٠

ابن فارس :

واما ابن فارس فهو ابو الحسين احمد بن فارس (توفي سنة ٣٩٥ هـ) ،كان نحويا على طريقة الكوفيين (٤) ، وقد أخذ عن ابي بكر احمد بن الحسين الخطيب راوية ثعلب(٥) ٠ وله مصنفات في اللغة كثيرة اشهرها : كتاب المجمل ، وكتاب المقاييس ، وكتاب متخير الالفاظ ، وكتاب (الصاحبي) في فقه اللغة ٠ وفي هذا الكتاب أكثر من قرينة تدل على أنه كوفي المذهب ٠

فقد جوز أن تضمر (أن) في قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضرَ الوغى(٦) ٠

وهو مذهب كوفي ٠

وجعل لادوات الاضافة اكثر من معنى على أساس نيابة الحروف بعضها عن بعض ، وهو مذهب كوفي ، لان مذهب البصريين ألاّ يكون للاداة اكثر من معنى واحد ، وما أوهم فمحمول عندهم على تضمين الفعل معنى فعل اخر يتعدى بتلك الاداة ٠

(٣) نزهة الالباء ٣٨٥ ٠

(٤) انباه الرواة ١/٩٤ ٠

(٥) نزهة الالباء ٣٩٢ ٠

(٦) الصاحبي ١٠٤ ٠

واصطنع اوضاع الكوفيين كثيرا ، وكان يعبر عن العطف بالنسق ، وعن (الفعل المضارع) بالفعل المستقبل . قال : « لا : حرف نسق ينفي الفعل المستقبل » (٧) .

وذهب الى ان (ليس) حرف فقال : « ليس نفي لفعل مستقبل . تقول : ليس يقوم » (٨) . والقول بانها حرف قول الكسائي والفراء وثعلب وقد مر بيانه .

وخير ما نستند اليه في عده في الكوفيين هو طريقته القائمة على الاحتجاج بالنصوص والشواهد من فصيح كلام العرب في تناوله مسائل النحو بالدرس حيث لا يلجأ الى قياس ولا الى تعليل ، فقد قال في باب (اضمار الحروف) « ويضمرون الحروف فيقول قائلهم :

ألا أيّهذا الزاجري أشهدَ الوغى

يعني : أنْ أشهدَ ، ويقولون : « والله لكان كذا » يعني : لقد . ويقول النابغة :

لكلّفْتني ذنب امرئ

وفي كتاب الله جل ثناؤه : « ألم غلبت الروم » قالوا معناها : لقد غلبت ، الا ترى انه لما اضمر (قد) أضمر اللام . وفي كتاب الله جلّ ثناؤه : « سنعيدها سيرتَها الاولى » فقالوا : الى سيرتها . و «اختار موسى قومه » اى : من قومه(٩) وهي سمة كوفية لا تحتاج الى مزيد من البيان .

ابو الطيب المتنبي :

واما ابو الطيب فأمره معروف ، وعبارته في شعره تقوم على اساس من النحو الكوفي ، وكان هذا مبعث كثير من المآخذ التي اخذت عليه ، ويمكن

---

(٧) الصاحبي ٣٦ .
(٨) الصاحبي ١٤٠ .
(٩) الصاحبي ١٩٧ .

ان يعد ابو الطيب فى كبار اللغويين والنحاة ، وقد اخذ عن بصريين وكوفيين ، اخذ عن اصحاب المبرد فقرأ على ابى اسحاق الزجاج ، وأبى بكر بن السراج ، ثم لقي اصحاب ثعلب فقرأ على أبى موسى الحامض ، وابى عمر الزاهد(١٠) . واكثر النظر فى الدرس الكوفى فحفظ كتاب الحدود(١١) .

وظهرت نزعته الكوفية فى امثلة كثيرة من شعره ، فقد ذكر ابن يعيش حين عرض لحذف حرف النداء من اسم الاشارة انه « اجاز قوم من الكوفيين : هذا أَقْبِلْ ، على ارادة النداء ، وتعلقوا بقوله تعالى : « ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم» قالوا : والمراد : ياهؤلاء ، وقد عمل به المتنبى بقوله :

« هذه برزتِ لنا فهجتِ رسيسا »

وكان يميل كثيرا الى مذهب الكوفيين(١٢) .

وقال :

حملت اليـــه من لسانى حديقـــة سقاها الحِجا سقي الرياضَ السحائبِ

ففصل بين المصدر المضاف (سقي) وفاعله المضاف اليـــه (السحائب) بالمفعول وهو (الرياض) وهو مما اجازه الكوفيون(١٣) .

وقال :

يباعدْنَ حِبّاً يجتمعْنَ ووصلُهُ فكيف بحِبٍّ يجتمعْنَ وصدُّه

فعطف (وصله) على الضمير فى (يجتمعن) بدون فصل ، وهو مـــــذهب كوفى ايضا(١٤) .

---

(١٠) مقدمة البستانى لشرح الديوان .

(١١) مدرسة الكوفة ٩١ ط ٢ عن كتاب الاستدراك فى الاخذ على المآخذ الكندية مخطوطة بدار الكتب ، رقمها : ٧٩٣ شعر ...

(١٢) شرح المفصل ١٦/٢ .

(١٣) الانصاف ـ المسألة الـ ٦٠ .

(١٤) شرح الاشمونى ٣١٩/٣ .

وجاء في شرح ديوانه المسمى بالتبيان ، في اعراب قوله :

وقبلَ يرى من جوده ما رأيته ويسمعَ فيه ما سمعت من العذل

« اراد : قبلَ أنْ يرى ، فحذفها واعملهـــا على رواية من روى (ويسمعَ) بالنصب ، وهو مذهبه ، لانه كوفي»(١٥) ·

فبالرغم من تغلب المذهب البصري ، وبسط نفوذه على مجالس الـــدرس في بغداد ما يزال المذهب البغدادي الكوفي حيا بأعلامه ، وتراثه ، ولا يعني انتصار المذهب البصري زوال آثار منافسه وامّحاء سماته ، فليس الانتصار في المعركة المذهبية كالانتصار في المعارك المادية التي تنتهي ببقاء الغالب ، وفناء المغلوب، فاذا لقي الدرس البصري من طلبة العلم اقبالا ، ومن السلطان دعما وتأييدا ، فلم يخرج من هذه المعركة وهو الغالب ، بدون ان يتأثر بالمغلوب ، او بــــدون ان يترك المغلوب فيه آثاره ·

وكان هذا هو ما حصل فعلا ، فقد ترك الدرس الكوفي من خصائصه المذهبية في الدرس البصري آثارا عميقة لم يستطع المتعصبون للبصرية ان يمحوها ، كما لم يسلم الدرس الكوفي من التأثر بالدرس البصري ·

لذلك نجد كثيرا من اعلام الدرس الكوفي يرددون بعض المصطلحـــات البصرية ، ويصطنعون اوضاعا ليست من اوضاعهم ، ويرددون عبارات ليست من عباراتهم ·

ولم يكن ذلك ليعني بحال انهم كانوا يخلطون المذهبين ، او يختارون مـن مزاياهما ويوحدونها في مذهب منتخب ما دام الطابع العام لاسلوب هـــذا الدارس بصريا ، والطابع العام لاسلوب ذاك الدارس كوفيا ·

---

(١٥) التبيان ٢/٤٨ ·

ولذلك لم يسلك احمد بن فارس فى البصريين وان جرى على قلمه بعض اوضاع البصريين وعباراتهم ، ولا عد ابن السراج فى الكوفيين ، وان حكى عن كوفيين ، وجرى قلمه ببعض عباراتهم ومصطلحاتهم ·

الحق ان الدرس النحوى بمذهبيه الرئيسين أخذ ، فى خلال القرن الرابع ، يضعف شيئا فشيئا ، فقد غاضت منابعه ، وجفت موارده ، ولم يبق منها الا بقية لا غناء فيها · ووشل لا رى فيه ، ذلك ان الحياة قدتغيرت ،وطرز العيش قد تفاوتت ، واستبدل الناس حياة المدن بحياة البادية ، والاستقرار بالتجوال ، والعلاقات الاجتماعية الواسعة بالعلاقات القبلية الضيقة ، وبتغير الحياة فى الفكر والحضارة والاجتماع تغيرت مقاييس الفصاحة ، واختلفت الاسس التى يقام عليها الدرس ، ولو فطن الدارسون لهذه الحقيقة لتغيرت مقاييس الفصاحة ومعايير الاصابة فى الاعراب ·

ولكن الدارسين كانوا ينظرون الى اللغة انها قديمة وثابتة ،والى القواعد انها خالدة ، ولو كان لديهم فكر لغوى ، او نهجوا فى دراسة الظواهر نهجا لغويا لكان للدرس النحوى شأن آخر ، ولكنهم رأوا ابا عمرو بن العلاء يتحرج فى الرواية عن معاصريه فكان ذلك اصلا من اصول الدراسة عندهم ، وتشدد المحافظون فى الرواية عن العرب فاحتذوهم وسلكوا سبيلهم ·

لو كان الدارسون ينظرون الى اللغة انها متغيرة ابدا ، وان التغير عامل وجودها ، وقوام حياتها لمشوا مع الزمن فى تقدمه ، واللغة فى تطورها ، ولاتخذوا من لغة الاديب ، لغة الشعر والكتابة عند المجيدين من الشعراء والكتاب مصادر لدراستهم تبعث فى الدرس النحوى حياة جديدة ، ولكنهم غبروا يتابعون ويقلدون في غير وعى فآل الدرس الى جدب وجمود ·

واذا كان للدرس النحوى واللغوى فى القرن الرابع بعض مظـــاهر الحياة فلأن بعض مصادر الدرس ما يزال لها وشل وان لم يـكن فيه ري ، وبقية وان لم يكن فيها غناء ، ولذلك كان للدرس اللغوى عند الأزهرى وابن جنى ومن احتذاهما قبس من حياة ورونق من خصب ٠

اما الازهرى (ابو منصور محمد بن احمد توفى سنة ٣٧٠ للهجرة) فقد كان افاد من جهود من سبقه من علماء اللغة ورواتها ، وكان له مشافهة لبعضـ الفصحاء من الاعراب الذين لم تسلم لغتهم من اللحن ، ولم تنجُ السنتهم مـن الانحراف ، وكان الذى اتاح له ذلك وقوعه فى الأسر « سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير »(١٦) وبقاؤه اسيرا عند عرب « عامتهم من هوازن ، واختلط بهم اصرام من تميم واسد بالهبير ، نشئوا فى البادية يتتبعون مساقط الغيث ايام النُجَع ، ويرجعون الى اعداد المياه ، ويرعون النعم ، يعيشون بألبانهـا ، ويتكلمون بطباعها البدوية ، وقرائحهم التى اعتادوها ، ولا يكاد يقـع فـى منطقهم لحن ، او خطأ فاحش » ٠ وقد تلقف الأزهرى عنهم الفاظا جمـة ، ونوادر كثيرة ، وصفها فى مواضعها من كتابه «تهذيب اللغة» ، كما كـان يقـول(١٧) ٠

واما ابو الفتح (عثمان بن جنى توفى سنة ٣٩٣ للهجرة) فقد كـان صاحَبَ ابا على الفارسى واخذ عنه ، كما اخذ عن كثير من رواة اللغة والادب، مثل ابى بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مِقْسم ، راوية ثعلب ٠ وكـان يسمع الاعراب الذين لم تفسد لغتهم كآل المهيّا(١٨) ، وبنى عقيل ، وكان مـن العقيليين الذين كان يثق بفصاحتهم ابو عبدالله محمد بن العساف العقيـلى

(١٦) الهبير : رمل زرود فى طريق مكة ٠

(١٧) تهذيب اللغة ــ المقدمة ص ٧ ٠

(١٨) الخصائص ١/٧٨ ٠

التميمي المعروف بالشجري ، وقد ذكره فى اكثر من موضع من كتابه (الخصائص) وكان يعتمده فيما ينشد وفيما يقول ٠

ومما حكاه عنه : فتح حرف الحلق ٠ قال : « سمعت الشجرى ابا عبدالله غير دفعة يفتح الحرف الحلقى نحو (يَعَدو) و (هو مَحَموم) ولم اسمعها من غيره من عقيل »(١٩) ٠

وربما كان يموه عليه احيانا للتثبت من فصاحته ، وسأله مرة ومعه ابن عم له اسمه غصن ، قال : قلت لهما : «كيف تحقّران (حمراء) ؟ فقالا ٠ جميراء ، فقلت : فسوداء ؟ قالا : سويداء ، وواليت من ذلك احرفا ، وهما يجيئان بالصواب ، ثم دسست فى ذلك (علباء) ، فقال غصن : (عليباء) وتبعه الشجرى ، فلمّا همّ بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال : آه ! عليبى ، ورام الضمة فى الباء فكانت تلك عادة له»(٢٠) ٠

هذا ما كانت عليه حال الدرس فى بغداد طوال القرن الرابع للهجرة ، ثم جاء فى القرون المتعاقبة دارسون لم يُلفوا من مصادر الدرس غير ما كان مكتوبا ، ولم يجدوا منها حتى ذلك الوشل الذى كان يقيت الدرس فى اواخر القرن الرابع ، فآل امر الدرس النحوى عندهم الى ان يكون تكرارا واجترارا وغلّقت الابواب دون الابداع والابتكار ٠ وتضاءل انتاج الاصيل ، ولم يجد الدارسون ما يقدمون غير تلخيصات وشروح وهوامش وتعليقات ٠ وصار الدرس النحوى عندهم تجميعا وتلفيقا ، وصار التعمق فى المصنفات يعنى التعمق فى القياس والتعليل والتأويل ٠ وجمد كل شىء ، وصار الدرس النحوى قوالب محفوظة ، وعبارات متناقلة ، وكانت الامثلة تصنع على غرار امثلة المتقدمين ٠ وابيات الشواهد هى الابيات التى استشهد بها الاوائل ٠

(١٩) الخصائص ٢/٩ ٠
(٢٠) الخصائص ٢/٢٦ ٠

فمن التمحل ان ينسب هذا الدارس الى مدرسة بعينها ، وذاك الدارس الى مدرسة اخرى بعينها ، ومن التقعر ان ينسب ابو البركات الانبارى نفسه الى البصريين ، او يسلك ابن الحاجب نفسه فيهم ، او يُعدّ ابن مالك في البغداديين او فيمن خلطوا المذهبين ، لان نحو هؤلاء ومن على شاكلتهم انما يمثل الشكل النحوى الذى لا ينطوى على مضمون .

وبلغ الدرس النحوى من الجدب عند هؤلاء أنْ كانوا يضعون فيه كتبا مختصرة مشتقة من كتب الاقدمين ، ويسمونها مقدّمات أو متونا ، ثم يشرحونها، ويوسعونها بالتعليلات والتأويلات والردود والمناقشات ، وبسط الوجوه المحتملة للمسألة الواحدة ، ووضع الحدود المنطقية الجامعة المانعة ، وتحليلها ، وقد يعمد بعضهم الى نظم احد كتبه ، ثم يشرح المنظومة فلا يضيف الى الاصل جديدا الا تكرارا ثقيلا ، واجترارا لا نفع فيه .

كما فعل ابن الحاجب حين الف مقدمة صغيرة سماها بالكافية ، ثم شرحها ، ثم نظم الكافية وسمى منظومته بالوافية ، ثم شرح الوافية، وكان ابن الحاجب فى تصنيفه وشرحه ونظمه وشرح نظمه يدور فى حلقة مفرغة ، حتى لكان الدرس النحوى لعبة ، والتصنيف فيه أُخْذَة" او شعوذة .

وكما فعل ابن مالك فقد نظم النحو والصرف على مزدوج الرجز بما يقرب من ثلاثة آلاف بيت ، وسمى هذه المنظومة بالكافية الشافية ، ثم شرح هذه المنظومة ، وسمى الشرح بالوافية ، متابعا ابن الحاجب حتى فى التسمية ، ثم اختصر هذه المنظومة الى ألف بيت ، وسماها بالخلاصة ، وهى المعروفة بالألفية .

ويبدو ان نظم العلوم ، ووضع المقومات والمتون كان طابع الدرس في العصور المتأخرة ، وكان واصفوها يزعمون انهم بهذا كانوا يتوخون التيسير للحفظ ، وقد احسنوا اذ لم يزعموا انهم كانوا يتوخون التيسير للفهم .

كان هذا حال الدرس النحوي في المشرق في عصوره المتأخرة يوم تولاه فقهاء او اصوليون او مفسرون أو محدثون ، أو قراء لم تكن لهم سابقة فيه ، ولم يملكوا حسا لغويا ، ولا فكرا نحويا . ولا يعرف الدارس كيف صاروا نحاة ، ولا عمّن اخذوا النحو ، ويبدو ان مصادرهم في النحو هي الكتب ، فقد وقفوا على ماتيسر لهم الوقوف عليه منها ، وتوفروا على قراءتها ثم أخذوا يصنفون المقدمات والمتون منها تجميعا وتلفيقا . ذلك أنا نستعرض شيوخ ابن الحاجب فلا نجد فيهم نحويا ، ونستعرض شيوخ ابن مالك فنقف على مزاعم واقوال ينقض بعضها بعضا ، غير ان ابا حيان يقطع هذه الاقوال فيقول : « بحثت عن شيوخه ـ يعني ابن مالك ـ فلم أجد له شيخا مشهورا يعتمد عليه ، ويرجع في حل المشكلات اليه الا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال : قرأت على ثابت بن حيان بجيان ، وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما ، ولم يكن ثابت بن حيان من الائمة النحويين، وانما كان من ائمة المقرئين»(٢١) .

اما حال الدرس في المغرب والاندلس فتختلف قليلا ، ويرد الاختلاف الى طبيعة البيئة الثقافية التي نشئوا فيها ، فالدارسون في المشرق انما نشئوا في بيئة ورثت القياس في الفقه ، وفلسفت أصوله ، وورثت فلسفة المتكلمين ، ووقفت على فلسفات الامم الاخرى ، فطبع الدرس فيه بطابع فلسفي واضح ،

(٢١) بغية الرعاة ١/١٣٠ ، ١٣١ .

وحفلت المصنفات بالجدل المنطقي والتعليل الفلسفي ، وخضع النحو فـــي المشرق لِما خضع له الفقه واصول الفقه من منطق وفلسفة . اما الدارسون في المغرب والاندلس في عصورها المتأخرة فقد نشئوا في بيئات ثقافية سلفيـة تُعنى بالنقل اكثر مما تُعنى باحكام العقل ، ولذلك ترى كتب ابي حيان والذين عاصروه او احتذوه تعتمد في سعتها وكثرة مجلداتها على النقول مـن المصنفات المختلفة سواء اكانت بصرية أم كوفية ، وهي اذ نقلت مانقلت ، ولفقت مالفقت ، لم تهدف الى الاختيار والانتخاب ، ولا انطلقت في نقلها وتلفيقها من أسس مذهبية معينة ، ولكنها كانت ترمي الى الجمع ، وترمز به الى الاحاطة بعلم الاولين ، وجاء المُحدَثون فجاز عليهم هذا فراحوا يصنفونهم في مدارس بغير حساب .

* * *

الدرس النحوي في الآفاق

لاشك ان الامصار العراقية الثلاثة ، الكوفة والبصرة وبغداد كانت مصدر الدرس اللغوي والنحوي في تاريخ العربية ، وكانت البصرة والكوفة مركزين مهمين من مراكز الثقافة ، والفكر العربي الاسلامي ، وكانت البصرة هي الرائدة في الدرس اللغوى ، فقد سبقت اليه ، مستعينة به على خدمة الاغراض القرآنية اول الامر ، ثم ما لبث ان استقل حتى صار علما على حدة يدرس لذاته، وكانت الكوفة سباقة الى القراءة والحديث والفقه ورواية الاشعار واخبار العرب ٠

ثم مُصِّرت بغداد فكان هذان المصران يرفدانها بنتاجهما ، وبأعلام الدرس فيهما ، وقد استوعبت بغداد كل ماكان لديهما من طاقات ، واستأثرت بخير من كان فيها من دارسين ٠

وشرّقت شهرة هذه الامصار وغرّبت ، وكانت تستقبل كثيرا من الدارسين الوافدين عليها من الافاق البعيدة ، وكان الاندلسيون ، بوجه خاص ، يتجهون بأبصارهم الى المشرق ، ويَشْرَئبّون الى العائدين منهم يحملون معهم علم المشارقة واخبارهم ومصنفاتهم ٠

وكان القادمون من الافاق يأخذون عن اعلام هذه الامصار ، فاذا بلغوا من طلاب العلم ماكانوا شدوا الرحال من اجله عادوا الى ديارهم لينشروا ماكانوا تلقوه في اقطارهم ، وليتصدروا مجالس الدرس فيها يقرئون ويملون ٠

ومنذ عهد مبكر كانت مجالس الدرس في الافاق تعقد لتدريس القراءة والفقه والحديث ومبادىء العربية ، وكان الدارسون الذين يطمحون الى المزيد يرحلون الى تلك الامصاد للُقيّ العلماء فيها ، والاخذ عنهم ، وحمل كتبهم ٠

ويمكن للدارس أن يتبين في تلك الافاق صورة ماعرفه من أصول مذهبية في البصرة وبغداد ، وصدى ماوقف عليه من منافسة بين الدرس النحوي في البصرة ، والدرس النحوي فى بغداد ، وذلك بتتبع رحلات الدارسين الى البصرة وبغداد من الاندلس والمغرب ومصر ، فمن رحل منهم الى البصرة ، ولقي علماءها حمل معه علم البصرة وطريقة الدارسين فيها ، ومن رحل منهم الى بغداد حمل معه علم بغداد في اللغة والنحو وطريقة الدارسين فيها ·

وفي مقدمة الاقطار التي عنيت بالدرس اللغوي والنحوي في العالم الاسلامى الرحب : مصر والاندلس ·

١ ـ الدرس النحوي فى مصر :

كان الدارسون الاوائل في مصر كغيرهم من الدارسين فى الاقطار العربية الاسلامية ، كانوا يولون وجوههم قبل المشرق ، قبل مكة والمدينة لاداء فريضة الحج ، وقبل أمصار العراق التي طبقت شهرتها الآفاق ، كالبصرة بلد الخليل ابن أحمد ، وبغداد قاعدة الخلافة وموطن الكسائي والفراء ·

وكانت مجالس الدرس الاولى في مصر هي المساجد العامة الجامعة ، وبها كان الدارسون يقرءون القرآن ويقرئونه ، ولم يكن لعلم العربية شأن في مصر قبل الوليد بن محمد المصادري التميمي المعروف بولاد ، فقد كان ولاد من اوائل الدارسين في مصر ، وبه عرفت مصر الدرس « ولم يكن بمصر كبير شيء من كتب النحو واللغة قبله » (١) ·

وأصل ولاد بصري ، ولكنه نشأ بمصر ، وسمع بالخليل بن أحمد فرحل الى البصرة ، ولقي الخليل ، وأخذ عنه ، ولازمه ، ثم عاد الى مصر بعلم الخليل ومملياته والحكاية عنه ·

---

(١) طبقات اللغويين والنحويين ٢٣٣ ·

وكان ولاد قد استرعى انتباه الدارسين في مصر بما أذاعه من علم الخليل، وبما أخبر به عن البصرة ، فحفزهم الى الرحلة الى البصرة ولقي العلماء فيها ، فاذا رجعوا الى مصر حملوا معهم ما انتسخوا من كتب ، وما دونوا من مجالس .

والدارس الذي كان له تأثير واضح في مصر هو ابو علي احمد بن جعفر الدينوري (توفي سنة ٢٨٩ هـ) فقد تصدر مجالس الدرس في مصر وقرأ الدارسون عليه كتاب سيبويه .

وكان أبو علي الدينوري قدم البصرة ، ولقي أبا عثمان المازني ، وحمل عنه كتاب سيبويه ، ثم ذهب الى بغداد ومعه نسخة من الكتاب ، واتصل بأبي العباس ثعلب ، وأصهر اليه ، واكبر الظن أنه اخذ عنه ، واختلف الى مجلسه ، فلما ورد المبرد بغداد مضى اليه ابو علي ، واخذ يقرأ الكتاب عليه ، وكان يخرج من منزل أبي العباس ثعلب ويتخطى مجلسه ، ويمضي الى مجلس المبرد ، وكان ثعلب يعاتبه ، ولكنه لم يكن يلتفت الى قوله (٢) .

ثم رحل الى مصر ، وأقام فيها ، وجلس هناك للتدريس ، وألف كتابا سماه المهذب ، وكان اعتماده في النحو على البصريين ، وكان ممن أخذ عنه ابو الحسن ابن ولاد (٣) . وكان ابو الحسن معاصرا أبا علي الدينوري ، وقد اختلف الى مجلسه يقرأ عليه النحو ، ثم رحل الى بغداد ، فلقي ثعلبا والمبرد ، ولكنه انقطع عن ثعلب ، ولزم المبرد ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وينسخه على نسخة المبرد ، ثم رجع الى مصر ، وبقي فيها الى ان توفي سنة ٢٩٨ ، وانتقلت نسخة الكتاب الى ابنه ابي القاسم بن ولاد ، فقرأها عليه أبو بكر الزبيدي (٤)

وبرز في الدرس النحوي من أولاد ابن ولاد أبو العباس بن ولاد (توفي سنة ٣٣٢ هـ) وجعله الزبيدي في الطبقة الثالثة ، وكان قد رحل الى بغداد كما

---

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ .

رحل اليها أبوه من قبل ، وهناك لقي ابا اسحاق الزجاج وغيره ، واخذ عنهم • وعلى أبي اسحاق قرأ الكتاب ، واتقنه(٥) ، وكـــان شديد الاعجاب بسيبويه ، ولذلك انتصر له على المبرد في نقضه بكتابه (الانتصار لسيبويه من المبرد) (٦)•

وكان أبو اسحاق الزجاج يعجب بأبي العباس لذكائه وقدرته على الاستنباط وربما فضله على أبي جعفر النحاس وكانا جميعا من تلاميذه ، وبعد رجوع أبي العباس الى مصر أخذ يتصدر للتدريس ، ويصنف ، وكان طرازا بصريا أصيلا ، فقد قرأ عليهم ، ونهج منهجهم في القياس والتعليل والافتراض ، وكان يصطنـــع مذهب الاخفش سعيد بن مسعدة وأبي عثمان المازني ، فيستخلص للفعل أبنية ليس لها أمثلة في كلام العرب •

ويبدو أن هذا كان مما يشغل أذهان الدارسين من تلاميذ المبرد ، ومن ذلك ماجرى بينه وبين أبي جعفر النحاس في مناظرة اعد لها بعض أمراء مصر ، فقد روى الزبيدي عن أستاذه محمد بن يحيى الرباحي أن النحاس قال لابي العباس في هذا المجلس : «كيف تبنى مثل (افعلوت) من رميت؟ فقال : ارمَيَيْتُ فخطأه أبو جعفر وقال : ليس في كلام العرب (افعلوت) ولا (افعليت) • فقال ابـــو العباس : انما سألتنى أن أُمثّل لك بناء ففعلت » (٧) •وصحح ابو بكر الزبيدى قولهما جميعا ، استحسن جواب أبي العباس حين قلب الواو ياء ، واستحسن رد أبي جعفر ، لانه ليس في كلام العرب (افعليت) ، وانتهت المناظرة بمثل هـــذا السخف والتلعب باللفظ •

وأبو العباس بن ولاد ، كما قلت ، طراز بصري واضح السمات ، واذا وقف الدارس على جدله في انتصاره لسيبويه على المبرد ، وضحت له السمات البصرية

(٥) انباه الرواة ١/٩٩ •
(٦) اسمه بخط السماوى : كتاب نقض ابن ولاد على رد المبرد على سيبويه فى كتابه
(٧) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٨ •

في تناول موضوعات النحو بالدرس ، فما يزال يأتي بالحجة تلو الحجة وبالالزام بعد الالزام حتى يتبين له أنه جاء الى الغاية في الاقناع ·

وكان يعاصر أبا العباس أحمد بن محمد بن ولاد دارس مصري معـــروف هو أبو جعفر أحمدبنمحمد بناسماعيل المعروف بالنحاس(توفي سنة٣٣٧هـ) · كان قد رحل الى بغداد ، وسمع من الزجاج أيضا ، وأخذ عنه العربية ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، وحمل معه في عودته الى مصر نسخة منه ، ونسخة من كتـــاب العين ، وعن أبي جعفر أخذ محمد بن يحيى الرباحي أستاذ الزبيدي « وحمل عنه كتاب سيبويه رواية » (٨) وأدخله الاندلس ·

وقوّمه الزبيدي فقال : «كان النحاس واسع العلم ، غزير الرواية ، كثير التأليف ، ولم يكن له مشاهدة ، فاذا خلا بقلمه جوّد ، واحسن ، ولـــه كتبفي القرآن مفيدة ، منها : كتاب معاني القرآن ، وكتاب اعراب القرآن جلب فيه الاقاويل وحشد الوجوه ، ولم يذهب في ذلك مذهب الاختيار والتعليل » (٩) ·

وابو جعفر النحاس بصري المذهب ، وتتّضح بصريته :

١ ـ بتلمذته لابي اسحاق الزجاج ، وقراءته كتاب سيبويه عليه ، وحملـه الكتاب الى مصر ·

٢ ـ وبأسلوبه في تناول موضوعات النحو بالدرس ، وقد وقفنا قبل قليل على ماكان بينه وبين أبي العباس بن ولاد من مناظرة لم يقع مثلها من كوفيين ، ولا جرى مثلها على لسان كوفي ·

٣ ـ وبطابع كتابه (التفاحة) العام ، وطريقة عرضه المسائل فيه · غير انه يصطنع بعض المصطلحات التي وضعها الفراء كالجحد مكان النفي ، والتفسير مكان التمييز ، ولكن هذا لايدل على شيء ، ولا يجعل منه دارسا يخلط المذهبين،

(٨) طبقات النحويين واللغويين ٣٣٦ ·
(٩) المصدر نفسه

لان كثيرا من مصطلحات الفراء كانت قد شاعت ، وجرت على ألسنة الدارسين في بغداد بصريين او كوفيين ، وقد جرى بعضها على لسان الزجاج وابن السراج وهما نحويان بصريان ٠

ومن مشاهير النحويين في مصر : ابو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (توفي سنة ٤٦٩) ، أصله من العراق (١٠) ولد بمصر ، وشب فيها ، وتعلم مبادىء العربية على شيوخها ، ثم رحل الى العراق طلبا للنحو فقرأه على الدارسين هناك ، رجع الى مصر ، فتصدر للتدريس بجامع عمرو ، ثم ولي في ديوان الانشاء ، وعمله فيه : النظر فيما يصدر عن ديوان الانشاء من سجلات ورسائل ، فيصلح مافيها من خطأ ، وما يجد بها من خفي اللحن ، وكان له على ذلك راتب يجري عليه كل شهر ، ثم تزهد وانقطع في غرفة من غرف جامع عمرو ، وانصرف للعبادة وتوفر على التأليف ، وزعم المترجمون له أن ماصنفه بعد انقطاعه واعتكافه كتاب كبير في النحو سمى (تعليق الغرفة) ٠

وله مصنفات اخرى ، منها : شرح الجمل ، و (المقدمة) في النحو ، وقد نشرت المقدمة في بغداد ، نشرها حسام النعيمي باسم (المقدمة المحسبة في علم النحو)٠

وابن بابشاذ نحوي «على مذهب البصريين» (١١) ، ويكفي لتأييد ذلك ان نقف على هذه المقدمة ، فهي في أسلوبها ، وطابعها ، وتعبيراتها وتقسيماتها وتعريفاتها ومصطلحاتها بصرية لا أثر فيها للدرس الكوفي ٠

---

(١٠) انباه الرواة ٢/٩٥ ٠

(١١) نزهة الالباء ٤٣٣ ٠

ففعل الامر تصحيح اللام « مبني آخره على الوقف أبدا ، مثل : احضر : » (١٢) ٠

وجملة المنصوبات أحد عشر ، المفعول المطلق ، والمفعول به والمفعول فيه الخ ٠٠ (١٣) ٠

والرافع للمبتدأ هو الابتداء (١٤) ٠

والرافع للفعل المستقبل هو : « وقوعه موقع الاسم ، وفيه أقوال أصحها هذا القول » (١٥) ٠

وما لاينصرف هو ما « اجتمع فيه علتان فرعيتان من علل تسع ، او ما يقوم مقامهما » (١٦) ٠

وهذه اصول بصرية خالصة ، لان الكوفيين يذهبون الى ان فعل الامر معرب مجزوم ، والمفعول عندهم واحد وهو مايسميه البصريون بالمفعول به ٠ أما المفعولات الاخرى فأشباه المفعولات ٠

ومالاينصرف وما ينصرف مصطلحان بصريان يقابلهما عند الكوفيين : مالايجري ومايجري ٠ والعلتان الفرعيتان لايقول الكوفيون بهما لان التعريف وحده يكفي لعدم اجراء الاسم ، او لمنعه من الصرف ٠

والرافع للفعل المستقبل عند الكوفيين ، والرأي أصلا للفراء ، هو التجرد من الناصب والجازم ٠

فالنحويون المصريون جميعا كانوا على مذهب البصريين :

---

(١٢) المقدمة المحسبة ٢٤ ٠

(١٣) المقدمة المحسبة ٣٧ ٠

(١٤) المقدمة المحسبة ٣٧ ٠

(١٥) المقدمة المحسبة ٣٨ ٠

(١٦) المقدمة المحسبة ١٥ ٠

١ ـ بتلمذتهم للبصريين ، فولاّد كان قد تلمذ للخليل ، وأبو على الدينوري كان قد تلمذ لأبى عثمان المازنى وابى العباس المبرد وأبو العباس بن ولاد وابو جعفر النحاس كانا قد تلمذا للزجاج ·

٢ ـ وبما تتناقله كتب النحو من اقوال لهم ·

٣ ـ وبمصنفاتهم التى وقعت لنا ، كالانتصار لابن ولاد ، والتفاحة لابى جعفر النحاس ، والمقدمة المحسبة لابن بابشاذ ·

٤ ـ وبعنايتهم بمصنفات البصريين ككتاب العين ، وكتاب سيبويه ،وكتاب الجمل ، واقبالهم على اقرائها وشرحها والتعليق عليها ·

غير ان الدكتور (ضيف) جعل منهم نحاة فى اتجاه المدرسة البغدادية ، لانهم كانوا يعنون باستيعاب آراء المدرستين وهذا عنده هو الاساس فى عدهم فى المدرسة البغدادية ، او وضعهم فى اتجاهها · ولم يكتف بهذا فقد راح يتمحّل الاسباب ويتكلف القرائن لجعل هؤلاء رجال مدرسة جديدة هي المدرسة المصرية ، ووضعهم فى اتجاه المدرسة البغدادية ، ولم يقدم لاثبات هذا الا مزاعم مرسلة ، واحكاما مطلقة ·

وربما تشبث بالواهي من القرائن ، فشرع يدور حول فكرة المذهب البغدادي ، كما فعل عندما عرض لابي جعفر النحاس ، فقد تمسك ، لجعله في المدرسة البغدادية ، بانه كان قد استوعب آراء الكوفيين ، لانه اصطنع بعض مصطلحات الكوفيين في كتابه (التفاحة) ، ولانه «قد يختار رأيا لقطرب ، او للاخفش مخالفا جمهور البصريين » (١٧) ، ولانه قد يتفق في بعض آرائه مع بعض آراء الكوفيين ·

---

(١٧) المدارس النحوية ٣٣٢ ·

كان الدكتور ضيف متعجلا فى هذا ، كان يرسل الكلام ارسالا قبل التأكد من سلامته ، وقبل بذل الجهد في استخلاصه ٠ لقد نسب بعض المصطلحات التي استعملها النحاس الى الفراء ، مثل (النعت) ، و (مالم يسم فاعله) ، وجعل هذا دليلا على ان النحاس كان يستوعب آراء البصريين ، واراء الكوفيين ٠ وكان الدكتور ضيف فى هذا على وهم ٠

أما (النعت) فليس مصطلحا خاصا بالكوفيين ، وليس من اوضاع الفراء ، فقد كان سيبويه يستعمله ويردده ، وقد جاء لفظ (النعت) و (المنعوت) في أكثر من موضع من كتابه ، وعقد للنعت فيه أكثر من باب ٠

من ذلك قوله : « هذا باب مجرى النعت على المنعوت ، والشريك على الشريك ، والبدل على المبدل منه ، وما أشبه ذلك ٠ فأما النعت الذى جرى على المنعوت فقولك : مررت برجل ظريف قبل ، فصار النعت مجرورا مثل المنعوت ، لانهما كالاسم الواحد » (١٨) ٠

واما (ما لم يسم فاعله) فمصطلح كوفي ، واكبر الظن انه من اوضاع الفراء فقد تردد ذكره فى (معاني القرآن) كثيرا ، ولكن استخدام النحاس اياه لايخرجه من الدائرة البصرية ، فقد جرى مثله على لسان المبرد وابن السراج ،وهما من اعلام البصريين،لايشك الدكتور (ضيف) فى ذلك ، ولا يورط نفسه فيخرجهما من الدائرة البصرية ، كما اخرج النحاس منها ٠ جاء فى المقتضب للمبرد قوله : « باب المفعول الذى لايذكر فاعله» (١٩) ٠ وجاء في (الموجز فى النحو) لابن السراج قوله : «الرابع : الذي لم يسم من فعل به ، وبني له فعل خص به نحو قولك:ضُرِبَ زيد ، وأُخرِجَ خالد ٠ ودُحرِجَ الشيء ، واستُخرِجت الدراهم» (٢٠) والعبارتان متقاربتان حتى ليوشك أن تكونا شيئا واحدا ، فاذا كان المبرد وابن

(١٨) الكتاب ١/٢٠٩ ، ٢١٠ ٠

(١٩) المقتضب ٤/٥٠ ٠

(٢٠) الموجز فى النحو ٣٠ ٠

السراج قد استعملا مصطلح الفراء بمعناه فقد كانا متأثرين به ، ويلزم الدكتور (ضيف) حينئذ أن يجعلهما في البغداديين ، كما جعل النحاس فيهم ، ولكنه جعلهما في (مدارسه) من أعلام المدرسة البصرية ، بالرغم من تعمق ابن السراج خاصة فى مصنفات الكوفيين ومتابعته اياهم فى كثير من الآراء ، فقد وافق ثعلبا والفراء والكسائي فذهب ، كما ذهبوا ، الى أن (ليس) حرف ، وقد مر بنا بيانه · ووافق الكوفيين في جواز أن يلي غير الظرف (كان) مع تأخير الخبر ، تمسكا بقول الشاعر :

« بما كان ايّاهم عطية عوّدا »(٢١) ·

وافق الكسائي واكثر الكوفيين فى جواز اعمال (ان) النافية (٢٢) · ولم يسترع ذلك انتباه الدكتور ضيف ، فيسلك ابن السراج فى المدرسة البغدادية ، كما ، سلك ابن كيسان فيها لانه وافق الكوفيين فى بعض المسائل · وكما سلك النحاس فيها لان بعض مصطلحات الكوفيين ترد فى كتابه (التفاحة) ·

واما اختيار النحاس رأيا لقطرب ، او للأخفش مخالفا لجمهور البصريين فلا يُخرج النحاس عن الدائرة البصرية ، كما لو يُخرج قطربا والاخفش عنها أنهما خالفا جمهور البصريين ·

وأما موافقة النحاس لبعض الكوفيين في بعض الاراء فآمل ألاّ يحاول به الدكتور ضيف اقناعنا بأن اتباع مذهب بعينه يعني اغلاق التابعين عقولهم ، وتجميدها ، حتى لا يؤذن لهم ان يتخذوا لانفسهم وجهة نظر خاصة ، لان ذلك لم يكن ليحدث يوما ، فقد كان اعلام مدرسةالبصرة انفسهم يختلفون فيمابينهم، فقد خالف سيبويه أستاذه فى ذهابه الى أن (لن) أصلها : (لا أن) ، وفي مسائل اخرى معروفة لامجال لذكرها · وخالف الاخفش سيبويه ، وخالف

---

(٢١) همع الهوامع ١/١٢٤ ·
(٢٢) همع الهوامع ١/١٢٤ ·

المبرد سيبويه ، ونقض كثيرا من آرائه . وكان اعلام مدرسة الكوفة يختلفون فيما بينهم أيضا فقد خالف الفراء الكسائي وهشاما في كثير من الآراء ، وخالف ثعلب" الفراء وهشاما والكسائي في كثير من الاراء ، ولم تكن هذه المخالفة لتحول حتى عند الدكتور ضيف ، دون ان يُسلَك الاخفش والمبرد فى البصريين ،والفراء وثعلبا في الكوفيين ، فكيف يريد منا ان نقتنع ببغدادية ابن كيسان والزجاجي والنحاس وغيرهم بمخالفتهم جمهور البصريين فى بعض آرائهم ؟

والنحاة المصريون ، عند الدكتور ضيف ،ثلاثة أجيال :

جيل ولاّد وبنيه ، وهو جيل من النحاة « كانت المدرسة البصرية اساتذتها غالبا وجهتهم فى بغداد ، وخير من يصور ذلك ابو العباس بن ولاد تلميذ الزجاج صاحب المبرد» (٢٣) .

وجيل النحاس ومن جاء بعده ، وهو جيل من النحاة كانت في بغداد ممثلة بابن كيسان ومعاصريه ، ولم يكن النحاس بعيدا عنها ، وكان قد اختلف كالبغداديين الى أصحاب ثعلب ، وسمّى ـ الدكتور ضيف ـ منهم أبا بكر بن الانباري ، ولايشك الدكتور ضيف أن النحاس كان قد اختلف أيضا الى حلقات ابن كيسان ومعاصريه من أوائل البغداديين ، فالتحم « نحو المدرسة البصرية بنحو المدرسة البغدادية » (٢٤) .

وجيل النحاة المصريين المتأخرين ، جيل الشراح واصحاب الحواشي ،مثل ابن عقيل وابن الصائغ والدماميني والكافيجي والسيوطي والازهري والاشموني والصبان والخضري ، وهو جيل الجماعين الملفقين الذين حشدوا فى مصنفاتهم آراء النحاة الاولين من بصريين وكوفيين و (بغداديين واندلسيين ومصريين) ، ولم يبد عليهم انهم ، اذ كانوا يختارون هذا الرأى أو ذاك ، كانوا يصدرون عن

(٢٣) المدارس النحوية ٣٣١ .

(٢٤) المدارس النحوية ٣٣١ .

أسس مذهبية ، ولم يبد على الدكتور ضيف انه استطاع ان يرسم لهم نحــوا له اصوله واسسه المذهبية ، فقد استعرض اسماءهم وكتبهم ، ولم يشــر الى ما ينتظمهم من اسس مذهبية معينة ·

فاذا كان الجيل الاول منهم بصريا ، والجيل الثانى منهم فىاتجاه المدرسة البغدادية ، والجيل الثالث فى اتجاه غير معروف فكيف تنتظمهم مدرسة بعينها، وليس لهم خط مذهبى ولا طريقة يتناولون فى ضوئها موضوعات النحو بالدرس؟! اليست هذه المحاولة الهازلة فى عرض المدارس النحوية مما يسىء الى روعة البحث العلمى الجاد ؟

٢ ـ الدرس النحوي في الاندلس :

لم يَحُلْ بُعْدُ الاندلس عن امصار العلم دون الوصول اليها،والوقوف على ماكان يجري فيها ، ولا جعلها انفصالها عن قاعدة الخلافة في المشرق في عزلة عن المشرق والمشارقة ، فقد كان الدارسون الاندلسيون بعد ان يستوفوا متطلبـات الدرس الاولى بتعلم مبادىء العربية ودراسة النصوص والاشعار يتجهون بابصارهم الى المشرق لطلب المزيد من العلم ، وكان يدفعهم الى ذلك حرصهم عـلى القــرآن وسلامة لغته والتجويد في تلاوته وضبطه ·

وكانت الطبقات الاولى من الدارسين يرحلون الى المشرق لتلقي القــراءة والحديث ، ثم الرواية اللغوية والادبية التي يستعينون بها على تحقيق ماكانــوا يحرصون عليه ، فاذا عادوا من رحلتهم تصدروا مجالس الدرس ، وبثوا فــي تلاميذهم ماكانوا قد تلقوه في رحلاتهم ·

وكان في مقدمة هؤلاء : أبو موسى الهواري الذي جعله أبو بكر الزبيــدي على رأس الطبقة الاولى من النحاة الاندلسيين ، وكان أبو موسى « من أهل الفقـه في الدين وعلم العرب »(٢٥) ، وقد لقي مالكا في المدينة ، والاصمعى وابا زيــد

(٢٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٥ ·

في البصرة ، ولعله كان اول من صنف فى الاندلس كتابا في القراءة ، وكتابا في تفسير القرآن الكريم ٠

وكان الغازى بن قيس يعاصره ، وكان قد رحل الى المشرق ايضا ، ولقي مالكا ، ونافع بن أبى نعيم مقرىء اهل المدينة ، واخذ عنهما الحديث والقراءة ورجع الى الاندلس ومعه «الموطأ» وقراءة نافع ، وتوفى سنة ١٩٩ للهجرة ٠

ولم يُعْنَ ابو موسى الهوارى والغازى بن قيس بغير الفقه والحديث والقراءة فقد كانت العبادة والتفقه فى الدين اغلب عليهما ٠

هذه هى الطبقة الاولى من الدارسين الاندلسيين ، وكان اعلامها معنيين بالدراسات القرآنية والحديث ، واذا كان لقي بعضهم بعض أئمة اللغة فى البصرة فلم يكن الدافع رغبة فى الدرس اللغوى ، او التخصص فيه ، ولكن الدافع فيما يبدو هو الرغبة في ضبط القراءات والاحاديث ٠ فلا وجه لجعلهما وامثالهما فى عداد اللغويين او النحويين الاندلسيين ٠

ويغلب على الظن ان الدرس النحوى فى الاندلس انما بدأ بجودي بن عثمان (توفى سنة ١٩٨) ، وكان قد رحل الى المشرق ، وكانت بغداد غاية مطافه ، وفيها لقي الكسائى والفراء وغيرهما من البغداديين ، واستملاهما ، واخذ عنهما ، ثم عاد الى الاندلس وهو يحمل كتاب الكسائى(٢٦) ٠ واقام فى قرطبة، وتصدر حلقة للاملاء والتدريس ، ولابد انه كان ينحو منحاة البغدايين ، الكوفيين ، لانه لم يلق غير الكسائى والفراء واصحابهما ، وكلهم بغدادى ، ولم يأخذ النحو عن بصرى ٠

أما كتاب الكسائى الذى ادخله الاندلس فلعله كتاب المعانى الذى تشير اليه كتب الطبقات ، وعلى هذا يكون جودى بن عثمان الدارس الاول للنحو

---

(٢٦) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨ ٠

البغدادى الكوفى فى هذه البلاد ، ويكون الدرس النحوىّ الذى عرفته الاندلس أول مرة هو الدرس البغدادىّ .

وغبر جودىّ بن عثمان يملّ على تلاميذه نحو الكوفيين ، ويصنف فى النحو على طريقة الكوفيين حتى توفي سنة ١٩٨ للهجرة ، وكان قد أخذ عنه جماعة كان منهم : عبدالله بن رافع المعروف بابى حرشن الذى جعله الزبيدىّ على رأس الطبقة الثانية من النحويين الأندلسيين . وكان أبو حرشن عالما باللغة والعربية ، وكان معروفا بالفصاحة حتى « كان الناس اذا استفصحوا رجلا قالوا : ما هذا الاّ ابو حرشن »(٣) .

وعن أبى حرشن اخذ عبدالملك بن مختار ، واحمد بن بُتريّ ، وكان هذا فقيها ونحويا ولغويا ، وكان هذا الدارسان من الطبقة الثالثة في تصنيف الزبيدىّ للنحاة الأندلسيين .

وممن كان على مذهب البغداديين الكوفيين من نحاة الاندلس :

أبو الحسن مفرج بن مالك ، وكان قد صنف كتابا فى شرح كتاب الكسائى(٤) .

وابو عمر يوسف بن محمد البلوطىّ « وكان حافظا للغة ، وذا حظ من العربية » وكان يقريء كتاب (اصلاح المنطق) ليعقوب بن السكيت(٥) .

وسعيد بن قدامة البلوطىّ . قال الزبيدىّ : « كان مؤدبا ، عالما بالعربية، وكان يميل الى مذهب الكوفيين»(٣٠) . اما النحو البصرىّ فقد تأخر ظهوره فى الأندلس ، وكان الأفشنيق محمد بن موسى بن هاشم من أوائل من حمله الى

---

(٢٧) طبقات النحويين واللغويين ٢٨١ .

(٢٨) نفسه ٢٩٧ .

(٢٩) نفسه ٣٢٣ .

(٣٠) نفسه ٣٢٣ .

الاندلس وأذاعه فيها ، فقد رحل الى المشرق ، ولقي البصريين ، وأخذ عن ابى عثمان المازنى ، وابى على الدينورى ، وقرأ عليهما كتاب سيبويه ثم انتسخه عن نسخة أبى على ، وحمل النسخة معه الى الاندلس ، وكان هذا فيما يبدو، هو اول عهد الاندلسيين بكتاب سيبويه ، ثم اخذ الأفشنيق بعد عودته الى الاندلس يقرىء الكتاب ، وأخذه عنه جماعة من الدارسين كانوا حفظة له ، وحملة للنحو البصرى ، وتوفي الافشنيق سنة ٣٠٧ او ٣٠٩ للهجرة(٣١) ٠

وممن كان ينحو منحاة أهل البصرة من الاندلسيين :

زيد بن الربيع بن سليمان الحجرى المعروف بالبارد ٠ كان معاصرا للافشنيق ٠ وكان ، كما يقول الزبيدى حسن الضبط للكتب ، وكان معنيا بكتاب الأخفش ، وكان هذا الكتاب قد وصل الى الاندلس متفرق الأبواب ، وكان الزبيدى قد رأى النسخة الأولى فرآها مفترقة الأبواب ، وكان البارد هو الذى رتب ابوابه ٠ وجمع بينها ، فأخذه الدارسون عنه مبوبا مجموعا ، وتوفى البارد سنة ٣٠٠ للهجرة(٣٢) ٠

وأبو وهب بن عبدالرؤوف « وكان قد طالع كتاب سيبويه ونظر فيه»(٣٣) ٠

ومحمد بن عبدالله بن الغازى ، وكان قد رحل الى المشرق ، ولقي أبا حاتم السجستانى والرياشى واخذ عنهما ، ولقى آخرين من أهل الحديث ، ورواة الاخبار والاشعار ٠ وعاد الى الأندلس ، وأدخل معه علما كثيرا من العربية والشعر والاخبار ، توفى سنة ٣٠٢ للهجرة(٣٤) ، أو سنة ٢٩٦ اونحوها(٣٥) ٠

---

(٣١) طبقات النحويين ٣٠٥ ٠ بغية الرعاة ١/٢٥٢ ٠
(٣٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٠٨ ٠ بغية الرعاة ١/٥٧٣ ٠
(٣٣) طبقات النحويين واللغويين ٣٢١ ٠
(٣٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٨٢ ٠
(٣٥) بغية الرعاة ١/١٣٩ ٠

وأحمد بن يوسف بن حجاج ، وكان من أعلم الناس بمذهب اهـل البصرة ، وأشدهم لزوما للكتاب ، لأنه لم ين عن مطالعته وقراءته في حال فراغه وشغله ، وصحته وسقمه ، كما يقول الزبيدي .

ومحمد بن يحيى الرباحي ، وكان من أنشط الداعين الى مذهب البصريين ، وكان قد رحل الى المشرق ، ولقي أبا جعفر النحاس ، وحمل عنه كتاب سيبويه رواية ، وكان أبو بكر الزبيدي من انبه تلاميذ الرباحي ، وأكبر الداعين الى مذهب البصريين .

وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي صاحب (الواضح) في النحو ، و (مختصر كتاب العين) و (طبقات النحويين واللغويين) ، أخذ الرباحي ، عن أبي على القالى ، وكان قد عرف فضله « فمال اليه وأختص به وأقر له »(٣٦) .

وبرز بعد الزبيدي من الدارسين :

أبو عبدالله محمد بن عاصم ، وكان قد أخذ عن الرباحي والقالى ايضا . وقد ذكره الحميدي فقال : « هو نحوى مشهور وامام في العربية ... وكان لا يقصر عن أصحاب محمد بن يزيد المبرد »(٣٧) .

واحمد بن أبان بن سيد اللغوي الاندلسي وكان من أئمة اللغة والعربية فى الأندلس . وأخذ عن القالى وغيره ، وله كتابان ، كتاب (العالم والمتعلم) وكتاب (شرح كتاب الأخفش) .

ثم خلف من بعد هؤلاء خلف كانت البصرية هى السمة البارزة فى نحوهم، وكانوا قد اقبلوا على مصنفات البصريين ، يأخذون عنها ، ويشرحونها ، ويصنفون الكتب فى شرح شواهدها .

(٣٦) جذوة المقتبس ١٦٥ .

(٣٧) جذوة المقتبس ٧٤ . بغية الرعاة ١/١٢٣ .

ومن اوائل هؤلاء :

أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا الزهريّ الاندلسيّ المعروف بابن الافليليّ . كان قد أخذ عن أبى بكر الزبيديّ . وروى عنه كتاب الأمالى لأبى علىّ القالى(٣٨) .

والأعلم الشنتمرى يوسف بن سليمان بن عيسى المتوفى سنة ٤٧٦ للهجرة أخذ عن الافليليّ(٣٩) ، وله شرح لأبيات سيبويه سماه « كتاب تحصيل الذهب من معدن جواهر الأدب فى علم مجازات العرب » وهو الشرح الذى ذيّل به الكتاب فى طبعة بولاق . وشرح كتاب (الجمل) للزجاجيّ وشرح شواهد الجمل(٤٠) . كان ينزع الى البصرة . وكان ابن مضاء يقول : «وكان الأعلم رحمه الله على بصره بالنحو مولعا بهذه العلل الثوانى ، ويرى أنه اذا استنبط منها شيئا فقد ظفر بطائل »(٤١) .

وابن السيّد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسيّ (توفي سنة ٥٢١هـ) وكان ممن عُني بجمل الزجاجى فصنف كتاب « اصلاح الخلل الواقع فى الجمل» وكتاب «الحُلَل فى شرح أبيات الجمل » .

وابن الباذش علي بن أحمد بن خلف الأنصاريّ الغرناطيّ (توفى سنة ٥٢٨ هـ) ، وكان له من المصنفات : شرح كتاب سيبويه ، وشرح كتاب المقتضب للمبرّد ، وشرح أصول ابن السراج ، وجُمَل الزجاجيّ ،وايضاح الفارسيّ والكافى لأبي جعفر النحاس(٤٢) .

---

(٣٨) معجم الادباء ٢٠/٦٠ . بغية الرعاة ٢/٣٥٦ .
(٣٩) معجم الادباء ٢٠/٦٠ . بغية الرعاة ٢/٣٥٦ .
(٤٠) معجم الادباء ٢٠/٦٠
(٤١) الرد على النحاة ١٦٠ .
(٤٢) بغية الرعاة ٢/١٤٢ .

وابن الطراوة سليمان بن محمد (توفى سنة ٥٢٨ هـ) وكان تلمذ للأعلم الشنتمرى ، وسمع عليه كتاب سيبويه ، ومن مصنفاته كتاب « المقدمات على كتاب سيبويه » ، ومقالة فى الاسم والمسمى(٤٣) .

وابن طاهر محمد بن أحمد ، توفى عشر الثمانين وخمس المئة للهجرة . تلمذ لابن الرماك ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، ثم أقرأ الكتاب جماعة منهم ابن خروف ، ومصعب الخشنى(٤٤) .

والسهيلى أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله (توفى سنة ٥٨١ هـ) ، وكان تلمذ لابن الطراوة وابن طاهر ، و « كان عارفا بعلم الكلام والأصول »(٤٥)، وكان كالأعلم مشغوفا بالعلل واستخراجها ، وقد أشار اليه ابن مضاء ناعيا عليه ذلك ، فقال : « وكذلك كان صاحبنا الفقيه أبو القاسم السهيلى على شاكلته - يعنى الأعلم - رحمه الله ، يولع بها ، ويخترعها ، ويعتقد ذلك كمالا فى الصنعة وبصرا بها »(٤٦) .

وابن خروف علي بن محمد (توفى سنة ٦٠٩ هـ) ، وكان أخذ النحو عن ابن طاهر . ومما صنف : كتاب شرح سيبويه ، وكتاب شرح الجمل(٤٧) .

والشَّلَوْبين عمر بن محمد (توفى سنة ٦٤٥ هـ) وكان قد روى عن السهيلى ، وصنف تعليقا على كتاب سيبويه(٤٨) .

وابن هشام الخضراوى محمد بن يحيى الخزرجى الاندلسى (توفى سنة ٦٤٦ هـ) وكان تلمذ لابن خروف وتلمذ له جماعة منهم الشلوبين ،

(٤٣) بغية الرعاة ٦٠١٤/١ .
(٤٤) بغية الرعاة ٢٨/١ .
(٤٥) بغية الرعاة ٨١/٢ .
(٤٦) الرد على النحاة ١٦٠ .
(٤٧) بغية الرعاة ٢٠٣/٢ .
(٤٨) بغية الرعاة ٢٢٥/٢ .

وكان من مصنفاته : «الافصاح بفوائد الايضاح» و (شرح الايضاح) و (غـــرر الاصباح في شرح ابيات الايضاح)(٤٩) ٠

وسار الدرس النحوي هذه المسيرة الرتيبة ، وتعاقب الدارسون ، وهـم يتسمون بانهم ينزعون نزوعا بصريا واضحا ، يلاحظ الـــدارس ذلك حيـــن يستعرض الشيوخ الذين اخذوا عنهم ، والمصنفات التى صنفوها ٠ حتى ليـكاد النحو عندهم لا يتجاوز حدود ما رسمه المبرد والزجاج والزجاجي وابو عـــلي الفارسي واصحابهم ، ولم يلاحظ فيما صنفوا أو قالوا شيئا جديدا يمـــكن أن يعد اضافة ٠ فنحوهم اذا أردنا الى اجمال القول فيه ليس فيه اصالة ، ولا ابداع ٠ كل ما هنالك شروح لمؤلفات القدماء كالمقتضب والجمل والايضــاح ، وغلو فى التعليل حتى صار النحو عندهم كما صار عند معاصريهم من المشارقـــة علم القياس والتعليل ، فاذا اراد احدهم ان يظهر عـــلى معاصريه ظهر عليهم بما يخترع من علل ، وبما يجرد من قياس ، ويعتقد ذلك كمالا فى الصنعة وبصراً بها على حد قول ابن مضاء فى غمزه الأعلم والسهيلي ٠

اما النحو البغدادى (الكوفى) فقد انكمش ظله بعد أن انبسط فى الأندلس زمنا طويلا ، ولكنه لم يضمحل ، فقد استطاع ان يثبت وجوده فى اعـــــلام من الدارسين ساءهم ما آل اليه امر هذا الدرس حتى استطاع ان يظهر وهـــو ينبض قوة فى دعوة ابن مضاء الى احياء هذا الدرس ، وفى رده على النحاة ٠

وابن مضاء هو ابو العباس احمد بن عبدالرحمن بن محمـــد بن مضـــاء اللخمي القرطبي ٠ وكان دارسا طُلَعة ، ألمّ بكثير من ثقافات عصره ، واتصل بكثير من علمائه ٠ ارتحل الى اشبيلية فلقي عبدالرحمن بن محمـــد الاشبيلي المعروف بابن الرمّاك ، فقرأ عليه كتاب سيبويه ، وقرأ عليه وعـــلى غيـــره

(٤٩) بغية الرعاة ١/٢٦٧ ٠

كتبا كثيرة فى النحو واللغة ، ولاشك ان هذه الكتب التى قرأها على ابن الرماك وغيره كانت متنوعة الاتجاهات ، ولاشك ان من بينها كتبا كوفية كانت الأندلس قد عرفتها قبل ابن مضاء .

وبعد ان استكمل ما كان ينبغى استكماله فى الدرس النحوىّ هاجر الى المغرب ، ولقي القاضى عياضا اكبر فقهاء المغرب ومحدثيه ، واخذ عنه الفقه والحديث ، ولقي القرّاء واخذ عنهم القراءة فعاد مقرئا مجوّدا ، ومحدثا مكثرا، وفقيها رفعته فقاهته الى منصب قاضى الجماعة ، وصار « رُحلة فى الرواية وعمدة فى الدراية »(٥٠) .

وله فى النحو ثلاثة مصنفات : المشرق فى النحو ، والردّ على النحاة ، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان . ويبدو ان ابن مضاء فى هذا الكتاب قد تناول بالتجريح مناطقة النحاة المتأوّلين ، ولذلك تصدّى ابن خروف للردّعليه بكتاب سماه : « تنزيه أئمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو » .

ولابد ان يكون ابن مضاء قد اختلف الى شيوخ كثيرين ، ووقف على مصنفات القدماء والمتاخرين ، ولم يخف على من كان له فطنته وذكاؤه أن يدرك الفرق بين أول النحو وآخره ، وان يحسّ بمدى الانحراف الذى ابعده عن النهج الذى كان ينبغى ان ينتهجه ، ويتبيّن مآل هذا الدرس الحيوىّ عند هؤلاء الدارسين المعاصرين الذين شغلوا بالفروع عن الاصول ، وامعنوا فى الخوض فيما لا جدوى فيه للدرس ، ولا للدارسين ، وتسابقوا الى ولوج باب الجدل العقيم فى مسائل افترضوها ، واطالوا الكلام عليها ، وراحوا يفسرون الظواهر النحوية بالتفسير العقليّ الذى خرج بالنحو عن ميدانه ، واضاعوا الجهود فى متاهات الجدل ، وتقليب المسألة النحوية ، او اللغوية على وجوهها العقلية المحتملة ، حتى ابتعدوا عن الغاية التى يرمى اليها الدرس النحوى او اللغوى .

(٥٠) بغية الرعاة ١/٣٢٣ .

ولابد ان يكون ابن مضاء قد ضاق ذرعا بما وقف عليه من تمحل النحاة، وابتعادهم عن القصد ، وكان له من الجرأة ان يقف فى وجه هذا التيار الذى لا يعرف حدا يقف عنده ، وان يتصدّى لهؤلاء الدارسين السادرين فيدلّهم على النهج السوىّ الذى انتهجه الدرس النحوى قبل ان ينحرف عنه ، وينبههم الى المنطلق الذى انطلق منه اول مرة ، ويرسم لهم طريق العودة الى الصواب .

واذا لم يكن فى ذهن ابن مضاء فكرة واضحة عن منهج البحث النحوىّ الذى يجب ان يقوم عليه الدرس فلابد أنه كان يدرك فرق ما بين أوائل النحاة ومتأخريهم ، وبداية الدرس النحويّ وما آل اليه أمره فى زمانه .

وليس مستغربا ان يضيق ابن مضاء الفقيه والمقرىء والراوية بما تمحّله النحاة ، وبما « التزموا بما لا يلزمهم ، وتجاوزوا فيها – يعنى صناعة النحو – القدر الكافى فيما أرادوه منها ، فتوعرت مسالكها ، ووهنت مبانيها ، وانحطت من رتبة الاقناع حججها »(٥١) .

ولم يوجه ابن مضاء الى الكوفيين ما طعن به على البصريين ، وهذا يشير الى انه كان نحويا على مذهب الكوفيين ، او أنه كان يرى نفسه بجانب الكوفيين . وليس من قبيل المصادفة أنْ يكون الكسائىّ على رأس هذا المذهب ، لأن ثقافته القرآنية القائمة على السماع والرواية هى التى وجهته قِبَلَ المذهب الكافىّ الظاهرىّ السلفىّ . وليس من قبيل المصادفة ايضا ان يدعو ابن مضاء الى الغاء تقدير ما يتعلق به الظرف او المجرور ، فعدم تقديره رأي للكوفيين معروف ، لان الخبر فى مثل قولهم : زيد فى الدار ، هو « الجار والمجرور » لا المقدّر المحذوف .

(٥١) الرد على النحاة – المقدمة .

(٥٢) الرد على النحاة ١٥١ .

وليس من قبيل المصادفة ان يرى ابن مضاء أنّ من الصواب أنْ يقال لمن سأل عن علة رفع الفاعل : « كذا نطقت به العرب » فقد سبقه الكسائيّ الى مثله ، فقال حين سئل عن (أيّ) وعن اختلاف احوالها ، وتعليل ذلك الاختلاف : «أيٌّ كذا خلقت » .

ومعنى هذا في وضوح ، ان ابن مضاء كان نحويا على مذهب الكوفيين ، وكان قد اتخذ من الرواية اساسا لعلمه ودراسته وهذا هو الأساس الذى كان الكسائيّ قد بنى عليه ما رسم من مذهب . ومن اجل هذا صحح ابن مضاء رأى الكسائيّ فى جواز خلوّ الفعل من الفاعل .

فابن مضاء ، فى دعوته ، لم يخرج عن الخط الكوفىّ العام ، لأن الاساس الذى بنى عليه دعوته الى الغاء العلل والتأويلات هو الاساس اللغوىّ الذى بنى الكوفيون مذهبهم عليه .

أطلت الوقوف عند ابن مضاء لابيّن أمرين :

الاول ــ أنّ ابن مضاء نحوىّ على مذهب الكوفيين ، واذا لم يعلن عن انتسابه اليهم فأقواله والامثلة التى عرضها تنمّ على ارتباطه بالكوفيين ومذهبهم .

والثانى ــ انّ الدارسين المحدثين ربما اتخذوا من دعوة ابن مضاء اساسا بنوا عليه زعمهم أنّ مذهبا نحويا جديدا نشأ فى الاندلس لم يكن للدارسين عهد بمثله .

وقد وضح مما أجريت فى هذه الوقفة الطويلة من موازنة بين ما ذهب اليه ابن مضاء ، وما كان الكوفيون قد ذهبوا اليه من قبل انّ ابن مضاء لم يجرد دعوته هذه ليذيع فى الدارسين مذهبا نحويا جديدا ، ولكنه فعل ذلك انتصارا لمذهبه الكوفى الذى لم يجهر بالدعوة له .

فاذا كان ابن مضاء قد سلك هذا المسلك ، فانما سلكه ، لان النحو الكوفيّ كان قد عرف فى بيئات الدرس الأندلسية قبل ان يعرف الدرس البصريّ فيها . واذا دعا ابن مضاء الى ابطال القياس ، والغاء العلل الثوانى والثوالث ، والغاء التقديرات فذلك ان النهج الكوفيّ الذى عرفه قد لقي قبولا عنده ، وصادف هوى فى نفسه . واتفاقا مع مذهب الظاهريين الذى كان ابن مضاء يمثله اتم تمثيل . وليس ما قام به ابن مضاء فى دعوته هذه حدثا جديدا ولكنه تطبيق لمذهب الكوفيين الذين كانوا ينزعون فى دراسة اللغة والنحو والقراءة نزوعا سلفيا واضحا ، والذين كانوا مع النقل والسماع ، لا يخفرون له ذمة ، ولا ينقضون له عهدا « ويهون على الكوفيّ نقض اصل من أصوله ، ونسف قاعدة من قواعده ، ولا يهون عليه اطّراح المسموع »(٥٣) .

ففكرة (المدرسة الاندلسية) فى اكبر الظن ، كانت مستوحاة من عمل الزبيدى فى طبقاته ، لانه خصص للنحويين واللغويين الاندلسيين مكانا خاصا فى طبقاته باراء البصريين والكوفيين ، فأوهم بوجود مذهب اندلسىّ .

غير انّا رأينا ان الدرس النحوىّ ، حتى زمان الزبيدىّ ، لم يختلف فى شيء عما كان فى بغداد والبصرة ، والنحاة الذين سبقوه لم يكونوا الاّ نقلة لنحو بغداد والبصرة ، أو شراحا لمصنفات البغداديين والبصريين ، والنحاة الذين ترجم لهم فى طبقاته امّا متابعون للكوفيين ، أو متابعون للبصريين ، ولم يكن من بينهم من أضاف الى النحو المشرقىّ شيئا ، او نزع منزعا ليس بالبصرىّ ولا بالبغدادى الكوفىّ .

ويبدو ان ما اوهم به الزبيدىّ كان قد جاز على الدارسين المحدثين فقالوا بوجود مدرسة اندلسية . وتمحلوا القول فى التحدث عنها . ومن بين من ذهب الى ذلك من الدارسين المحدثين :

---

(٥٣) نظرات فى اللغة والنحو ١١ .

طه الراوي ، وكان قد نشر له مقال في المجلد الرابع عشر من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ج٩/١٠ ص٣١٩) وكان عنوانه : (نظرة في النحو) ثم طبع هذا المقال حديثا مع مقالات اخرى في كتاب (نظرات في اللغة والنحو) .

صنف (الراوي) النحاة فذكر أنهم بصريون وكوفيون وبغداديون واندلسيون ، وان مذاهب النحاة بحسب هذا التصنيف أربعة مذاهب هي أمات المذاهب في النحو ، أما ماتفرع منها فمذاهب كثيرة ، قال : انها يعسر حصرها (٥٤) .

اذا استقام هذا التقسيم الرباعي بالنظر الى الدارسين بحسب أقطارهم فلن يستقيم بالنظر الى المنازع او المذاهب ، واذا اقنع الدارسين بوجود المذهبين الرئيسين ، أعني مذهب البصريين ومذهب الكوفيين بعرض الاسس المذهبية التي بُني عليها المذهبان فلا أظنه مقنعا اياهم بوجود مذهب البغداديين ومذهب الاندلسيين،لانه لم يفلح فيعرض خصائص المذهبين او سماتهما ، وكلّ ما قاله فيهما لايعدو أن يكون دعوى مرسلة لم تؤيد بالدليل ، ولا دُعِمت بالشواهد .

وخلاصة الاسس المذهبية للبغداديين عنده هي : « الولع بالتوسع في الروايات ، والتباهي بالترخيصات ، والتفاخر بالنوادر والطرائف حتى ابتعدوا عن أصول أشياخهم ، واستوى لديهم مذهب انحاز عن مذهب اسلافهم عُرِف بمذهب البغداديين »(٥٥) .

وخلاصة الاسس المذهبية للاندلسيين عنده هي أنّهم : « أطالوا النظر فيه - أي فيما أصّله العراقيون وما فرّعوه - ووقفوا على ما بين تلك المذاهب من خلاف ووفاق ، ومايستند اليه كل فريق من رواية ودراية ، فشقوا لهم طريقا سويا كان عمودهم فيه مذهب البصرية » (٥٦) .

(٥٤) نظرات في اللغة والنحو ١٠ .
(٥٥) نظرات في اللغة والنحو ٩ .
(٥٦) نظرات في اللغة والنحو ١٠ .

وليس فيما تحدث به عنهما ما يصلح ان يكون اساسا مذهبيا ، أو سمة أسلوبيّة بآية أنه لاحظ ان المذهب البصري عمود الاندلسيين في الطريق التي شقوها في دراستهم اللغة والنحو ٠ وأية مزية بقيت للدرس النحوى في الاندلس اذا كان عمودهم هو مذهب البصريين ؟ !

أما ماكان يشير اليه من مخالفة الاندلسيين للبصريين فمرده وجهة نظر خاصة لا تُخرِج صاحبها من حدود المذهب الذى ينتسب اليه ، كما لم تخرج الفراء من حدود الدائرة البغدادية الكوفية مخالفته للكسائي مثلا ، ولا أخرجت المبرد من حدود المذهب الذي ينتسب اليه مخالفته سيبويه ، ونقضه كثيرا من آرائه ٠

ومحمد الطنطاوى في كتابه : (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة) ، فقد عرض لطوائف النحاة الاربع التي سبق لطه الراوى أن عرض لها ، وكان موقفه من المذهب البغدادي والمذهب الاندلسى كموقفه ، واعتلاله لوجودهما كاعتلاله الا زيادات لا غناء فيها ٠ وكل ما علل به لمذهب الاندلسيين هو « أنهم عدلوا عن بعض آراء المشارقة في النحو ، وخالفوهم في منهاج تعليمه وتدوينه ، واستدركوا عليهم مسائل فاتتهم ، وبذلك استحدثوا مذهبا رابعا عرف بمذهب المغاربة او الاندلسيين » (٥٧) ٠

ان هذا الخلاف الذي أشار اليه لا يمسّ الاسس ، ولا يخرج عن الخطّ العامّ للمذهب ، ولذلك لا يصلح أنْ يكون أساسا مذهبيّا يقوم عليه استحداث مذهب رابع ، لان الخلاف قد يقع بين اتباع المذهب الواحد ، كما بيّنا غيرمرة٠

فما قدمه الدارسان الفاضلان لتقرير فكرة تعدد المذاهب في اذهان الدارسين انما هومحض افتراضما زال يفتقرالى الدلائلوالشواهد،ولم يفلحا فىتقديم هذه الدلائل بما عرضاه من حديث لايقتصر على الاندلسيين او من سمياهم بالبغداديين وحدهم ولكنّه يصدق على رجال المذهبين الرئيسيين الذين تناولوا اصول أشياخهم بالتعديل ، او ناقشوا اساتيذهم فى هذه المسائل او تلك ٠

---

(٥٧) نشأة النحو ١٨٩ ٠

والدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية) ، فقد عقد فيه فصلا خاصا بالمدرسة الاندلسية هو الفصل الثاني من القسم الثالث ، وعرض فيه للدارسين الذين اشتغلوا في النحو ، مبتدئا بجودي بن عثمان الذي كان ممثلا لمذهب الكوفيين في الاندلس ، ثم عرض لاول نحوي على المذهب البصري وهو الأفشنيق ، وللنحاة الذين اقتدوا به في نزوعه الى البصريين ثم تلا هؤلاء نحاة زعم الدكتور ضيف انهم عكفوا على مدارسة كتاب سيبويه ، وكتب البصريين والكوفيين ، وذكر منهم ابا بكر الزبيدي ، وابا بكر بن القوطية صاحب كتاب (الافعال) ، حتى اذا وصل فى حديثه الى ابن سيدة (توفي سنة ٤٥٨ هـ) وما اعتمده فى عمل كتابه (المحكم) من مصنفات النحويين المتأخرين ظن أن ملاكه الذى اعتمده في تصنيف المذاهب النحوية قد استقام له ، فقال : « اننا لانصل الى ابن سيدة حتى ينغمس نحاة الاندلس فى النحو البغدادى بجانب انغماسهم فى النحو البصرى والكوفي ، ويكون ذلك ايذانا بان تتضح شخصيتهم فى النحو ودراساته ، فقد تعمقوا مصنفاته على مر العصور ، وتعمقوا اتجاهاته » (٥٨) ٠

ثم عقد عنوانا لجماعة من الدارسين تابعوا ابن سيدة في تعمقه المذهب البغدادى وساروا في اتجاه المدرسة البغدادية وفى مقدمتهم : الاعلم الشنتمري الذى رأى الدكتور ضيف أنه « اول من نهج لنحاة الاندلس هذا الاتجاه »(٥٩) وسلك فى هذه الجماعة كثيرا من النحاة الذين مر بنا ذكرهم ، وجعل فيهم ابن مضاء القرطبي ، واتبعه بابن مالك ٠ ثم اتبع هذه الجماعة بجماعة أخرى زعم انهم يمثلون اتجاها خاصا ختمهم بابى حيان الاندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ للهجرة ٠

فاذا أعدنا النظر فيما قال في هذا الفصل رأيناه يصنف النحاة الاندلسيين ، كما صنف النحاة في المشرق الى بصريين وكوفيين وبغداديين ، ولم يذكر من مزايا هذه الطائفة اكثر مما ذكر من مزايا النحاة المشارقة الذين خلطوا المذهبين

(٥٨) المدارس النحوية ٢٩٢ ٠

(٥٩) المدارس النحوية ٢٩٣ ٠

وسمَاهم بالبغداديين ، ولم يشر الى خصائص مذهبية للاندلسيين البغداديين،أو الذين ساروا في اتجاه المدرسة البغدادية ، نابعة عن درس اندلسي مستقل لايمت الى المذاهب المشرقية بصلة ، مما يدل دلالة واضحة أنّ مؤلف (المدارس النحوية) ليس لديه فكرة واضحة عن مزايا مذهب أندلسي ، وأن له شغفا خاصــا بتكثير اسماء المدارس دون ان يُعنى بتلمّس الخطوطالمذهبية العامة لهذهالمذاهبالمتعددة او رسم صورة ولو باهتة لكل مذهب على حدة ، ولعل له في ذلك عذرا لانه ليس لهذه المدارس واقع علمي ملموس باستثناء المذهبين الرئيسين البصري والبغدادى الذى سمي بالكوفي مؤخرا ٠

كل ماقاله في تحديد طريقة الاندلسيين هو أن نحاتها كانوا يخالطون جميع النحاة السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين ، وينتهجون نهــج البغداديين « من الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة ، ويضيفون الى ذلك اختيارات مــن اراء البغداديين ، وخاصة أبا علي (كذا) الفارسي وابن جنى ، ولا يكتفون بذلك بل يسيرون فى اتجاههم ـ يعني البغداديين ـ من كثرة التعليلات والنفوذ الــى بعض الاراء الجديدة » (٦٠) ٠

ولكن ما الجديد فى هذا ؟ وهل يعني اختيارهم من اراء البغداديين انهــم اضافوا الى المذهب البغدادى ماليس فيه ؟ الا يدل هذا على ان مؤلف (المدارس النحوية) يتشبث بالوهم في اقناع الدارسن بوجود مدرسة اندلسية ، او بوجود مدارس نحوية غير مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ؟ !

واين تقع مدرسة الاندلس النحوية اذا كان قدماء النحاة فيهــا كوفيين او بصريين ، والمتأخرون منهم بغداديين او سائرين فى اتّجاه المدرسة البغدادية ؟

---

(٦٠) المدارس النحوية ٢٩٢ ، ٢٩٣ ٠

شيوع البغدادية وتأريخه

تردد اسم البغداديين فى مؤلفات المحدثين ، وهم يريدون بهم جماعة من الدارسين يمثلون مذهبا خاصا لاهو بالبصري ولا هو بالكوفي · وانما هو مذهب يقوم على الانتخاب من كلا المذهبين ، وقد نشأ هذا المذهب من تلاقى المذهبين القديمين فى بغداد ، ونهض به دارسون تلمذوا لابى العباس ثعلب ممثل الكوفيين ولابى العباس المبرد ممثل البصريين ·

ويبدو ان المحدثين كانوا يصدرون عما جاء فى فهرست ابن النديم اذ أرّخ للدرس النحوي واللغوي وللنحاة واللغويين في المقالة الثانية ، وكان قد قسمها الى ثلاثة فنون :

تكلم فى الفن الاول فى النحو واخبار النحويين واللغويين البصريين بادئا بأبي الاسود الدؤلي ، ومنتهيا بأبي على الفارسى ·

وتكلم في الفن الثاني في النحو الكوفى وأخبار النحويين واللغويين الكوفيين ، بادئا بأبى جعفر الرواسى ، ومنتهيا بأبي عمر الزاهد ·

وتكلم في الفن الثالث في اخبار النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين ، وذكر منهم : ابن قتيبة ، وابا حنيفة الدينورى ، وابا موسى الحامض وابا القاسم الزجاجي وابا الحسن بن كيسان وابا عبدالله نفطوية ، وابا الحسن علي بن سليمان الاخفش الصغير ·

ويدل على أن المحدثين كانوا يصدرون عما جاء في الفهرست أنهم كانوا يقيمون المذهب الجديد على اساس الاختيار والانتخاب من كلا المذهبين القديمين ، وهو الذى كان ابن النديم يُعبّر عنه بخلط المذهبين ·

فقد جاء فى (ضحى الاسلام) ، بعد استعراض رجال المدرستين والتقاء المبرد وثعلب في بغداد : « ومع هذا فقد كان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سببا في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما ، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة ، قال ابن النديم : كان ابن قتيبة يغلو في البصريين ، الا انه خلط المذهبين ، وحكى في كتبه عن الكوفيين ، ومثله فى ذلك ابو حنيفة الدينورى فقد أخذ عن البصريين والكوفيين جميعا » (١) ٠

لم يذكر مؤلف ضحى الاسلام دارسين غيرهما من نحاة حقيقيين سبق لابن النديم وغيره أن زعموا أنهم خلطوا المذهبين كابن كيسان وابن الخياط وابن شقير وغيرهم ، وكان ينبغي لمن يرسل الكلام ارسالاً أن يُعزّزه بأمثلة اخرى غير ابن قتيبة وابى حنيفة ، واذا كان ابن النديم جعلهما فيمن خلط المذهبين ، فانه لم يورط نفسه فيزعم ان هناك مذهبا منتخبا من المذهبين ، كما فعل مؤلف (ضحى الاسلام) وكان جديرا بمؤلف ضحى الاسلام أن يختار نماذجه من دارسين آخرين لهم مشاركة جادة في الدرس النحوي ، ولهم اراء وأقوال تتناقلها كتب النحو ، ولكنه لم يفعل ، بل لقد اغفل ذكرهم اغفالا يوحى بأنه لم يكن هو الذى استنتج من ابن النديم فكرة هذا المذهب المنتخب ، ولكنه اقتبسه من دارسين محدثين اخرين سبقوه ، لان التمثيل بابن قتيبة وأبي حنيفة على مالهما من مكانة في العلم لايرسم للمذهب الثالث المزعوم صورة ولو كانت باهتة ٠

وبمتابعة البحث نجد ان هذه الفكرة كانت من عمل مستشرقين كانوا قد توفروا على دراسة العربية ، وعلى تحقيق كتب عربية ، وتناولوا بالدرس موضوعات نحوية ولغوية ٠

من هؤلاء المستشرقين ثلاثة من الاعلام الذين عرفت لهم اعمال تتصل بالدرس النحوى وتاريخ النحاة ، وهؤلاء هم :

فلوجل Flügel المتوفى سنة ١٨٧٠ للميلاد ، الذى نشر فهرست

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٨ الطبعة الثانية ٠

ابن النديم ، وكتب بحثا فى المدارس النحوية عام ١٨٦٢ للميلاد ·

وبروكلمان فى كتابه (تاريخ الادب العربى) ·

وگوتولدڤايل ناشر كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف لابى البركات الانباري ، وكان قد انتهى من تحقيقه عام ١٩١٢ للميلاد ، وطبعه فى ليدن عام ١٩١٣ للميلاد ·

لقد تناول هؤلاء الاعلام بالدرس تاريخ النحو والنحاة ، وحاولوا ان يقدموا للدارسين صورة عن واقع المذهبين النحويين ، وعن رجال كل منهما ، ثم تناولوا بالدرس التقاء المذهبين فى بغداد ، وما تمخّض عنه هذا الالتقاء من تفاعل وتجاذب ·

اما فكرة المدرسة الثالثة ، او مدرسة بغداد فقد تبنّاها الأولان ، فلوگل وبروكلمان ، وكان الرائد فى ذلك هو (فلوگل) ، فقد نشر كتابا عن مدارس النحو اسمه : Diegrammer Schulen أشار اليه بروكلمان فى كتابه «تاريخ الادب العربي»(٢) وڤايل فى مقدمته التى قدم بها لكتاب الانصاف ·

وقد تابعه بروكلمان فى (تاريخ الادب العربى) ، فقد عرض للمدارس النحوية فى الباب الرابع الذى عقده لدراسة علم العربية ، وذكر مدرسة البصرة ورجالها(٣) ومدرسة الكوفة ورجالها(٤) ، ثم مدرسة بغداد ورجالها(٥) ·

لم اقف على ما كتبه فلوجل ولكن يبدو من عنوان كتابه انه عرض للمدارس النحوية متجاوزا مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة الى مدرسة او مدارس اخرى ، لعل منها مدرسة بغداد ، لأن اشارة بروكلمان الى

(٢) تاريخ الادب العربى ٢/٢٢٢ الهامش ، ٢/٢٣٥ الطبعة العربية ·
(٣) بروكلمان ٢/١٢٨–١٩٥ ·
(٤) بروكلمان ٢/١٩٦ – ٢٢٠ ·
(٥) بروكلمان ٢/٢٢١–٢٥٦ ·

ما كتبه فلوگل عن ابن قتيبة توحي بانه كـــان قد تناول ما تناوله الدارسون من بعده اعنى مدرسة نحوية ثالثة من ممثليها ابن قتيبة وليست (المدرســـة) التى يمثلها ابن قتيبة فى أذهان الدارسين المحدثين غير مدرسة بغـــداد ، ويغلب على الظن ان فكرة المذهب الثالث او مدرسة بغداد مستوحاة من ابن النديم فى فهرسته الذى حققه ونشره فلوگل ٠

اما بروكلمان فقد عرض لمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغـداد مستوحيا هذا من ابن النديم ايضا ٠ قال بروكلمان : « حقـا بقي كثيرمن العلماء الذين اجتذبتهم عاصمة الخلافة اليها شديدى التمسك والتعصب لمأثورات مدارسهم الأصلية ، ولكن الجيل الذى تلا هؤلاء ، والذى تهيأت له فرصة الاستمـــاع الى ممثلى كلتا المدرستين لم يلق كبير اهتمام للخلافات القديمة ، بل عمد الى انتخاب مزايا كلتا المدرستين ، وتوحيد هذه المزايا فى مذهب جديد مختار » ، ثم قال : «وطبيعى ان هذا المذهب المختار كان متدرج النمو والاكتمال ، حتى انّ عددا ممن ذكرناهم ومن سنذكرهم بعد من العلماء يمكن الشك فى تحديد المدرســة التى ينتمون اليها ، لاسيما اذا كنا لا نستطيع ان نصدر حكما على آرائهم النحوية الا بمشقّة وعسر ، وأيّاً ما كان الأمر فان علينا ان نطمئن الى الاستناد على رواية ابن النديم فى الفهرست ، واذن نعُدّ ، مع صاحب الفهرست ، أول ممثل لمدرسة بغداد رجلا تجاوزت شهرته حقا دائرة النحو والعربية ، ولكنه هو نفسه أراد ان ينظر الى دراساته اللغوية على انها نواة نتاجه الأدبى عامة ، ذلك هو ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة »(٦) ٠

ثم اخذ بروكلمان يتحدث عن ابن قتيبة وعن مصنفاته وما يتصل به وبهـا من اخبار ، والكنه لم يفعل شيئا لتأييد وجهة نظره فى تمثيل ابن قتيبـــة المذهب الجديد المختار ، مكتفيا بما استوحاه هو واستوحاه فلوگل من قبـــل مما كتبه ابن النديم فى الفهرست ٠

---

(٦) بروكلمان ٢/٢٢١ ٠

فاذا وازنا بين ما كتبه بروكلمان ، وما كتبه مؤلف ضحى الاسلام عن مدرسة بغداد رأينا ان ما عرضه مؤلف ضحى الاسلام من وجود مذهب منتخب لا يختلف في كثير ولا قليل عمّا زعمه بروكلمان ، ورأينا الرجلين يتفقان في عرض الفكرة عبارة ومأخذا وتمثيلا . ويغلب على الظن ان بروكلمان كان متابعا فلوگل فيما ذهب اليه ، بالرغم من انه القى تبعة ما عرضه من فكرة مدرسة بغداد على رواية ابن النديم فى الفهرست .

يقوى هذا الظن ان بروكلمان لم يكن يعرف عن مدرسة الكوفة ورجالها ما يمكنه من رسم صورة مكتملة لها ، لان « أوائل النحو والدراسات العربيه غامضة فى الكوفة حاضرة العراق الثانية ، على حد تعبيره ، وذلك لقلة ما يعرفه « عن نمو هذه المدرسة لقلة ما بقى من مصنفات الكوفيين » ، ولان « اخبار المتأخرين عن الخلاف بين المدرستين قليلة الانصاف للمدرسة الكوفية، لان المتأخرين فضلوا المذهب الرسمى النظرى الذى تم له الانتصار ، وهو مذهب البصريين »(٧) .

والدارس الذى لم يكوّن لنفسه فكرة واضحة عن حقيقة الدرس الكوفى ، ولا تهيأت لديه الخطوط التى يستطيع بها ان يرسم صورة مكتملة لمدرسة الكوفة ، ولا وصل اليه من مصنفات الكوفيين الا القليل ، لا يستطيع ان يكوّن لنفسه رأيا عن المدرسة الثالثة التى نشأت فى زعمه عن الجيل الذى تلمذ للمدرستين ، وتهيأت له فرصة الاستماع الى ممثليهما ، ثم عمد الى انتخاب مزايا كلتا المدرستين وتوحيدها فى مذهب مختار . وكيف يكوّن لنفسه فكرة واضحة عن نشوء مدرسة بغداد التى نشأت عن توحيد مزايا كلتا المدرستين اذا لم تتبين له مزايا مدرسة الكوفة ! وكيف يرسم صورة للمدرسة الجديدة ، وبعض خطوط الصورة تستند نظريا الى مزايا مدرسة الكوفة التى لم يكوّن لنفسه رأيا فيها لقلة ما يعرفه عن الدرس الكوفى ، ومصنفات الكوفيين .

---

(٧) تاريخ الادب العربى ـ بروكلمان ٢/١٩٦ الطبعة العربية .

والنتيجة المترتبة على هذا هى سكوته عن تطبيق نظريته على ابرز ممثليها ، وهو ابن قتيبة ، واغفاله حتى الاشارة الى ذلك فى اثناء كلامه على شخصية ابن قتيبة العلمية ، ومصنفاته وآثاره ٠

ومن الواضح ان بروكلمان فى عرضه فكرة الانتخاب انما كان متابعا فلوكل الذى كان فيما يبدو ، وفيما اشار اليه (ڤايل) هو صاحب الفكرة الاولى ، وان لم تستو عنده نظريا الا بعد جهد جاهد ، وعناء كبير فى التوفيق بين الروايات المتضاربة عن حقيقة الاتجاه الذى سلكه ممثلو المذهب الجديد فى دراستهم اللغوية والنحوية ٠

واما گوتولدڤايل فكان معنيا بكتاب « الانصاف فى مسائل الخلاف » لابي البركات الأنباري ، وقد حققه ونشره وقدم له ، وكان يعالج مسائل الخلاف معالجة سليمة ، ويطيل الوقوف عندها ليلم باراء البصريين وآراء الكوفيين ، ويعرف حقيقة الخلاف ، ليكوّن لنفسه رأيا فى هذه المسائل التى لم يعرض لها مثل هذا العرض دارس محايد يتوخى الانصاف حقا ، ولكنه دارس متعصب شديد النكير على خصومه ٠

وكان ابو البركات قد جمع فى كتابه هذا احدى وعشرين مسألة ومئة مسألة ، وهى عنده اهم ما اختلف فيه ، وكان يقول فى مقدمته : « اعتمدت فى النصرة على ما اذهب اليه من مذهب اهل الكوفة او البصرة على سبيل الانصاف لا التعصب والاسراف » ٠

وكان أبو البركات يعرض فى كتابه احتجاجات مفتعلة زعم انها احتجاجات الكوفيين ، وقد يرجع القهقرى فيلقيها على لسان الكسائى والفراء وتلاميذهما واصحابهما ، ويبحث الدارس فيما وصل اليه من كتب المتقدمين منهم فلا يجد فيها ما زعمه أبو البركات ، ويظل الدارس يسأل عن مصدر هذه الاحتجاجات ولا يتلقى جوابا لانها من صنع المتأخرين ، وانها من صنع بصريين متأخرين

كانوا قد حذقوا النهج البصرى النظرى ، وكان لهم آراء خاصة وافقوا فيهـــا الكوفيين ، فراحوا يحتجون لها بالاسلوب البصرى النظرى الذى حذقوه فـــى مقام الرد على البصريين الذين يخالفونهم فى هذه المسائل ، او من صنـــع بعض الكوفيين المتأخرين الذين وجدوا انفسهم مضطرين الى التشبث بمثل مـــا كان البصريون يتشبثون به ، ويصطنعون فى المناظرات ، وفى الرد على خصومهم مثل ما كان البصريون يصطنعون ، لتأييد آرائهم ونصرة مذهبهم .

يؤيد هذا ماقاله ابو بكر بن الخياط لابي القاسم الزجاجي ، وقد ذكر هذا له ماجرى بينه وبين أبي بكر بن الانباري ، وما كان يحتج به أبو بكـــر لرأيـــه : « هذه أشياء يولدها من عنده على مذاهب القوم ليست محكية عن الفـــراء ، ولا موجودة في كتبه ، ولكنها مما يرى أنها تؤيد المذهب وتنصره » (٨) .

وقف (ڤايل) عـلى هذا ، واطال النظر فى صنيع ابي البركات ، وخرج من معاناته المشكلة التي وجد نفسه في غمرتها بتفسير لا يبعد كثيرا عمّا عرضنا هنا. قال (ڤايل) : انّ «من الممكن اثبات أنّ الدعـــاوى التي نسبت الى الكوفيين ، والادلة عليها في كثير من المسائل لم يقل بها الفراء ، ولا اصحابه بل هى صادرة عن الاخفش والمبرد ، ولا يمكن الاعتماد في ذلك على ابن الانباري الذي كان كلّ اهتمامه هو تصوير تناقض الاسس والمبادىء ، واذا كان ـ أحيانا ـ يذكر اسماء هاتين الفرقتين النحويتين فانه من ناحية اخرى كثيرا مايذكر الاراء مجردة عـــن أصحابها على أنها كوفية ، ومن هنا لايجوز أخذ مسائل الخلاف المئة والاحـــدى والعشرين على انها مسائل خلافية صحيحة قديمة تمثل اختلاف اراء سيبويه والفرّاء بوجه خاص »(٩) .

اما رأى ڤايل فيما ذهب اليه فلوجل وبروكلمان فخلاصته الشك في وجود مدرسة جديدة قامت على اساس الانتخاب من مزايا كلتا المدرستين ، لانه ـ وان كان يرى أن لتسمية تلاميذ المبرد وثعلب بالبغداديين وجها من الحق ـ كان يرى أن البغداديين لم يكونوا ليمثلوا مدرسة ذات اتجاه خاص اساسه المزج او الاختيار

(٨) الايضاح للزجاجى ٦٣ .

(٩) مقدمة كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف .

ولكنهم يمثلون دراسة في دائرة النحو البصري « واذا كان البغداديون فى المواضع القليلة التى يرد ذكرهم فيها عند النحاة يمثلون رأى الكوفيين فلا يجوز أن يضلّلنا ذلك عن حقيقة امرهم ، لانه انما يذكر رأيهم الخاص في الاحوال التي يخالفون فيها اراء البصريين العامة » (١٠) ٠

ثم جاء الدارسون المعاصرون فاخذوا ماجاء فى (ضحى الاسلام) على انه قضية مُسلّم بها ، وواقع مفروغ من سلامته ، وراحوا يتشبّثون بما صّور لهم فيه ، ويتوسعون في تطبيقه ، واتخذوا من محض خلط المذهبين على حد تعبير ابن النديم ، والرواية عن الفريقين سبيلا الى الزعم بوجود مذهب ثالث ، او مدرسة ثالثة ٠

واذا كانت مقالة ابن النديم منطلق الزاعمين بوجود مذهب ثالث قام على الانتخاب من المذهبين فان ابن النديم لم يشر الى الذين خلطوا المذهبين على أنهم كانوا ذوي نهج جديد في تناولهم موضوعات الدرس ، او كان لهم اسلوب في الدرس النحوي يختلف عن أسلوب البصريين ، او اسلوب الكوفيين ، وكل مافعله ابن النديم أنه جعل تلاميذ المبرد وثعلب جماعة ثالثة من الدارسين على اساس انهم تلمذوا لممثلي المذهبين ، وأخذوا عنهما جميعا ، ولم يقتصروا على الاخذ من احدهما فقط ، كما كان المبرد وشيوخه ، وثعلب وشيوخه يفعلون ٠

أما كتّاب الطبقات الاخرون فلهم تصنيف آخر يختلف عما جاء في فهرست ابن النديم ، مما يدل على أن مافهمه المحدثون من تصنيف ابن النديم ، ومن وجود جيل كان ينهج منهجا يقوم على الانتخاب لم يكن القدماء يعنونه حين يعرضون للبغداديين او يرددون اسم البغداديين ٠

فابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) فى «مراتب النحويين» كان قد صنف اللغويين والنحويين طبقات ، وكان يسلك في هذا التصنيف أسلوبا يختلف عن سائر المصنفات في الطبقات ٠ كان يعرض لاعلام طبقة من اللغويين والنحويين

(١٠) مقدمة كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف ٠

البصريين ، ثم يعرض لمن يعاصرهم من اللغويين والنحويين الكوفيين ، ويتناولهم بالدرس في طبقة ايضا ، ثم يعود الى البصريين فيعرض للطبقة الاخرى منهم فاذا انتهى من ذكر اعلامها عاد الى الكوفيين المعاصرين ، وتناولهم بالدرس في طبقة اخرى أيضا ، الى ان ينتهي الى الطبقة الاخيرة من البصريين فينعطف الى مايعاصرها في الكوفة في اخر طبقة أيضا ٠

بدأ ابو الطيب بالنحاة البصريين ، لان النحو انما نشأ ونما في البصرة ، وكانت الطبقة الاولى من البصريين هي : طبقة أبي الاسود الدؤلي وتلاميذه : عطاء بن أبي الاسود ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وعنبسة الفيل ، ولم يكن في الكوفة طبقة بازائها ٠

وكانت الطبقة الثانية هي طبقة عبدالله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، ولم يكن في الكوفة طبقة للكوفيين بازائها ايضا ٠

وكانت الطبقة الثالثة هي طبقة يونس بن حبيب وأبي الخطاب الاخفش اللذين أخذا عن أبي عمرو بن العلاء ٠ وبازاء هذه الطبقة كانت الطبقة الاولى من الكوفيين ، وفيها : أبو جعفر الرواسي الذي أخذ عن أبي عمرو ، ولكنه لم يكن نظيرا لمن هو بازائه من البصريين ، ولا قريبا منهم ، وقد أيّد هذ بما حكاه عن أبي حاتم السجستاني ، فقد كان ابو حاتم يقول : « كان بالكوفة نحوي يقال له: أبو جعفر الرواسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء » (١١) ٠ وعاصم بن أبي النَّجود وقيل : انه كان نحويا ، وعقّب ابو الطيب على ما قيل بقوله :«فلعل ذلك كان يسيرا من جليل النحو فلم يذكر قوله ولم يحفظ » (١٢) ٠ وحمزة بن حبيب الزيات ، ويرى ابو الطيب أنّ الكوفيين هم الذين كانوا يرونه اماما « أما عند البصريين فلا قدْر له »(١٣) ٠ واذ وصل ابو الطيب الى هذا قال : « والذين

(١١) مراتب النحويين ٢٤ ٠

(١٢) المصدر نفسه ٠

(١٣) المصدر نفسه ٠

ذكرنا من الكوفيين فهم أئمتهم في وقتهم ، وقد بيّنّا منزلتهم عند أهل البصرة فاما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعا ... ولم يكن في الكوفة ولا في مصر من الامصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية » (١٤) .

وكانت الطبقة الرابعة هي طبقة الخليل بن أحمد صاحب الاحداثات والاختراعات الذى « لم يكن قبله ولا بعده مثله » (١٥) والذى « لم يكن في علماء البصريين من قطع عليه انه منقطع القرين ، مثله(١٦) . وجعل ابو الطيب معه ثلاثة من اعلام البصريين هم : ابو زيد الانصاري وابو عبيدة والاصمعي ، ثم تلاميذ الخليل والمذكور منهم هنا : سيبويه وحماد بن سلمة والنضر بن شميل وابو محمد اليزيدى والمؤرّج السدوسيّ وعليّ بن نصر الجهضمى . ثم تلاميذ يونس بن حبيب ، محمد ابن المستنير المعروف بقطوب ومحمد بن سلام الجُمَحيّ .

واذا انتهى من ذكر أعلام البصريين فى هذه الطبقة انعطف ليذكر مَنْ كان بازائهم من الكوفيين ، فذكر المفضّل الضبّيّ عالم أهل الكوفة بالشعر . واوثق من بالكوفة في [illegible] عن ابى حاتم(١٧) . وذكر معه حماد الراوية وآخرين . ثم ذكر الكسائي ولم يذكر بعده أحداً من الكوفيين .

وكانت الطبقة الخامسة من البصريين هى طبقة التوّزى والحِرمازى والجرمى والزيادى والرياشى ، ثم ذكر أبا حاتم سهل بن محمد السجستانيّ ثم أبا عثمان المازنى وابن اخى الاصمعى واحمد بن حاتم الباهليّ ، ثم أبا العباس المبرد محمد بن يزيد ، ثم تلاميذ المبرد : الزجاج وابن السراج ومبرمان ، ثم

---

(١٤) مراتب النحويّين ٢٦ .
(١٥) نفسه ٢٧ .
(١٦) نفسه ٣٧ .
(١٧) نفسه ٧١ .

تلاميذ أبى حاتم ، ابن دريد وابن قتيبة ، وكان هؤلاء خاتمة هذه الطبقة٠٠ وكانت هذه الطبقة خاتمة الطبقات البصرية ٠

ثم عرّج على الكوفيين فعرض لمن كان منهم بازاء هذه الطبقة ، فذكر الفراء وعلي بن المبارك الاحمر وعلي بن حازم اللحيانى وأبا عمرو الشيبانى، ومحمد بن زياد الاعرابى ، والقاسم بن سلام صاحب (الغريب المصنّف) وسلمة ابن عاصم راوية الفراء وناقل علمه ، ويعقوب بن السكّيت ، واحمد بن يحيى ثعلب ٠ ثم المفضل بن سَلَمه الذى أخذ عن ابن السكّيت وثعلب ، والذى وصفه أبو الطيب بالمخلّط المتعصب ، ثم القاسم الانبارى والد أبي بكر بن الانبارى ٠ وبثعلب وابن السكّيت تختتم هذه الطبقة ٠

ورأى أبو الطيب اللغوى أن العلم انتهى الى هؤلاء من أهل المصرين « ولا علم للعرب الاّ فى هاتين المدينتين »(١٨) ٠

ثم أخذ ابو الطيب يستعرض الامصار الاخرى ، فذكر المدينة ، ونفى ان يكون بها امام فى العربية ، والذين ذكرهم من رجالها هم :

عيسى بن يزيد المعروف بابن دأب ، واتهمه بوضع الشعر واحاديث السمر ، والشرقيّ بن القطاميّ ، ووصفه بالكذاب ، وعليّ الجَمَل ونسب اليه كتابا فى النحو قال : انّه لم يكن شيئا ٠

وذكر مكة ، ونفى ان يكون بها امام ايضا الاّ رجلا من الموالى يدعى ابن قسطنطين ، وكان يشدو شيئا من النحو ولكنه قدم الى البصرة وسمع النحو فطرح ما كان صنف فيه ، ثم وضع شيئا لا يساوى شيئا ، على حد تعبير أبى الطيب ٠

---

(١٨) مراتب النحويين ٩٨ ٠

وذكر بغداد فوصفها بأنها مدينة ملك لامدينة علم ، وأن أهلها ـ حاكيا عن أبي حاتم ـ « حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ، ولا من ترتضى روايته ، فان ادّعى أحد منهم شيئا رأيته مخلّطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة »(١٩) ٠

ولم يواصل أبو الطيب تطوافه في بغداد في اثناء العصر الذى ولي عصر المبرد وثعلب ، ولم يشر الى رجال الجيل الذى نتحدث عنه ، فلم يعرض لتلاميذ ثعلب والمبرد ممن خلط المذهبين ، كما فعل ابن النديم ، ولم يذكر من تلاميذ المبرد الذين لازموه ولازموا مذهب البصريين كالزجاج وابن السراج ومبرمان ٠

ولعل أبا الطيّب كان ينظر الى تلاميذهما الذين أخذوا عنهما أنهم مخلّطون أصحاب تطويل وكثرة كلام ، ولم ير فيهم أحدا يقف بازاء من ترجم لهم من أعلام المصرين ٠

ويغلب على الظن أنّ أبا الطيب كان قد وهم فلم يفهم ماكان يعنيه أبوحاتم، وظن أن كلامه كان موجّها الى الجيل الذى أعقب جيل المبرد وثعلب ، ولا أظن أبا حاتم كان يعنى ماظن أبو الطيب أنه كان يعنيه ، لان أبا حاتم المتوفى سنة ٢٥٥للهجرة حين وصف البغداديين بأنهم حشو عسكر الخليفة انما كان يغمز الكسائى وتلاميذه ، والفرّاء وتلاميذه ، ولعل أبا حاتم لم ير أحدا من تلاميذالمبرد وثعلب الذين كانوا يخلطون المذهبين بالاخذ عنهما ، أو لم يسمع باحد منهم ٠

ولا أريد هنا مناقشة أبي الطيب في اهمال الدارسين الذين خلطوا المذهبين ، وهم الجيل الذى اخذ عن أبي العباس المبرد ، وأبي العباس ثعلب ٠ ولكنى أريد القول ان أبا الطيب كان قد عاصر كثيرا من اولئك الذين قيل انهم

(١٩) مراتب النحويين ١٠١ ٠

خلطوا المذهبين ، ولكنه لم يشر اليهم على انهم نحويون [illegible] خاص

الدرس اللغوي والنحوى نهجا جديدا ، كما اراد المحدثون أن يجعلوا من مقالة

ابن النديم فى الفن الثالث من المقالة الثانية الذى عقده للجماعة التى خلطت

المذهبين .

وأبو بكر الزبيدى (ت ٣٧٩هـ) كان قد ترجم للنحويين المتقدمين والمتأخرين منهم ، مستعرضا الاقطار الاسلامية ، ومراكز الثقافة من أمصارها ، متتبعا مسيرة علم العربية مذ بدؤه الى الوقت الذى عاش فيه .

وقد صنّف علماء العربية صنفين : نحويين ولغويين ، وقد بدأ بالنحويين ثم أعقبهم باللغويين ، فعل ذلك فى كل مصر على حدة ، وقدم البصريين من كلا الصنفين « لتقدمهم فى علم العربية ، وسبقهم الى التأليف فيها »(٢٠) . وصنفهم فى طبقات :

طبقة أبى الاسود الدؤلى ، وطبقة نصر بن عاصم الليثى ، وطبقة ابن أبى عقرب ، وممن فيها : عبدالله بن أبى اسحاق الحضرمى ، وطبقة أبى عمرو بن العلاء ، وممن فيها : أبو الخطاب عبدالحميد بن عبدالمجيد المعروف بالأخفش الكبير ، وعيسى بن عمر . وطبقة الخليل بن احمد وذكر فيمن ذكر حماد بن سلَمة ويونس بن حبيب . وطبقة النضر بن شميل ، وذكر فيمن ذكر معه سيبويه والأخفش سعيد بن مسعدة والجرمى . وطبقة أبى عثمان المازنى ، وممن كان فيها أبو حاتم السجستاني والرياشى وقطرب . وطبقة أبى العباس المبرد وطبقة أصحاب المبرد ، وذكر منهم الزجاج وابن السراج ومبرمان وابن درستويه، وعلي بن سليمان الأخفش الصغير الذى عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين . وأبا بكر بن شقير ، وأبا بكر بن الخياط اللذين عدهما السيرافي وابن النديم

(٢٠) طبقات النحويين ١٠ .

فيمن خلط المذهبين . وطبقة اصحاب الزجّاج ، وفيها أبو القاسم الزجاجي الذى عدّه ابن النديم فيمن خلط المذهبين ، وأصحاب السراج وفيهم السيرافى والرمانى والفارسي ، واصحاب علي بن سليمان الأخفش ، واصحاب ابن درستويه .

هؤلاء هم البصريون في تصنيف الزبيدي ، بُدِئوا بأبي الأسود وخُتِموا بتلاميذ المبرد وتلاميذ تلاميذه ، ومنهم من كان قد تلمذ لأبي العباس ثعلب كابي بكر بن شقير ، وأبي بكر بن الخياط ، وأبي الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الصغير .

ثمّ عرج على الكوفة وتتبع مسيرة الدرس النحوي فيها ، وصنفها طبقات أيضاً كما فعل في النحاة البصريين ، وكانت الطبقات الكوفية عنده:طبقة الرواسي وممن فيها : معاذ الهراء . وطبقة الكسائي ، وطبقة الفراء ، وممن فيها القاسم ابن معن وعلي بن المبارك الأحمر وهشام بن معاوية ، وطبقة أصحاب الفراء، سلمة ابن عاصم وأبو عبدالله الطوال ، ومحمد بن قادم . وطبقة اصحاب سلمة وفيها أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وطبقة أصحاب ثعلب وفيها هارون بن الحائك وأبو موسى الحامض وأبو الحسن بن كيسان وأبو بكر بن الأنباري وأبو عبد الله نفطويه .

هؤلاء هم النحاة الكوفيون فى تصنيف الزبيدي ، بدئوا بأبي جعفر الرواسى ، وختموا بأصحاب ثعلب . وكان من أصحاب ثعلب الذين ينتمون الى الكوفيين عند الزبيدي من كان ابن النديم يعدهم فيمن خلط المذهبين ، لأنهم أخذوا عن المبرد وثعلب ، وهم : أبو موسى الحامض ، وأبو الحسن بن كيسان وأبو عبدالله نفطويه .

فالزبيدي اذن لم يكن يرى ما رآه ابن النديم ، ولا جعل من تلاميذ المبرد وثعلب طبقة على حدة سلكت فى الدرس النحوي نهجا جديدا على انتخاب مزايا المذهبين ، كما أراد المحدّثون أن يفهموه .

واذ انتهى الزبيدي الى هذا واصل استعراضه لأعلام الدرس النحوي من غير العراقيين ، فتناول بالدرس طبقات النحويين فى مصر فذكر فيمن ذكر أبا العباس بن ولاد وأخاه أبا القاسم بن ولاد وأبا جعفر بن النحاس ، ثم طبقات النحويين فى القرويين • وذكر فيمن ذكر أبا مالك الطرماح وعياض بن عوانة بن الحكم ، وابراهيم بن قطن المهري ، وأبا عبدالله حمدون بن اسماعيل ، وأبا محمد المكفوف وغيرهم ، ثم طبقات النحويين واللغويين فى الأندلس وبدأهم بأبي موسى الهواري ، وختمهم بمحمد بن يحيى الرباحي الذي كان الزبيدي واحدا من تلاميذه(٢١) •

وأبو عبيدالله المرزباني (ت ٣٨٤هـ) كان قد ترجم للدارسين فى أمصار العراق المعروفة ؛ البصرة والكوفة وبغداد ، وصنفهم ثلاث جماعات :

الجماعة البصرية، وقد بدأها بأبي الأسود ، وختمها بعمر بن شبة ، وترجم بينهما لجماعة كبيرة من الدارسين من نحويين ولغويين وأدباء ، ذكر فيمن ذكر منهم الخليل بن أحمد ، والاصمعي ، وأبا عبيدة . ومحمد بن سلام؛وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ •

والجماعة الكوفية ، وقد بدأها بقبيصة بن جابر الأسدي الكوفي أحد فصحاء العرب ، وختمها بابن الأعرابي ، وترجم بينهما لجماعة كبيرة من الدارسين أيضاً ومنهم قراء وشعراء ورواة ولغويون ونحويون أمثال أبي عمرو عامر بن شراحيل الشعبي ومحمد بن السائب الكلبي وحمزة بن حبيب الزيات وحماد الرواية والمفضل الضبي والكسائي والفراء •

والجماعة البغدادية ، وقد بدأها بأبي عبدالله محمد بن أسحاق بن يسار ، وختمها بأبي بكر محمد بن يحيي الصولي ، وذكر بينهما جماعة من الدارسين يتفاوتون تخصصا ومذهبا أمثال الواقدى وأبى عبيدالقاسم بن سلام وابن السكيت

---

(٢١) انظر فى «طبقات النحويين» للزبيدى •

وأبى العباس المبرد وأبى العباس ثعلب ، وعلي بن سليمان الأخفش وابراهيم ابن السريّ الزجاج ، ومحمد بن السريّ السراج ، وابن دريد ، وأبى بكر بن الأنباري (٢٢) ٠

هذا هو تصنيف المرزبانيّ للدارسين فى هذه الأمصار الثلاثة ، وهو تصنيف مبنيّ على أساس الموطن الذى نشأ فيه كل فريق على حدة أو وفد اليه من مصر آخر ، فلم يقصد المرزبانيّ اذ ذكر الجماعة البغدادية الى أن يذكر جماعة من الدارسين جمعهم مذهب معين ، وانتظمتهم طريقة معينة ، وانما كان يقصد الى ذكر الدارسين الذين وفدوا الى بغداد وأقاموا فيها ٠ والذين ولدوا ونشئوا فيها ، ولذلك ذكر فيهم ثعلبا وأبن الانبارى من الكوفيين ، والمبرد والزجاج وابن السراج من البصريين مع ما بين مذهب الكوفيين ومذهب البصريين من اختلاف ، وغير خافٍ أنّ ثعلبا وتلميذه ابن الأنباري كانا من شيوخ النحو الكوفي ، وأن المبرد والزجاج وابن السراج وهم بغداديون أيضا كانوا من شيوخ النحو البصري ٠

وعلى هذا لم يكن المرزباني يشير اذ صنف النحاة الى بصريين وكوفيين وبغداديين : الى أنّ هناك جماعات من الدارسين متفاوتة رأيا ومذهبا ، ولم يذهب الى مثل ما زعمه المحدثون من وجود مذهب نحويّ ثالث هو مذهب البغداديين الذين كانوا يخلطون المذهبين ٠

ومن استعراض هذه المصنفات التى عرضت لطبقات النحاة يبدو لنا واضحا أن القول بوجود مذهب ثالث انما هو ضرب من الوهم جرّهم اليه :

١ ــ ما ذكره ابن النديم فى فهرسته ٠

٢ ــ وشيوع اسم البغداديين بازاء اسم الكوفيين والبصريين ٠

امّا ما ذكره ابن النديم فلا ينهض دليلا على سلامة مزاعم المُحدثين ٠ لان ابن النديم فى تصنيفه النحاة واللغويين الى بصريين وكوفيين وجماعة ثالثة خلطت

(٢٢) انظر فى «نور القبس» للمرزبانى ٠

المذهبين لم يكن ليعنى ما يعنيه المحدثون ، ولم يشر الى أنّ الدارسين الذين خلطوا المذهبين كانوا قد اتخذوا لهم مذهبا نحويا متميزا يقف بازاء المذهبين .

ويكفى للاقتناع بهذا أن ابن النديم كان قد جعل ابن قتيبة على رأس هؤلاء . وكان ابن قتيبة من الدارسين الذين أقاموا فى بغداد وعاصروا أبا العباس ثعلبا ، ولكنه لم يأخذ عن ثعلب ولا عن أحد من أصحابه ، ولم تذكر كتب الطبقات فى شيوخه الذين أخذ عنهم واحدا من الكوفيين ، انما كان أخذه عن البصريين، فقد أخذ النحو عن الرياشى . واللغة عن السجستاني ، وكلاهما بصريّ عرف بالتعصب لمذهب البصريين على مذهب الكوفيين ، ولكن ابن قتيبة ، بالرغم من ذلك ، كان يحكى فى كتبه عن الكسائى والفراء وأصحابهما ، وكانت حكايته عنهم مطعنا عليه ، وكان الدارسون البصريون يحملون عليه ويُضعّفون كتبه، لأنه ـ فيما كانوا يرون ، خلّط فيها بحكايات عن الكوفيين « لم يكن أخذها عن ثقات وكان يتسرّع فى أشياء لا يقوم بها ، نحو تعرّضه لتأليف كتابه فى النحو ، وكتابه فى «تعبير الرؤيا» وكتابه فى «معجزات النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله » و «عيون الأخبار» و «المعارف» و «الشعراء» ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء ، وان كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له »(٢٣) .

ويغلب على الظن أن ابن النديم وغيره رأوا من ترخّص هذا الجيل فى الرواية عن الكوفيين بادرة لم يألفوها من قبل فلم يُعرَف أحد من علماء أهل البصرة كان يأخذ عن أحد من علماء الكوفة ، أو يحكى عنه غير أبي زيد الأنصارى الذي انفرد بالرواية عنهم والاكثار من الحكاية عنهم ، وكان يروى شعر القصائد عن المفضل الضبيّ الكوفيّ ، وقد جاء فى مقدمة النوادر أنّه « ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبيّ ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب »(٢٤) .

---

(٢٣) أبو الطيب اللغوى ـ مراتب النحويين ٨٥ القاهرة .

(٢٤) كتاب النوادر ص١ .

أما بعد أبي زيد فكانت حملات البصريين على الكوفيين تحول دون اقدام البصريين على الأخذ عنهم ، لانهم في نظرهم « حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ، ولا من يرتضى روايته »(٢٥) . أو « أنهم كانوا يأخذون اللغة عن أعراب الحطمة الذين كانوا ينزلون في سواد بغداد وريفها(٢٦) ، على حين أن البصريين ، فيما يزعمون ، انما يأخذون اللغة « عن حرشة الضِّباب وأكلة اليرابيع»(٢٧) أى لم يأخذوا الا عن العرب الموثوق بفصاحتهم وسلامة لغتهم .

واذ كان ابن قتيبة يحكى في كتبه عن الكوفيين كانت كتبه مطروحة في نظر الخاصة من الدارسين ، نافقة عند العامة ، وعند من لا بصر له في العلم . على حد قول أبي الطيب اللغوي(٢٨) .

ولعل أبا الطيب كان يرى الأخذ عن الكوفيين ضعفا في العلم وتخليطا ، فلم يكن للجيل الذى كان يخلط المذهبين شأن عنده ، فلم يعرض لهم ، ولم يصنفهم مراتب او طبقات كما فعل مع مَنْ سبقهم من اعلام البصريين والكوفيين .

وفي هذا الموقف الذى وقفه أبو الطيب كثير من التعصب الذي لا يليق بالعلماء ، وفيه اغفال الدارسين من بينهم علماء أخذ هو عنهم . وتلمذ لهم كأبي عمر الزاهد ، وأبي بكر محمد بن يحيى الصولى . واذا كان أبو عمر الزاهد من الملازمين لمذهب الكوفيين فان أبا بكر الصولى كان قد تلمذ لأبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب(٢٩) . وكان بهذا ممن خلط المذهبين ، واذا كان أَخْذُ الدارس عن الكوفيين عنده تخليطا فكيف يفسر لنا أخذه عن أبي عمر الزاهد(٣٠) ، وأبي بكر

---

(٢٥) مراتب النحويين ٧٤ .

(٢٦) انظر : نور القبس ٢٨٧ .

(٢٧) اخبار النحويين البصريين ٦٨ القاهرة .

(٢٨) مراتب النحويين ٨٥ .

(٢٩) نزهة الالباء ٤٣٣ .

(٣٠) بغية الوعاة ٣١٧ .

الصولى(٣١) ، واذا كان سبب تضعيفه ابن قتيبة أنه حكى عن كوفيين ثقات فانه لم يبيّـن لنا الموثوق بهم من غير الموثوق بهم من الكوفيين ، والذى يقف عـــلى الكوفيين الذين حكى عنهم ابن قتيبة يجد من بينهم الكسائىّ ،والفراء،وثعلبا ، فاذا لم يوثق بهؤلاء فبمن يوثق مِنْ سواهم ؟

لاشك أن أبا الطيّب كان مضطربا فى أحكامه ، متحاملا على ابن قتيبة بدون سبب معروف ، متعصبا على الكوفيين تعصبا يحمل الدارس على أن يعيد النظر فى سلامة أحكامه ، جاحدا ماقدمه الكوفيون للدرس النحوىّ واللغوى من غناء ، وما تعهده به أستاذه الكوفى من رعاية ، واذا كان هذا موقفه من الكوفيين وممن يحكى عنهم فكيف يوفق بين ذلك وأخذه عنهم بتلمذته لابي عمر الزاهـــد الكوفى ، ولأبى بكر الصولى الذى أخذ عن البصريين والكوفيين ؟؟

ومهما يكن من أمر فانّ ما جاء فى فهرست ابن النديم ، وتردد فى أقـوال دارسين آخرين كأبى سعيد السيرافى فى (أخبـار النحويين البصريين) وأبى القاسم الزجاجيّ فى (الايضاح)وابى البركات الانبارى فى (نزهة الالباء) وغيرهم كان منطلقا للدارسين المحدثين الى ما زعموا من وجود مذهب نحوىّ جديد هو المذهب البغدادىّ القائم ، فيما صوّروا ، على أساس منانتخاب مزايا كلا المذهبين النحويين الكبيرين وتوحيد هذه المزايا فى مذهب منتخب مختار ، وهو زعم لم يتجاوز حدود الفكرة المجردة التى تفتقـــر الى التطبيق ، غير أنّ النظرة الفاحصة فيما جاء فى كلام أصحاب الطبقات ، والمترجمين لاعلام الدرس النحـوىّ تنتهى بالـــدارس الى أنّ خلط المذهبين الذى جـــاء نتيجة لتلاقى المذهبين فى مجالس الدرس فى بغداد لم يكن يعنى احداث مذهب نحويّ ، أو رسم خلطة لمزج المذهبين ، ولكنه كان يعنى ترخص الدارسين فى الاخذ عن الفريقين بعد زوال أسباب التعصب المذهبىّ والاقليمى ٠ ولا يعنى ترخّص الدارسين فى

(٣١) نزهة الالباء ٣٤٣ ٠

الرواية عن هؤلاء وهؤلاء غير محض التلاقى، واتصال الآراء والاخذ ببعضها للتعبير عن رأى خاص فى الاحوال التى تقتضى ابداء هذا الرأى ، كأنْ يكون تعبيرا عن وجهة نظر خاصة وجدت فى نفس الدارس قبولا ، وقد يكون هذا الدارس بصريّا تتفق وجهة نظره مع وجهة نظر كوفىّ فى هذه المسألة او تلك ، وقد يكون كوفيا يلتقى مع هذا البصرىّ فى هذا القول أو ذاك ، ومثل هذا الخلاف قد يقع بين تلاميذ المدرسة الواحدة فلا يخرج بهم عن حدود المذهب الذى ينتمون اليه ٠

فالذين خلطوا المذهبين ما زالوا ينتمون الى المذهب الذى انتسبوا اليه سواء أكان هذا المذهب كوفياً ام بصريا ، ولذلك نرى السيرافى فى « اخبار النحويين البصريين » لم يتردد فى عدّ ابن كيسان من الدارسين البصريين، ومن اصحاب ابى العباس محمد بن يزيد المبرد ، وترجمته له فى النحاة البصريين ٠ ولم يثنه عن هذا انه كان يخلط المذهبين ٠ كما صرح بذلك ، كما لم يتردد فى عدّ ابى بكر بن السراج فى الدارسين البصريين ، وجعله رئيسا أنتهت اليه الرئاسة فى النحو البصرى بعد الزجاج وابن كيسان ، ولم يحل دون ذلك أنْ كان ابن السراج يحكى فى «الاصول» عن سائر الكوفيين(٣٢) ٠

ولم يُخرج القاسم الزجاجىّ عن دائرة النحو البصرىّ أنّه أخذ عن كوفيين وبصريين ، وكان يقول : « فمن العلماء الذين لقيتهم وقرأت عليهم شيخنا ابو اسحاق الزجاج رحمه الله ، وابو جعفر محمد بن رستم الطبرى غلام ابى عثمان المازنىّ وأبو الحسن بن كيسان، وأبو بكر احمد بن العباس المعروف بابن شقير، وأبو بكر محمد بن منصور المعروف بابن الخياط، وأبو بكر بن السراج ، وأبو الحسن على بن سليمان الأخفش ٠ ومن علماء الكوفيين الذين اخذت عنهم أبو الحسن ابن كيسان ، وابو بكر بن شقير ، وأبو بكر بن الخياط لان هؤلاء قدوة اعلام

(٣٢) أخبار النحويين البصريين ٨٠ ، ٨١ ٠

فى علم الكوفيين ، وكان اول اعتمادهم عليه ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين ، وأبو بكر بن الأنبارى وابو موسى الحامض و ... و ... »(٣٣) .

فمن اساتيذ الزجاجى كما يدل عليه النص مَنْ كان بصرى المذهب، شديد اللزوم له كالزجاج والطبرى وابن السراج ، ومنهم من كان كوفى المذهب ملازما لطريقة الكوفيين كأبى بكر بن الأنبارى ، ومنهم من كان يخلط المذهبين كابن كيسان وعلى بن سليمان الأخفش ، ومع ذلك لم يخرج عن كونه بصرى المذهب ومن أشد الدارسين لزوما لمذهب البصريين .

ولعل تعبيره عن خلط المذهبين بالجمع بين العلمين اقوى دلالة على ما نحن بصدد تقريره ، لأن المفهوم من قوله : « فجمعوا بين العلمين » انما هو خلط المذهبين خلطا محضا ، ليس فيه ايماء الى انتخاب مزايا المذهبين . وتوحيدها فى مذهب جديد مختار ، كما صوّره المحدثون .

واما شيوع اسم البغداديين بازاء اسم الكوفيين والبصريين فلا يؤيد ما ذهبوا اليه أيضا ، لان اسم البغداديين قديم بدأ يشيع بين الدارسين منذ أنْ عرفت مجالس الدرس فى بغداد دارسين يختلفون اليها شيوخا وطلابا .

اما الاسم الذى ينبغى ان يبحث فى نشأته فهو اسم الكوفيين ، لأن هذا الاسم انما يطلق على الدارسين الذين ينتمون الى مذهب كوفى فى النحو يقف بازاء المذهب البصرى ، ومذهب الكوفيين لم ترسمْ خطوطه فى الكوفة وانما نشأ وشب ونضج فى بغداد ، وعلى يد الكسائي أولا ثم على يد الفراء ثانيا .

---

(٣٣) الايضاح ٧٨ ، ٧٩ .

(٣٤) مراتب النحويين ٢٤ .

اما الدارسون الكوفيون الذين ينتسبون الى المِصْر المعروف ، ويقيمون فيه فلم يكونوا لينهضوا بهذا العبء ، ولم يبَن لهم تأثير خاص فيمن تلمذ لهم، ولا حفظت كتب النحو لهم اقوالا وآراء ، فاذا أريد الى تاريخ الدرس النحوى الذى سمى كوفيا فانما يؤرخ باعمال الكسائى والفراء واصحابهما وتلاميذهما، وهؤلاء هم اعلام هذا الدرس فى بغداد . واذا كان الكسائى والفراء كوفيين مولدا ومنشأ فلم يتصدرا حلقات الدرس فى الكوفة ، ولا عرفا بين النحاة قبل اقامتهما فى بغداد وتصدرها مجالس الدرس فيها .

اما ما زعمه أصحاب الطبقات الذين ارخوا للنحاة من عد الرواسى والهراء من النحاة الكوفيين فينطلق من فهم ساذج لمعنى المذهب ، ولا ينبغى أن يذكر الرواسى او الهراء الا حين يؤرخ للكسائى والفراء ، ولبداية اشتغالهما فى العربية ، والعربية فى عهد الرواسى والهراء رواية لغة وشعر واخبار وقراءة ومعرفة محدودة بالدرس النحوى والصرفى .

أما ابو جعفر الرواسى فهو محمد بن الحسن ، أخذ العربية عن ابى عمرو بن العلاء(٣٤) ، او عيسى بن عمر(٣٥) ، ونسبت اليه تصانيف ، واشهر ما نسب اليه من تصانيف كتاب قيل ان اسمه (الفيصل) ، وحكي عنه أنه قال : « ارسل الى الخليل بن أحمد يطلب كتابى ، فبعثته اليه فقرأه ووضع كتابه »(٣٦) وزاد السيوطى فأردف هذا قوله « فكل ما فى كتاب سيبويه (وقال الكوفى كذا) فانما عنى الرواسى »(٣٧) .

ونبحث عن هذا الكتاب فلا نجد له أثرا ، ولا نقرأ نصّا منقولا منه، وحياة الرواسى العلمية مجهولة لا نعرف لها اجمالا ولا تفصيلا . امّا ما اضافه السيوطى على النص فوهم وتخليط ، لانه ليس فى كتاب سيبويه اشارة الى قول منسوب الى هذا الكوفى .

(٣٤) مراتب النحويين ٢٤ .

(٣٥) طبقات النحويين ١٣٥ .

(٣٦) النزهة ٦٦ مصر .

(٣٧) بغية الوعاة ٣٩٣ .

واما معاذ الهراء فهو عمّ ابى جعفر الرواسى ، ولم أقف على من تلمذ هو له ، ولم يصل الينا شىء من اقواله فى النحو او الصرف يجعله من النحاة او أهل التصريف ، غير ان السيوطى كان قد لمح ، على حدّ وهمه، أن معاذا هو أول من وضع (التصريف) بقول نسب اليه ، فقد سمعه ابو مسلم مؤدب عبدالملك بن مروان « يقول لرجل : كيف تقول من تؤزّهم أزّا : يا فاعل افعل »(٣٨) ، وهو وهم وتخليط ايضا ٠

هذان هما اشهر الدارسين فى الكوفة قبل الكسائى وهما ، مع هذه الشهرة المفتعلة ، ليسا بشىء ، وليس لهما تأثير فى الدرس ، ولا حوت كتب النحو الكوفية المعروفة أقوالا نحوية او صرفية تنسب اليهما ، ولم يصفهما فى طبقات النحاة الا روايات مفتعلة تناقلتها كتب الطبقات ، كما تناقلت كثيرا من الأوهام ٠

وليس افتعال الاخبار بعزيز على اولئك الدارسين الجمّاعين الذين لم يهمّهم سلامة النص بمقدار ما يهمهم سلامة السند ، كالسيوطى وامثاله الذين تلقوا العلم فى عصر كان للدراويش واصحاب الطرائق شأن كبير فيه ٠

وليس غريبا أن يجوز على الدارسين المتأخرين الذين لم يتحرروا من تأثير ذلك العصر واوهامه واساطيره ، كصاحب (نشأة النحو) ، وصاحب (فى أصول النحو) وصاحب (مدرسة البصرة النحوية) وامثالهم الذين لقيت مصنفاتهم رواجا فى مجالس الدرس فى العصر الحديث ، ولكن الغريب ان يجوز ذلك على دارسين عرفوا فى بيئات الدرس الحديث نقادا ومنهجيين كالدكتور يوسف خليف وامثاله من اعلام الدرس المعاصر ، فقد اخذوا يرددون الاوهام ، وكأنها من الحقائق التى ارتفعت عن النقد ٠

---

(٣٨) بغية الوعاة ٣٩٣

لقد عرض الدكتور يوسف خليف فى كتابه (حياة الشعر فى الكوفة) لتاريخ النحو فى ايجاز مرددا مقالات القدماء بدون فحص ولا نقد ، ولم يشفع له عرضها على صورة احتمالات ، لانه انتهى الى مثل ما انتهى اليه القدماء .

فالرواسىّ عنده «استاذ الكوفة الاول»(٣٩) .

والرواسيّ عنده كان قد « مضى يصنّف حتى أتمّ مجموعة غير قليلة وصلت الينا اسماؤها فى كتب الطبقات »(٤٠) .

وكتب الرواسىّ عنده « يبدو انها كانت من المصادر التى اعتمد عليها سيبويه فى تأليف كتابه »(٤١) .

وسيبويه ، عنده « اذا ذكر فى كتابه (الكوفى) فانما يعنى به اباجعفر الرواسىّ »(٤٢) .

ومعاذ الهراء ، عنده ، زميل الرواسىّ « فى الاستاذية الاولى لمدرسة الكوفة »(٤٣) .

الى غير ذلك من الاقوال التى لا ترتفع عن مستوى الاوهام التى تناقلتها كتب الطبقات ، وأضفت عليها جلبابا مهلهلا من (الحقيقة) .

وبالرغم من ان الدكتور (خليف) لم يعرف من مصنفات الرواسىّ الاّ اسماءها زعم « انها كانت من المصادر التى اعتمد عليها سيبويه في تأليف كتابه »(٤٤) .

(٣٩) حياة الشعر فى الكوفة ٢٦٢

(٤٠) ص ٢٦٣ .

(٤١) ص ٢٦٣ .

(٤٢) ص ٢٦٣ .

(٤٣) ص ٢٦٣ .

(٤٤) ص ٢٦٣ .

وجازت عليه البهرجة التى زعمت ان « سيبويه اذا ذكر فى كتابه الكوفى» فانما يعنى به ابا جعفر الرواسى»(٤٥) .

على حين ان مثل هذا الزعم لا اساس له من الواقع لان سيبويه لم يقل فى كتابه : « قال الكوفى» ، ولم نجد فى كتابه اشارة الى قول منسوب الى هذا الكوفى ، وقد سبق أن اشار الى بطلان هذا الوهم اكثر من دارس ، ونشر ذلك فى اكثر من بحث .

وربما أوقع الدكتور (خليف) نفسه فى تناقض لم يلتفت اليه ، ذلك أنه بعد أن اثبت للرواسي تلك المنزلة فى العلم والرئاسة ، وجعله نداً للخليل بتلمذته لعيسى بن عمر ، وجعل مصنفاته التى لم يعرف الا أسماءها مصادر أفاد الخليل منها ، واعتمد سيبويه عليها فى تأليف كتابه .. بعد أن أثبت الدكتور (خليف) ذلك أخذ يعلل خروج الكسائي الى البصرة ليأخذ النحو عن الخليل بأن « علم الكوفة لم يشبع رغبة الكسائي وتعطشه » للعلم ، ولم يلق الكسائي فى البصرة غير الخليل ..

فماذا وجد الكسائي من علم البصرة وعلم الخليل أذا كان قد تلمذ للرواسي الذي أفاد الخليل من كتابه ، وكانت كتبه من المصادر التى اعتمد عليها سيبويه !!

ولماذا كان الكسائي معجبا بالخليل وعلمه ، ولم يكن له هم ، بعد رحلته الى بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، الا البصرة والخليل(٤٧) ؟؟

ولماذا لزم الفراء ، وهو النحوى العظيم ، الكسائي ، وانقطع عن الرواسي وكان الرواسي قد أغراه أن يخرج الى بغداد ، لينافس الكسائي ، لانه أميز منه على حد قول الرواسي ؟؟

(٤٥) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٣ .
(٤٦) ص ٢٦٣ أيضا .
(٤٧) نزهة الالباء ٨٣ ، ٤٨ . معجم الادباء ١٣/١٦٩ .
(٤٨) نزهة الالباء ٦٥ .

هذه الأسئلة تفرض نفسها على الدارس اذا كان بنجوة من التقليد والاتباع ولكن الدكتور (خليف) ، فيما يبدو ، لم يرد فى عرضه لهذه الأقوال ، واقحامه هذا الموضوع فى (حياة الشعر فى الكوفة) ، أن يميز الوهم من الحقيقة ، والخيال من الواقع .

وبعد أن وضعنا الرؤاسي والهراء فى مواضعهما الحقيقية يبدو للدارس واضحا أن مدرسة الكوفة النحوية ، وهى تسمية متأخرة ، لم تنشأ فى الكوفة وأنما نشأت فى بغداد ، ولم يكن لها شيوخ قبل الكسائي والفراء ، وان الكسائي والفراء وثعلبا لم يسمهم أحد من قدماء البصريين بالكوفيين وانما كانوا يُسمَّون بالبغداديين .

وقد سبق لي في كتابى (مدرسة الكوفة) أن أنتهيت الى هذا . والى أن الاستاذ الذى انتهت اليه الرئاسة فى النحو فى تاريخ الدرس النحوى هو الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وأن رئاسة ما سمى بمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة انما انعقدت فى مجلس الخليل لأنبه تلاميذه :

سيبويه الذى انتهت اليه رئاسة النحو فى البصرة بعد الخليل .

والكسائي الذى أنتهت اليه رئاسة النحو فى بغداد بعد تلمذته للخليل وبعد عودته من رحلته الى البوادى التى كان قام بها بتوجيه من الخليل .

فالكوفيون الذين يمثلون فريقا منافسا للبصريين انما بدئوا بالكسائي الذى رسم خطوط المذهب الجديد ، وأرسى قواعد الدرس النحوي فى بغداد . وأذا اشير الى الكسائي واصحابه وتلاميذه ، فى الحقبة التى أخذوا بأيديهم زمام الدرس النحوى فى بغداد اشير اليهم على أنهم بغداديون او عراقيون .

واذا نسب الكسائيّ الى الكوفة احيانا فلأنه ولد فى الكوفة ، ونشأ فيها وشهر بالقراءة والاقراء بين الدارسين فيها ، ولم يتعلم الا على كبر(٤٩) ، والا بعد أن لزم مجلس الخليل ، واستكثر عنه ، وارتحل الى بوادى الحجاز ونجد وتهامة بتوجيه منه ، ولم يستقرّ به المقام فى الكوفة بعد عودته من البصرة ، فقد كتب المهدىّ « بازعاجه من الكوفة »(٥٠) ، ليقيم فى بغداد يؤدب ولده ، ويذيع قراءته ، ويخطط لمذهب جديد فى اللغة والنحو .

فمتى شاعت تسميته بالكوفيّ ، وصار هذا الاسم علما لمذهب نحويّ اتخذ له سبيلا مستقلة عن مذهب البصريين ؟؟

من أجل أن نحدّد الزمن الذى بدأت فيه هذه التسمية تشيع ، وتتردد على ألسنة الدارسين ، وتجرى بها أقلامهم لابد أن نستأنس بأقوال المعاصرين من الدارسين البصريين الذين شهدوا مولد هذا المذهب ، ونموّه ، ونضجه ، واستهانوا به بادىء ذى بدء ، ثم راعهم أن صار منافسا قويا بيده أسباب القوة والحياة التى تضمن دوامه فى تأدية رسالته ، وحاولوا جاهدين ان يغضّوا من شأنه ، ويهوّنوا من قدره فلم تكتب لهم الغلبة ، وظلوا ينفسون هذه الحياة المتدفقة فى الدرس البغدادىّ اذ بدأ الجمود يدب فى أوصال مذهبهم .

وبلغ الامر بالذين ستهينون به ان تعصبوا عليه ، ودأبوا يشنون عليه الحملات بالتوهين من شأنه وتضعيفه ، ويحملون على شيوخه وتلاميذه ،

---

(٤٩) تاريخ بغداد ١١/٤٠٤ .

(٥٠) تاريخ بغداد ١١/٤٠٦ .

ويتهمونهم بافساد النحو ، وبأنهم يرقون بالعلم الى أسفل على حد قول اليزيدي في الكسائي واصحابه(٥١) . وبأنهم لم يكونوا شيئا « وعلمهم مختلط بلا حجج ولاعلل الا حكايات عن الأعراب مطروحة »(٥٢) على حد قول أبي حاتم في الكسائي وأصحابه والفراء وأصحابه .

وكان أبو حاتم السجستاني من أشد المتعصبين عليهم ، وأكثرهم اتهاما لهم. وعلى كثرة أقواله فيهم لم يسمهم بالكوفيين ولكنه كان يتحدث عنهم على أنهم بغداديون . جاء ذلك في كلام له يحمل فيه على الكسائي والفراء وأصحابهما ، ويقول فيه : « أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ، ولامن يرتضي روايته ، فان ادعى أحد منهم شيئا رأيته مخلطاً، صاحب تطويل ، وكثرة كلام ومكابرة ، ولايفصل بين علماء البصرة بالنحو وبين الرواسي والكسائي ، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراء حمزة ، ويتحفظ احدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير ، فيكثر كلامه عند من يختلف اليه . وانما هم أحدهم أذا سبق الى العلم (رهنا بدأ يغمز الفراء) ان يسير اسما يخترعه لينسب اليه ، فيسمى الجر خفضا ، والظرف الصفة ، ويسمون حروف الجر حروف الصفات ، والعطف النسق و (مفاعيلن) في العروض (فعولان) ، ونحو هذا من التخليط(٥٣) .

---

(٥١) اليزيدي : هو ابو محمد يحيى بن المغيرة اليزيدي ، كان يقول في الكسائي وأصحابه: (أخبار البصريين ٤٤ . نزهة الالباء ١٠٨) .

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه على لغى اشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما به يصاب الحق لاياتلي
ان الكسائي وأصحابه يرقون في النحو الى أسفل

(٥٢) مراتب النحويين ٧٤ .

(٥٣) مراتب النحويين ١٠١ ، ١٠٢ .

وقد سمّاهم أهل بغداد ، لان الدرس فى بغداد هو درسهم ، والمذهب المتبع فيها هو مذهبهم ٠

ويمضي بنا الزمن الى أبى العباس المبرد ، وكان له الفضل فى تعريف البغداديين بنحو البصرة ومذهب البصريين ، لأنه النحويّ البصريّ الوحيد الذى استطاع أن يروّج لمذهب البصريين فى بغداد ، ويذيع فى الدارسين البغداديين علم أهل البصرة ، لغتهم ونحوهم ، ويمكّن لأسلوبهم العقليّ فى معالجة موضوعات النحو أن يتسرب الى عقول الدارسين فى بغداد ٠

وكان يقصد الى مفاتشة البغداديين ومناظرتهم قصدا ، لتثبيت أقدامه فى أرض عَزّتْ على أقدام غيره من قبل ، وكان أبو العباس ثعلب الذى انتهت اليه الرئاسة فى النحو منافسه القويّ فى بغداد ٠

غير ان المبرد استطاع ، بحذقه ومهارته فى الجدل ، وحسن بيانه أن يحرز للدرس البصريّ بعض الانتصارات الميدانية التى أعجب بها السذج من الدارسين، وان يستأثر ببعض تلاميذ ثعلب ، ولكنه ، مع ذلك كان يحسب لعلم ثعلب وسعة اطلاعه ، وقوة حفظه حسابا ، لأنه كان أعلم الناس بعلم ثعلب وصدقه وتوثيق العلماء اياه ، وكان لايخفي اعجابه ببعض من لا تسعفه القريحة بالغضّ منه ، وكان معجبا بكتاب (اصلاح المنطق) لابن السكّيت ، وكان يقول فى تقويم هذا الكتاب : مارأيت للبغداديين كتابا نيرا من كتاب يعقوب بن السكّيت فى المنطق »(٥٤) ٠

ويعقوب بن السكّيت من الدارسين الكوفيين ، ولم يسمّه بالكوفيّ ، بل سماه وسمّى غيره من الدارسين الذين سموا بالكوفيين بالبغداديين ٠

---

(٥٤) نزهة الالباء ٢٤٠ ٠

وربما حكى المبرد عن هؤلاء الكوفيين البغداديين بعض آرائهم ، فقد جاء فى شرح الكافية ، فى اثناء الكلام على (أن) المخففة : « وجوز الفراء وابن الانبارىّ وقوع المصدرية بعد فعل علم غير مؤول ، فيجوز أن يكون قوله :

فلما رأى أنْ ثمّر الله مــاله   وأثّل موجوداً وسدّ مفاقره

من هذا ، ويجوز ان تكون مخففة من غير عوض ، كما حكى المبرد عن البغادذة [فى الطبعة الحجرية : عن البغداديين] : علِمْتُ أنْ تَخْرُجُ ، بالرفع بلا عـــوض »(٥٥) ٠

ومعنى حكاية المبرد عن البغادذة أو البغداديين أنه انما يحكى عن معاصرين له ، أو متقدمين عليه،ويستبعد أنْ يكونوا من الجيل الذى خلط المذهبين ٠

هذا ولم يجر قلم المبرّد فى (المقتضب) باسم الكوفيين الاّ مرة واحدة(٥٦) ، أمّا فيما عدا ذلك فكان يشير اليهم ، اذا عرض لرأي لهم يناقشه بقوله:«وقال قوم » ، ونحوه ، او بقوله : «وبعض النحويين من غير البصريين»،أو بقوله : انّ قوما يقولون ، الى غير ذلك من العبارات التى يريد بها الكوفيين ، ولايسميهم بهـــذا الاســـم ٠

على أن ورود اسم الكوفيين مرة واحدة فى كتابه لايعني أنه كان يعـــرف هذه التسمية ، فقد يُحْمَل على انه تصرف من النساخ أو من بعض التلاميذ الذين شاعت بينهم هذه التسمية ٠

ومن ذلك قوله فى المقتضب ، فى معرض الكلام فى نصب المستقبل بدون (أنْ) : « وبعض النحويين من غير البصريين يجيز النصب على اضمار (أن) ، والبصريون يأبون ذلك الاّ ان يكون منها عوض ، نحو الفاء والواو وما ذكرناه معهمـــا »(٥٧) ٠

---

(٥٥) شرح الكافية للرضى ٢/٢٣٢ ٠

(٥٦) المقتضب ٢/١٥٥ ٠

(٥٧) المقتضب ٢/٨٥ ٠

وقوله في تعريف العدد : « اعلم ان قوما يقولون : اخذت الثلاثة الدراهم يافتى ، واخذت الخمسة عشر الدرهم ، وبعضهم يقول : اخذت الخمسة العشر الدرهم التى تعرف • وهذا كله خطأ فاحش »(٥٨) •

والرأيان اللذان ضعّفهما هنا للكوفيين ، ولكنه لم يسمهم بالكوفيين ، ولا بالبغداديين •

ونقف عند ابن قتيبة الذى كان قد اخذ عن ابى حاتم السجستانى ، ولم يأخذ عن كوفىّ قط ، فلم نجد فى شيوخه واحدا من الكوفيين ، الاّ انه لم يقصر الحكاية على البصريين وحدهم ، بل كان يحكى عن الكوفيين ، ويحكى عنهم كثيرا • وقد سبق ان استظهرنا أنّ حكايته عن الكوفيين هى التى دفعت ابن النديم الى ان يضعه مع الذين خلطوا المذهبين ، وهى التى جرّت عليه حملة ابى الطيب اللغوى بتضعيف كتبه وتقليل شأنه •

كان ابن قتيبة يحكى عن الكوفيين فعلا • كان يحكى عن الكسائى والفراء وثعلب ، وقد تردد اسم الكسائى فى كتابه (ادب الكاتب) نحو ثلاثين مرة ، والفراء نحو ستين مرة ، وثعلب مرة واحدة ، وكان اذا أراد ان يحكى قولا لعامة الكوفيين قال : قال بعض البغداديين ، او : البغداديون يقولون كذا وكذا ، أو يرون كذا وكذا ، الى غير ذلك ، وهو يذكر اسم البغداديين دون تخصيص •

ومن ذلك قوله : « واذا اردت أنْ تُعرّف عددا تكثر الفاظه نحو ثلاث مئة الأخفش وغيره • اما الفراء وغيره من البغداديين فيجعلونه من غلطهم ، مثل احلأت السويق »(٥٩) •

---

(٥٨) المقتضب ٢/٧١٥ •

(٥٩) أدب الكاتب ٣٩٠ بريل •

فقد جعل الأخفش ممثلا للبصريين والفراء ممثلا للبغداديين ، وذلك يؤيد أن اسم الكوفيين لم يكن معروفا بازاء اسم البصريين فى زمانه ·

من ذلك قوله : «ورثات فلانا اذا قلت فيه مرثية · هذا قول البصريين الف درهم ، وخمس مئة الف درهم الحقت الألف واللام فى آخر لفظة منها فتقول : « ما فعلت ثلاث مئة الف الدرهم ، وخمس مئة الف الدرهم ،هذا مذهب البصريين ، لا يجيزون غيره · والبغداديون يجيزون : ما فعلت ثلاث مئة الألف الدرهم »(٦٠) ·

والنحويون الذين يُعرّفون العدد والمعدود هم الكوفيون ·

ومن ذلك قوله : « قال البصريون : تقدير انسان : فِعْلان ، زيدت الياء فى تصغيره ، كما زيدت فى تصغر ليلة فقيل : لُيَيْلة ، وفى تصغير (رجل) ، فقيل : رُوَيْجِل · وقال بعض البغداديين : الأصل فيه : انسيان على افعلان ، فحذفت الياء استخفافا ، لكثرة ما يجرى على ألسنتهم ، فاذا صغروه قالوا : أُنَيْسِيان ، فردوا الياء »(٦١) ·

والمقصود من البغداديين هنا هم الكوفيون ، لأن هذا الرأى الذى نسبه ابن قتيبة الى البغداديين كان غيره قد نسبه الى الكوفيين ، فقد صرح أبو البركات الأنبارىّ بان مذهب الكوفيين هو : « ان الاصل فى انسان : انسِيان افعلان من النسيان »(٦٢) ·

وجاء فى حاشية الصبان : « قال الكوفيون : انسيان تصغير انسان ، لأن أصله : انسيان ، على وزن افعلان بكسر الهمزة والعين ، واذا صُغّر افعلان قيل : افيعلان ، وهو مبنى على قولهم : انسان مأخوذ من النسيان فوزنه افعان· ومذهب البصريين انه من الانس ، فوزنه فِعْلان »(٦٣) ·

---

(٦٠) أدب الكاتب ٢٩٩ بريل ·
(٦١) أدب الكاتب ٥١٤ بريل ·
(٦٢) الانصاف ـ المسألة الـ ١١٧ ·
(٦٣) حاشية الصبان على شرح الاشمونى ٤/١٦٤ ·

وجاء فى التصريح على التوضيح : « ذهب معظم الكوفيين الى أن انسانا أصله : انسيان من النسيان ، فلا يكون تصغيره على أنيسيان شاذا »(٦٤) ٠

فما نسبه أبو البركات والصبان والأزهرى الى الكوفيين كان ابن قتيبة قد نسبه الى البغداديين ، مما يؤيد ان اسم البغداديين اسم قديم لمن سموا بالكوفيين من بعد ٠

وتقف عند الأزهرى فى تهذيب اللغة ، وهو من رجال القرن الرابع للهجرة فنجده يسمى الكسائى والفراء وأصحابهما بالكوفيين مرة وبالعراقيين مرة اخرى ، وقد جرى قلمه بالاسمين جميعا ٠ نجد ذلك فى اثناء استعراضه طبقات الدارسين من اللغويين والنحويين الذين كان اعتماده عليهم فى جمع مادة كتابه ، وبدأ بذكر البصريين مبتدئا بأبى عمرو بن العلاء ، وكان تصنيفه لطبقات النحويين واللغويين كتصنيف ابى الطيب اللغوى ، يذكر طبقة من البصريين ثم يذكر من كان بازائها من الكوفيين ، واذ ذكر الطبقة البصرية التى ذكر من اعلامها أبا زيد الانصارى وأبا عبيدة والاصمعى وآخرين قال : « ومن هذه الطبقة من الكوفيين : أبو الحسن على بن حمزة الكسائى »(٦٥) ٠ ولا أحسبنى رأيته يذكر اسم الكوفيين مرة أخرى ٠

واذ وصل فى استعراضه طبقات الدارسين البصريين الى طبقة ابى حاتم السجستانى وتلاميذه قال : « ومن هذه الطبقة من العراقيين : ابو العباس أحمد بن يحيى الشيبانى الملقب بثعلب ، وابو العباس محمد بن يزيد الثمالى الملقب بالمبرد ٠ واجمع اهل هذه الصناعة من العراقيين وغيرهم انهما كانا عالمى عصرهما ، وان أحمد بن يحيى كان واحد عصره ، وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بيانا ، واحفظهما للشعر المُحْدَث ، والنادرة الطريفة ، والاخبار

---

(٦٤) التصريح ٢/٣١٩ ٠

(٦٥) تهذيب اللغة ١/١١ ٠

الفصيحة ، وكان من أعلم الناس بمذاهب البصريين فى النحو ومقاييسه . وكان احمد بن يحيى حافظا لمذهب العراقيين ، أعنى الكسائىّ والفراء والاحمر ، وكان عفيفا عن الأطماع الدنيّة ، متورعا من المكاسب الخبيثة »(٦٦) .

فقد سمى الأزهرىّ الكسائى بالكوفىّ اولا ثم سماه وسمى الفراء والاحمر والدارسين البغداديين الآخرين بالعراقيين ، وحين ذكر ثعلب والمبرد جعلهما من العراقيين . ويبدو ان التسمية بالعراقيين مساوية للتسمية بالبغداديين لان العراق انما كان يطلق على بغداد وبلادها وما يليها من ديار بكر وربيعة ومضر(٦٧) .

ويبدو ان الأزهرى حين سمى الكسائى بالكوفىّ كان ينظر الى منشئه ، وحين جعله من العراقيين مع الفراء والاحمر كان ينظر الى مقامه . يؤيد هذا أنّه نسب ثعلبا والمبرد كليهما الى العراقيين مع أنّ ثعلبا كوفى المذهب والمبرد بصرى المنشأ والمذهب .

فاسم البغداديين على هذا انما يطلق على الدارسين الذين اقاموا فى بغداد ، وهذا ينجرّ الى اوائل الدارسين فى بغداد وهم الكسائىّ واصحابه ، والفراء واصحابه ، وثعلب واصحابه ، ولا يقتصر الاسم على الجيل الذى اعقب ثعلبا والمبرد ، كما زعم المحدثون .

ثم نقف على حكايات ابى على الفارسىّ واقواله ، وأبو علىّ هذا من النحاة الملازمين لمذهب البصريين ، وقد عدّه الزبيدى فى الطبقة العاشرة من طبقات النحويين البصريين . وكان أبو حيان التوحيدىّ يراه كذلك ويقول : « قلت : وأما أبو علىّ فاشدّ تفردا بالكتاب ، واشد اكبابا عليه ، وابعد من كلّ ما عداه مما هو علم الكوفيين »(٦٨) .

---

(٦٦) تهذيب اللغة ١/٢٧ .

(٦٧) صبح الاعشى ٤/٤٢١ .

(٦٨) الامتاع والمؤانسة ١/١٣١ .

قال أبو علي : « وحكى أحمد بن يحيى عن بعض البغداديين : يقـــال : هدىّ بيت الله ، وأهل الحجاز يخففون ، وتميم تثقّله(٦٩) . وأحمد بن يحيى هو أبو العباس ثعلب ، واذا حكى ثعلب عن بعض البغداديين فذاك احـــد أصحابه أو شيوخه من الكوفيين ، ولم يقصد أبو علىّ من (البغداديين) غير الدارسين فى بغداد من المعاصرين لثعلب والمتقدمين عليه ، وهؤلاء هم الكوفيون.

ثم نقف على حكايات ابى الفتح بن جنى واقواله فنجـــده يذكر الكوفيين والبغداديين ، ومن مقابلة اقوال البغداديين التى أوردهـــا بأقوال الكوفيين المعروفة نرى ان القول واحد ، وان اسم البغداديين اذا جـــاء فى لسان ابن جنى فليس هو اسما آخر بازاء اسم البصريين واسم الكوفيين .

قال ابو الفتح فى معرض التفريق بين الكلام والقول : « لو سألت رجلا عن علة رفع (زيد) من نحو قولنا : زيد قام اخوه ، فقال لك : ارتفع بالابتداء لقلت : هذا قول البصريين . ولو قال : ارتفع بما يعود عليه من ذكر لقلت : هذا قول الكوفيين ، اى : هذا رأى هؤلاء ، وهذا اعتقاد هؤلاء »(٧٠)

ثم قال فى موضع آخر : « ومن ذلك قول البغداديين :ان الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره ، نحو : زيد مررت به ، واخوك أكرمته فارتفاعه عنـــدهم انما هو لأنّ عائدا عاد عليه فارتفع بذلك العائد»(٧١) .

والمسألة هنا هى المسألة هناك ، ورأى البغداديين هناك هو رأى الكوفيين نفسه هنا . وقد فطن محقق كتاب الخصائص لهذا فقال فى الهامش : «سبق له نسبة هذا الى الكوفيين فى ص١٨»(٧٢) .

---

(٦٩) الحجة ١/١٣٩ .
(٧٠) الخصائص ١/١٨ .
(٧١) الخصائص ١/١٩٩ .
(٧٢) هامش ١/١٩٩ .

وقال ايضا : «وسمعت الشجريّ أبا عبدالله غير دفعة يفتح الحرف الحلقيّ في نحو:(يَعَدو) وهو (محموم) ، ولم اسمعها من غيره من عقيل فقد كان يرد علينا منهم من يؤنس به ، ولا يبعد عن الأخذ بلغته ، وما أظن الشجريّ الا استهواه كثرة ماجاء عنهم من تحريك الحرف الحلقيّ بالفتح اذا انفتح ما قبله في الاسم على مذهب البغداديين »(٧٣) .

ورأيت الرضيّ ينسب هذا الرأي الى الكوفيين ، فيقول عند الكلام في مناسبة حرف الحلق للفتح : « وان كان عين فَعْل المفتوح الفاء حلقيا ساكنا جاز تحريكه بالفتح نحو : الشَعْر والشَّعَر ، البَحْر والبَحَر مثلها لغتان عند البصريين في بعض الكمات ، وليست احداها فرعا للاخرى ، وأما الكوفيون فجعلوا المفتوح العين فرعا لساكنها ، ورأوا هذا قياسا في كلّ فعل شأنه ما ذكرنا ، وذلك لمناسبة حرف الحلق للفتح»(٧٤) .

وقال في موضع آخر : « ومن بعد فقد قالوا أيضا : صُبوان وصُبوة وقُنوة، وعلى أن البغداديين قالوا : قنوت وقنيت ، وانّما كلامنا على ما أثبته اصحابنا ، وهو قَنَوْت لاغير »(٧٥) .

فقد ذكر أبو الفتح البغداديين بازاء البصريين الذين عناهم بقوله : (أصحابنا) ، والرأى الذى أثبته هنا للبغداديين رأيٌ كوفيٌ ، قال ابن منظور عند الكلام في قنيت وقنوت : « وأما الكوفيون فجعلوا قنيت وقنوت لغتين»(٧٦).

وقال أيضا في موضع آخر في معرض تحمّل الخبر الضمير : فاذا قلت : أنت كزيد ، وجعلت الكاف اسما فلا ضمير فيها،كما أنك اذا قلت:انت مثل زيد فلا ضمير في (مثل) كما لاضمير في الأخ ولا الابن اذا قلت : انت أخو زيد

(٧٣) الخصائص ٢/٩ .
(٧٤) شرح الشافية ١٨ ، ١٩ ط تركية .
(٧٥) الخصائص ١٦٣/٣ .
(٧٦) لسان العرب ٢٠١/١٥ بيروت .

وأنت ابن زيد . هذا قول اصحابنا ، وان كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون فى هذا النحو الذى هو غير مشتق من الفعل ضمير ، كما يكون فى المشتق»(٧٧) .

والقول بتحمل الجامد ضميرا قول كوفى نسبه ابن مالك الى الكسائي فى قوله : « ولا يتحمل غير المشتق ضميرا ما لم يؤول بمشتق خلافا للكسائي»(٧٨) ، وكذلك فعل الرضي فقال : « وان لم يكن [يعني الخبر] مؤولا به [اى بالمشتق] لم يتحمله خلافا للكسائي »(٧٩) . ونسبه الأشمونى الى الكوفيين وقال : « والخبر المفرد الجامد منه فارغ من ضمير المبتدأ خلافا للكوفيين»(٨٠) .

أما المتأخرون فقد فعلوا فعل أبي الفتح ، وكانوا يذكرون البغداديين ، ويذكرون الكوفيين ، دون التفات الى وحدة الرأى فى المنقول عنهم ، ولعلهم كانوا يتأثرون بابن جني فى ذلك حين رأوه ينسب الرأي الى البغداديين والى الكوفيين دون أن يشير الى أن هؤلاء هم اولئك ، وحسبوا أن البغداديين فريق والكوفيين فريق آخر ، وحفلت تصانيفهم بالاسمين جميعا ، فكان الدارس منهم اذا أراد أن يعرض رأيا له فيه وجهة نظر نسبه الى من وجده منسوبا اليه ، فذكر هذا الدارس البغداديين ، وذكر ذلك الكوفيين ، ولم يلتفت هذا أو ذاك الى أن الرأى واحد ، وقد اختلط الأمر لديهم اختلاطا عجيبا حتى كان الدارس منهم ينسب رأيا معينا الى البغداديين حينا ، حاكيا رأي بعض الدارسين فى نقوله عنه ، ثم ينسبه الى الكوفيين حاكيا رأي دارس آخر فى نقوله عنه ، وكأنه اكتشف جديدا ، ولم ينتبه الى أن الفريقين فريق واحد ، وأن البغداديين الذين عُزِي اليهم رأى هم

---

(٧٧) سر صناعة الاعراب ١/١٩٠ ، ١٩١ .
(٧٨) التسهيل ٤٧ .
(٧٩) شرح الكافية ١/٩٧ .
(٨٠) شرح الأشموني ١/٢٠٦ .

الكوفيون الذين عُزِيَ اليهم الرأي نفسه ، وأنه انما نقل الرأي من دارس وقع له الرأى منسوبا الى البغداديين ، ودارس آخر وقع له الرأي نفسه منسوبا الى الكوفيين ٠

وجاز ذلك على الدارسين المحدثين فراحوا يعززون بهذه النقول المخلّطة زعمهم بوجود مذهب ثالث يقف بازاء المذهبين النحويين الكبيرين مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ٠

ومن نماذج هذا التخليط ما جاء فى الخزانة عن ذكر الشاهد على استعمال (ليس) أداة عطف ، وهو قوله :

فاذا أقرضت قرضا فأَجزه ... انما يجزي الفتى ليس الجمل

قال البغدادى : « على أنّ بعضهم قال : (ليس) فيه عاطفة ، والظاهر انها على اصلها ، اى : ليس الجمل جازيا ٠ والاول مذهب البغداديين ، احتجوا بهذا البيت على أنّ (ليس) عاطفة ، قالوا : كما تقول : قام زيد لا عمرو ، فـ (ليس) محمولة على (لا) فى العطف ٠ قال ابو حيان : وحكى النحاس وابن بابشاذ هذا المذهب عن الكوفيين ، وحكاه ابن عصفور عن البغداديين »(٨١) ٠

وبابطال هذين الأساسين ؛ أعنى ما ذكره ابن النديم من وجود جماعة من الدارسين كانوا يخلطون المذهبين ، ومن شيوع اسم البغداديين بازاء اسم الكوفيين واسم البصريين دعوى المحدثين بوجود مذهب ثالث ، أو مدرسة ثالثة ، هي مدرسة بغداد ٠

(٨١) الخزانة ٤/٤٧٧ ٠

أما نسبة هؤلاء الدارسين البغداديين فمردها :

أن مؤسس مذهب البغداديين فى النحو هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائيّ وهو انما ولد ونشأ وتعلم ، وعرف قارئا ، ورئيسا فى القراءة بعد حمزة بن حبيب الزيات ـ فى الكوفة ، ولم يخرج من الكوفة ليتعلم العربية على شيخ العربية فى البصرة ؛ الخليل بن أحمد الفراهيدى الا على كبر · كما قال الفراء(٨٢) · ولم يعد الى الكوفة الا بعد رحلة طويلة فى بوادي نجد والحجاز وتهامة ، يشافه الأعراب ، ويحكي اللغات ويدوّن ما يسمع ، وعـــاد الى الكوفة ثقالاً عيابه بالمكتوب والمحفوظ ، ولكنه لم يكد يستقر به المقام فى الكوفة حتى دعى الى بغداد ليؤدب اولاد الخليفة ، ويتصدر مجالس الدرس ، ويقـــرىء القراء فيهـــا ·

وكانت لثقافته الاولى فى الكوفة ، ومشافهة الاعراب فى البـــوادى · وكثرة سماعه من الفصحاء تأثير واضح فى مذهبـــه فى النحو ، ولم يفطن الدارسون لطبيعة المذهب الجديد الا بعد المسألة التى جرت بينه وبين سيبويـه عن قول العرب : « قد كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فاذا هـــو هى ، او فاذا هو اياها » فقد تمسك سيبويه بوجه الرفع لانه القياس ، وجوّز الكسائيّ النصب ايضا ، لان السماع يعضده · ويبدو ان الامر كذلك ، لان أبا زيد الأنصاريّ حكى عن العرب : « قـــد كنت اظن ان العقرب أشـــدّ لسعة من الزنبور فاذا هو اياها »(٨٣) وكان الكسائى قد قال فى جـــوابه . « العرب ترفع فى ذلك كله وتنصب »(٨٤) ·

(٨٢) نزهة الأنباء ٨٢ مصر ·
(٨٣) انباه الرواة ٢/٣٥٩ ·
(٨٤) مجالس العلماء ٩ ، ياقوت ١٣/١٨٧ ، ١٦/١٢٠ ·

هذا المذهب الذى يعتدّ بالسماع ، ويترخص فى الأصول الموضوعة مذهب جديد ظهر اول ما ظهر فى بغداد وعلى يد الكسائى الكوفى . ثم تهيأ له دارسون تعهدوه ورعوه ، واسهموا فى ترسيخ أسسه . وفى مقدمة هؤلاء : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء الذى منح المذهب صورته الجديدة وشخصيته المتميزة . والفراء كوفىّ المولد والمنشأ ايضا . ولكنه اقام فى بغداد بُعَيْدَ اقامة الكسائى فيها ، وبقى فيها زمنا طويلا حتى وافاه الاجل . واستطاع الفراء بحذقه وفطنته انْ يعمّق جذور المذهب فى نفوس الدارسين ، ويثبّت اصوله فى أذهانهم .

ثم جاء ابو العباس ثعلب البغدادى المولد والمنشأ ، وتلمذ لتلاميذ الفراء ، وفى مقدمتهم سلمة بن عاصم ، فاقرأه كتب الفراء ، ولم يمض عليه زمان طويل حتى حفظ كتب الفراء . وتصدر مجلس الدرس وهو ابن خمس وعشرين(٨٥) . ونشأ على مذهب الكوفيين الكسائى والفراء ، لا مستخرجا للقياس ولا طالبا له ، فاذا سئل عن مسألة قال : قال الفراء ، وقال الكسائىّ « فاذا سئل عن الحجة والحقيقة فى ذلك لم يعرف النظر »(٨٦) ، وهذا هو المذهب الذى ساد مجالس الدرس ، وعلى هذا الاسلوب اللغوى درب الدارسون البغداديون .

ثم جاء الجيل الذى تلمذ لثعلب ، ثم للمبرد أيضا بعد وروده بغداد من سرمنرأى ، واعلامه كلهم بغداديون منشأ ودراسة . وكانت بغداد قد اجتذبت اعلام الدارسين فى المصرين الكبيرين : الكوفة والبصرة،وكانت مجالس الدرس فيها غاصة بطلبة العلم ، وقد اجتذبت شخصية المبرد ، وحسن بيانه ، وقوة جدله اكثر الدارسين الذين كانوا يختلفون الى مجلس أبى العباس ثعلب عالم بغداد وامام الدارسين فيها ، ولم يستطع ثعلب أنْ يُعبّر على

(٨٥) ياقوت ٥/ ١٤٠ .
(٨٦) ياقوت ٥/ ١٢٠ .

انقطاع تلاميذه عنه واختلافهم الى مجلس المبرد ، فبدأ الصراع هادئا اول الامر بين الرئيسين ثم أخذ يشتد شيئاً فشيئا بأزدياد رسوخ المذهب الجديد الوافد وبالتفاف تلاميذه القدماء حول المبرد · وقد بدأت الحملات بين الرجلين مناظرة، وتهاجيا ، وانجرت هذه الخصومة الى تلاميذ الشيخين ، واعادت هـــذه الخصومة ذكريات الخصومة القديمة التى كان يثيرها متعصبون من البصريين من جهة ومن تلاميذ الكسائىّ والفراء من جهة اخرى،واستطاع المبرد أنْ يثبّت قواعد مذهب البصريين فى بغداد ، وأن يميّز مذهبـــه عن مذهب منافســـه بتسمية مذهبه بالبصرىّ ، وعمل على تثبيت هذه التسمية بنشر فضائل المذهب وشيوخه القدماء ، فصنف كتابا سماه : طبقات النحويين البصريين(٨٧) ·

ولعل تصنيف ابى سعيد السيرافى كتابه فى (أخبار النحـــــويين البصريين) كان تاكيدا لما بدأه المبرد ، وقد قصره على النحويين البصـــريين تجاهلا لمنافسيهم ، وغمزا لهم ، وايماء الى أن غير البصريين ليسوا فى العلم بدرجة يذكرون معها بازاء البصريين ·

واذ اشاع المبرد هذه التسمية ، واستطاع ان يفرضها ، ويثبّتها فـــى اذهان الدارسين كان تلاميذه واصحابه يعتزون بها وينتصرون لها ، ومـــن هنا انشئوا اسم الكوفيين تمييزا لانفسهم مـــن خصومهم ، واستعادة لتلك الخصومات الاقليمية القديمة التى كانت تثار بين المصرين الكبيرين ، وتعقـد بين وفودها المجتمعين فى مجالس الخلفاء والامراء ·

ولم تكن هذه التسمية الاّ من صنع تلاميـــذ المبرد المتحمسين لمذهب البصريين ، ثم انسحب هذا الاسم على اوائل الدارسين البغداديين الكســائى والفراء وأصحابهما ·

---

(٨٧) بغية الوعاه ١/٢٧٠ ·

أما الكوفيون انفسهم فلم يكونوا يعرفونها ، ولم يسمّ احد منهم مذهبه بالكوفىّ ، ولا أصحابه بالكوفيين ، ولم يسمهم بها خصومهم الاولون ، وقد استعرضنا أقوال الدارسين الاولين فلم نسمع أحدا منهم كان قد سماهم بهذا الاسم ، واذا أرادوا أن يشيروا اليهم أشاروا اليهم على أنهم بغداديون أو عراقيون ، حتى المبرد نفسه كان اذا تحدث عنهم سماهم بالبغداديون ·

ولم يسم تلاميذ المبرد خصومهم بالبغداديين ، لأن هذا الاسم ينسحب عليهم لانهم بغداديون ايضا · وبتسمية تلاميذ ثعلب الذين لازموا مذهبه بالكوفيين تميّزَ رجال هذا الجيل بعضهم من بعض ·

وبالرغم من اصرار البصريين من رجال هذا الجيل على تسمية خصومهم بالكوفيين لم ينس الدارسون اسم البغداديين ، لذلك تجد هذا الاسم يتردد فى مصنفاتهم الى جانب الاسم الجديد ، كما رأينا ابن جنى فى الخصائص يورد الاسمين جميعا ، والمعنىّ واحد ، وكان ورود الاسمين فى بعض المصنفات فى هذا العصر مصدر وهم المتأخرين أنّ البغداديين فريق ، والكوفيين فريق آخر، فراحوا يوردون الرأى الواحد وينسبونه الى الكوفيين حينا ، والى البصريين حينا آخر ، وبقى الدارسون فى العصور المتعاقبة يخوضون فى هذا الوهم ، ولم يلتفتوا الى انهما اسمان لمسمى واحد ·

وجاز هذا الوهم على الدارسين المحدثين فراحوا يتمسكون به ، ويثبتون عليه فكرتهم بوجود مذهب ثالث او مدرسة ثالثة سموها بمدرسة بغداد ، لينسجم هذا الاسم مع اسمى المدرستين الكبيرتين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، ووجدوا من كلام ابن النديم والزجاجى والسيرافى ومَنْ تابعهم وحكى عنهم ما ينصر فى الترويج لفكرتهم ·

غير ان هذه الفكرة التى قامت على هذين الأساسين لم تصمد امام البحث ، لأنها فكرة لم تخرج عن حدود النظرية التى لم تجد سبيلا الى التطبيق

ولأن أصحاب هذه الفكرة لم يستطيعوا ان يصوروا هذا المذهب ، او يهتدوا الى خصائصه ، او يرسموا خطوطه المذهبيّة ٠

واكبر الظن ان الزجاجيّ بصريّ المذهب ، لا تكاد تجد فى كتبه دفاعا عن رأى كوفىّ ، أو موافقة لدارس كوفى فى قول ، ولم يظهر فى اقواله مايؤيد أنه أفاد من الشيوخ الذين سماهم بالكوفيين ، ووصفهم بانهم قدوة اعلام فى علم الكوفيين ، كابن كيسان وابن الخياط وابن شقير ، وكتابه (الايضاح) حافل بتصديه للكوفيين ومناقشتهم وتضعيف آرائهم ٠

ثم جاء ابو البركات الأنبارى فأكمل العمل الذى بدأه الزجاجىّ ، وغلا فى خصومته للكوفيين ، وعرض فى كتابه احدى وعشرين ومئة مسألة،وبسط فيه احتجاجات نسبها الى الكوفيين ، لم يسمع مثلها من كوفىّ ، ولا كان لمثلها مكان فى مصنفات الكوفيين ، وربما أورد آراء واحتجاجات غفلا من اسماء اصحابها على أنها كوفية ، ثم ينقض عليها تضعيفا وتفنيدا ، ولم يسلم برأى كوفىّ الاّ حين تعوزه الحجة ويخونه الدليل ٠

اما الجماعة التى قيل انها خلطت المذهبين فهى جماعة من الدارسين لم يجدوا فى انفسهم ما يدعو الى التحرّج فى الاخذ عن هذا ، او ذاك ، أو الحكاية عن هذه الطائفة او تلك ، وكانوا يأخذون عن الطائفتين من الآراء ما يتفق مع آرائهم الخاصة ، فتلقوا عن هذا الفريق وعن ذاك ، واختلطت الحكايات فى أذهانهم ، ووجد لذلك صدى فى كتبهم ٠ وربما كان الطابع لدارس بعينه بصريا فاذا حكى عن كوفى بعض الاقوال فان ذلك لم يثنه عن الالتزام بخط المذهب البصرى العام ٠ وقد يكون الدارس كوفيا ولا يجد فى الاخذ عن بعض البصريين ما يتعارض مع خط مذهبه العام ٠

هذا هو ما أفهمه من (خلط المذهبين) ، وقد انبنى فهمى هذا على صنيع السيرافى وابن النديم · فقد جعل السيرافىّ ابن كيسان فى النحويين البصريين · وفى طبقة الزجاج حين ترجم له فى (اخبار النحويين البصريين)· واليهما فى نظره · انتهت الرئاسة فى النحو بعد المبرد ، مع عرفانه انه كان يخلط المذهبين · وعدّ ابن النديم أبا موسى الحامض فيمن خلط المذهبين، وقد يكون هذا واقعا ، ولكن الحامض كان كوفيا ينتصر للكوفيين ويتعصب على البصريين(٨٨) ولم يصرفه عن كوفيته انه أخذ عن هذا البصرى أو ذاك ، ولا أن اتفق رأيه مع رأى بعض البصريين ، كذلك عدّ ابن النديم فيمن خلط المذهبين دارسا عاصر ثعلبا ، ولكنه لم يأخذ عنه ، ولا عن احد غيره من الكوفيين وهو ابن قتيبة ، وكل ما كان من ابن قتيبة انه حكى فى كتبه من أئمة الكوفيين امثال الكسائى والفراء ، وكانت حكايته عنهم لافتاً اذهان الدارسين ، فمن كان منهم غير مشارك فى الصراع المذهبىّ نظر الى ابن قتيبة على انه طراز جديد من الدارسين ، لم يتحرج فى الحكاية عن الكوفيين ، ومن كان منهم مشاركا جعل حكايته عنهم مطعنا عليه ، كما فعل أبو الطيب اللغوىّ حين عرض له فى (مراتب النحويين) ·

أما أنْ يكون معنى خلط المذهبين هو الانتخاب من مزيا كلا المذهبين ، وتوحيد ذلك فى مذهب مستقل ، كما ذهب اليه بروكلمان واحمد أمين وشوقى ضيف فلا اظنه كان يتردد فى ذهن ابن النديم ، ولا فى اذهان الدارسين الذين ذهبوا مذهبه ، ولم يبد من أقوالهم ما يدل على انهم كانوا يختارون من هذا المذهب او ذاك على أساس مذهبىّ مخطّط ، بدليل ان هؤلاء الذين قيل انهم خلطوا المذهبين يمكن ان يلحقوا بالفريقين ، مثل ابى الحسن بن كيسان وابى بكر بن شقير · فهذان الدارسان فى نظر الزجاجىّ معدودان فى

---

(٨٨) بغية الوعاه ١/٦٠١ ·

الكوفيين ، لأنهما من العلماء الذين كانوا قدوة أعلاما فى علم الكوفيين(٨٩) ٠ وأبو بكر بن شقير خاصة كان اشد ميلا الى الكوفيين ، وكان « شديد التعصب مع الكوفيين على البصريين »(٩٠) ٠

فلو كان ابن النديم وغيره يعنون بمن خلط المذهبين مافهمه المحدثون لما جعل ابن النديم ابن قتيبة فيهم ، لأنه لم يأخذ عن احدٍ من الكوفيين ، وكان أعتماده أولا وآخرا على البصريين ، أخذ النحو عن الرياشىّ ، واللغة عن السجستانىّ ٠ ولا الزجاجىّ ايضا ، مع انه معدود فيهم وسالك هو نفسه فى البصريين ٠ بالرغم من انه كان قد تلمذ للبصريين والكوفيين ٠

على أن من المستغرب ان يذهب المحدثون الى وجود مذهب ثالث ، ثم يستخلصون مما ذهبوا اليه نتائج لا واقع لها ، دون ان يرسموا خطوط هذا المذهب المزعوم ، او يبينوا خصائصه ، وكل ما قالوه انه مذهب قام على الانتخاب من المذهبين ، وهو قول غامض ، وزعم لا يقوم على اساس ٠ وهو قول خير ما يقوّم به انه وهم وتخليط ٠

شوقى ضيف والمذهب البغدادىّ المزعوم :

ومن امثلة التخليط الذى وقع فيه المحدثون المعاصرون : ما جاء فى (المدارس النحوية) فقد عرض الدكتور ضيف فى كتابه هذا لما سماه بالمدرسة البغدادية ، فقال : « اتبع نحاة بغداد فى القرن الرابع نهجا جديدا فى دراساتهم ومصنفاتهم النحوية يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعا ، وكان من أهم ما هيّأ لهذا الاتجاه الجديد انّ أوائل النحاة تتلمذوا للمبرد وثعلب ، وبذلك نشأ جيل يحمل آراء مدرستيهما ، ويعنى بالتعمق فى مصنفات اصحابهما ، والنفوذ من ذلك الى كثير من الآراء النحوية »(٩١) ٠

---

(٨٩) الايضاح فى علل النحو ٧٩ ط ١ ٠
(٩٠) الايضاح ٨١ ٠
(٩١) المدارس النحوية ٢٤٥ ٠

ثم قال : « وحاول بعض الباحثين المعاصرين ان ينفى وجود المدرسة البغدادية معتمدا على من ينظمون افرادها فى البصريين والكوفيين ، وأنّ علمين من اعلام جيلها الثانى ينسبان انفسهما فى البصريين ، وهما أبو على الفارسىّ وتلميذه ابن جنّى ، اذ يعبرّان فى تصانيفهما عنهم كثيرا بكلمة (اصحابنا) وينتصران فى اغلب الامر للآراء البصرية ، وكثيرا ما يطلق ابن جنى على الكوفيين اسم البغداديين ، وكأنهم مدرسة واحدة »(٩٢) .

ولم ير الدكتور ضيف فى هذا ما يكفى لنفى وجود المدرسة البغدادية ، لأنهما ، وان نسبا انفسهما الى البصريين ، كانا يتبعان فى مصنفاتهما لمذهب البغدادىّ الانتخابى ، وغلبة النزعة البصرية « لم تخرجهما عن دوائر الاتجاه البغدادىّ القائم على الانتخاب من آراء البصريين والكوفيين »(٩٣) .

ثم جعل الدكتور ضيف البغداديين جيلين ؛

يبدأ الجيل الاول بابن كيسان ، ويختم بالزجاجىّ .

وجعل من الجيل الثانى أبا علىّ الفارسىّ ، وابا الفتح بن جنّى .

وقد اعتمد فى القول ببغدادية هؤلاء ، فيما اظن ، ما وجده عند ابن النديم من أنّهم كانوا يخلطون المذهبين ، وما وقف عليه من آراء لهم يتفقون فى بعضها مع البصريين ، وفى بعضها الآخر مع الكوفيين .

غير ان هذا لم يكف فى القول ببغداديتهم ، لان ابن النديم اذ جعل هؤلاء فيمن خلط المذهبين لم يبدُ عليه انه كان يلمح فى مصنفاتهم وآرائهم أنهم ينهجون نهجا جديدا يقوم على الانتخاب والمزج والتوحيد ، ولكنه رأى عندهم حرية فى الأخذ عن هؤلاء وهؤلاء لم يعهدها فى البصريين من قبل ، لان البصريين

(٩٢) المدارس النحوية ٢٤٥ .
(٩٣) المدارس النحوية ٢٤٦ .

كانوا يرون الحكاية عن الكوفيين مأخذا على الدارس ، لانهم كانوا لا يرون في الكوفيين « من يوثق به في كلام العرب ، ولا من يرتضى روايته ، فان ادعى احد منهم شيئا رأيته مخلطا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة»(٩٤) ولذلك لم يرو احد من البصريين عن الكوفيين بعد ابي زيد الأنصاري ، ولم أهتد في حملة ابي الطيب اللغوي على ابن قتيبة الى سبب غير انه لم يتحرج في حكايته عن الكسائي والفراء وغيرهما من الدارسين البغداديين .

فاذ رأى ابن النديم فيهم هذا جعلهم في جماعة ثالثة غير ناظر الى النزعة البصرية عند بعضهم ، او النزعة الكوفية عند بعضهم الآخر ، وان تلمذوا لثعلب والمبرد ، وحكوا عنهما في مصنفاتهم .

ومن هنا يبدو مدى تمحل الدكتور ضيف في جعله ابن كيسان والزجاجي وأبا علي الفارسي وأبا الفتح بن جني أعلاما لمدرسة بغداد المتوهمة ، لان حكاية هؤلاء عن الكوفيين أو اختيارهم بعض آرائهم لم تفصلهم عن النزعة القوية التي تشدهم الى البصريين .

أما ابن كيسان فلم يستقر القدماء على رأي فيه ، فبينا كان ابن النديم يعده من الجماعة التي خلطت المذهبين اذ كان الزجاجي يرى أنه من علماء الكوفيين الذين كانوا قدوة أعلاما في علم الكوفيين ، وكان السيرافي يعده في البصريين، ويرى أن الرئاسة في النحو البصري آلت اليه والى الزجاج بعد أبي العباس المبرد»(٩٥) .

أكبر الظن أن القدماء اذ جعلوا ابن كيسان فيمن خلط المذهبين لم ينظروا الى خصائص طريقته ، وانما نظروا ، في أكبر الظن ، الى أنه كان واقفا على آراء البصريين والكوفيين بتلمذته لثعلب والمبرد ، ووقوف الدارس على آراء مدرسة بعينها لا يعني أنه من رجالها ، ما لم يكن آخذا بأسلوبها في تناول

---

(٩٤) مراتب النحويين ١٠١ .

(٩٥) انظر : أخبار النحويين البصريين ١٠٨ بيروت .

الموضوعات بالدرس ، ولا أرى ابن كيسان الا بصريا ، لأنه كان ينزع منزعا بصريا بعنايته بالعلل ، واحتذائه المناطقة ، وتلك سمة من أبرز سمات المذهب البصري في النحو ٠

وأما الزجاجي فلا أظن موقف الدكتور ضيف منه أحسن من موقفه من ابن كيسان ، فقد كان في كتابه (الايضاح) مطبوعا بطابع بصري أصيل ، وكان هو يتحدث عن نفسه تحدث البصري ، وكان يقف من الكوفيين موقفا اذا لم يكن أثر التعصب عليهم واضحا وضوحه في موقف أبي حاتم السجتاني منهم فهو موقف الغريب عنهم فلم يكد يتناول مسألة من مسائل الكوفيين الا كان لها مضعفا ، وكان يصرح في وضوح أنه يجهل علم الكوفيين وآراءهم ، وأنه اذا أراد الوقوف على رأي الكوفيين نشده عند ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وكان يقول : « وأكثر ما أذكره من احتجاجات الكوفيين انما أعبر عنها بألفاظ البصريين(٩٦) ٠

يضاف الى ذلك أنه انما قرأ على بصريين ، على أبي اسحاق الزجاج، ثم أبي بكر بن السراج، وانه كان ينتصر لمذهب البصريين ، ويسلك نفسه فيهم ، ويستمسك بمصطلحاتهم وعباراتهم ، وينتهج منهجهم في الاحتجاج والاعتلال٠ وان الدكتور ضيف نفسه يرى أن الزجاجي كان ينحو في كتابه (الايضاح) منحى البصريين «ومن يقرأ الكتاب يرى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفقه ، أو بعبارة أدق عللها جميعا تمس جوانب التعليل والاحتجاج به(٩٧) ٠

الحق أنه ليس في كتاب «الايضاح» ما يشير الى أنه كان يستند في بعض أقواله الى رأي كوفي ، فقد كان يتحدث فيه عن حدود الاسم والفعل والحرف، ويوازن بين حدود المناطقة وحدود النحاة ، ويعرض لبعض مسائل الخلاف بين

---

(٩٦) الايضاح ٧٩ ، ٨٠ ٠
(٩٧) المدارس النحوية ٢٥٢ ، ٢٥٣ ٠

البصريين والكوفيين ، كأصالة المصدر او الفعل ، وكالكلام على علل النحو ، وكمسألة سبق الاعراب الكلام أو سبق الكلام الاعراب ، ومسألة دخول الاعراب فى الكلام ، ومسألة حقيقة الاعراب أهو حركة أم حرف،ومسألة المستحق للاعراب من أقسام الكلمة ، ومسألة الأسبق من أقسامها فى المرتبة ، وغيرها . وكان الزجاجى يعرض حجج الفريقين ، ويحتج لها باحتجاج عقلى لاتجد له صدى فيما قرأنا من أقوال الكسائي والفراء وثعلب ، وكان ينتهى فى كل مسألة الى ترجيح مذهب البصريين ، وتضعيف مذهب الكوفيين فعل ابي البركات الانبارى من بعده فى كتابه (الانصاف) .

ولم يلتفت الدكتور ضيف الى التناقض الواضح فى أقواله ، فى ذهابه الى أن الزجاجي من أعلام الجيل الأول من البغداديين الذين يحملون آراء المدرستين، وقوله : كان الزجاجي « يقف عند اختلاف البصريين والكوفيين فى المصدر والفعل أيهما مأخوذ من صاحبه ، ويفيض فى بيان احتجاجات كل فريق محاولا اضعاف الحجج الكوفية»(٩٨) ، وقوله : « كل مسألة يرى فيها جدالا أو حجاجا بين البصريين والكوفيين يوردها مفصلا القول فيها ، وقد يضيف من عند وجوها من العلل والاقيسة ، وهى جميعا تغمس فى اصطلاحات المناطقة ، والمتفلسفة ، والمتكلمين ، واصحاب الاصول،ونحس فى وضوح انه يقف مع البصريين مناضلا مدافعا ، مما يؤكد نزعة بصرية قوية فى مباحثه(٩٩) .

ولعل هذا يكفى فى الاقتناع بما جاء فى كلام الدكتور ضيف من تناقض لم يوفق معه الى التوفيق بين مكان الزجاجي فى البغداديين ، ونزعته البصرية القوية، أو محاولته اضعاف الحجج الكوفية ، أو غمس احتجاجاته فى اصطلاحات المناطقة والمتفلسفة ، والمتكلمين والأصوليين .

---

(٩٨) المدارس النحوية ٢٥٣ .
(٩٩) المدارس النحوية ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

أمّا حديثه عن الجيل الثاني من أتباع مدرسة بغداد الذين حملوا آراء البصريين والكوفيين وتعمقوا في مصنفات الفريقين ، كما قال ، فلا يختلف عن حديثه عن ابن كيسان والزجاجيّ خلطا ، فهو اذ يحاول فيه أن يقنع الدارسين ببغداديته يرى :

أن أبا عليّ الفارسيّ ، وهو على رأس الجيل الثاني من البغداديين ، كان يغلو في القياس ، وكان ابن جنى « يتعجب كثيرا من مهارته في القياس ، حتى ليقول : ما كان أقوى قياسه ، فكأنه مخلوق له ٠ويُروى عنه قوله : أخطىء في خمسين مسألة في اللغة ولا أخطىء في واحدة من القياس »(١٠٠) ٠

وأن ابن جنّى في الخصائص « يردد حديثه عن البصريين باسم أصحابنا ، كما مرّ في غير هذا الوضع ، وكثيرا مايضعهم مقابل البغداديين » ٠ على أنه مالبث أن قال : « انه يريد بالبغداديين أوائلهم ممن كانوا ينزعون الى الكوفة مثل ابن كيسان ، وهم حقا من ذوق غير ذوقه ، ومن هوى غير هواه ، فهو بغدادي من طراز آخر ، طراز أستاذه أبي عليّ الفارسيّ والزجاجيّ، طراز كان ينزع الى البصريين ، وهو الطراز الذى عمّ وساد منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري »(١٠١) ٠

وهذا الكلام انما ينمّ على احساس قويّ بأن أبا الفتح بن جنّى وأستاذه أبا عليّ الفارسيّ وأبا القاسم الزجاجيّ كانوا بصريين مذهبا وكانوا يضعون انفسهم مقابل البغداديين الذين هم أوائل الدارسين في بغداد ؛ الكسائيّ والفراء وثعلب ٠

ولكن هذا الاحساس القويّ ببصرية هؤلاء يقابله احساس قويّ بالتورط في القول بوجود المدرسة البغدادية التى كان أعلامها يحملون آراء البصريين والكوفيين ، ويتعمقون في مصنفات الفريقين ٠ ولذلك زعم أن ابن جنى يريد

(١٠٠) المدارس النحوية ٢٦٤ ٠
(١٠١) المدارس النحوية ٢٦٨ ٠

بالبغداديين أوائلهم ممن كانوا ينزعون الى الكوفة مثل ابن كيسان ، ولم يكن ليقول هذا لو لم يقف على زعم الزجاجي نفسه بأن ابن كيسان من علماء الكوفيين الذين كانوا قدوة أعلاما فى علم الكوفيين ٠

لقد كان الدكتور ضيف فى زعمه هنا يقف على منحدر من الرأى لم يستطع تثبيت أقدامه فيه ، ولذلك لم تستو الحجة عنده ، ولم يجد من منحدره منجاة فظل سادرا فى وهمه لا يلوى على شيء ٠

وهذا الذى ذكره هنا هو الذى كان (كوتولدڤايل) يراه من قبل ، فقد كان يرى أن «طريقة البغداديين جميعا كانت فى أسسها بصرية، فهم لم يكونوا مدرسة ذات اتجاه خاص يسوغ تسميتها مدرسة مزج واختيار ، بل يمثلون دراسة فى دائرة النحو البصرى يزيد من أهميتها وقيمتها أنها بدأت فى ذلك الوقت بتجريد نظام القياس النحوى على وجه دقيق ، ولذلك سرعان ما فقد أيضا ذلك الاسم الخاص دلالته ٠ واذا كان البغداديون فى المواضع القليلة التى يرد ذكرهم فيها عند النحاة يمثلون رأى الكوفيين فلا يجوز أن يضللنا ذلك عن حقيقة أمرهم، لأنه انما يذكر رأيهم الخاص فى الأحوال التى يخالفون فيها آراء البصريين العامة » (١٠٢) ٠ غير أن (ڤايل) لم يناقض نفسه ، ولم يتورط بادعاء أنهم بغداديون ، وهم ينزعون الى البصرية ٠

ومن آثار التورط فى موقف الدكتور ضيف ما وقع فيه من وهم وتخليط بجعل أبي البركات الأنبارى المتعصب للبصريين على الكوفيين واحدا من اتباع المدرسة البغدادية ، متشبثا فى ذلك بأوهى الأسباب ، فقد زعم أن أبا البركات بغدادى « على شاكلة أبي علي ، فهو يجرى فى جمهور آرائه مع البصريين ، ويفتح الأبواب لاختيار بعض آراء الكوفيين»(١٠٣) ٠

---

(١٠٢) مقدمة (ڤايل) لكتاب الانصاف — ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ٠
(١٠٣) المدارس النحوية ٢٧٨ ٠

ذلك أنه وافق الكوفيين فى سبع مسائل من احدى وعشرين ومئة مسألة ولم يثنه عن وهمه هذا معرفته بمصادر دراسته وأسلوبه فى تناول موضوعات النحو ومسائله بالدرس ، ونزعته النظرية العقيمة ، واسرافه فى التعصب للبصريين على الكوفيين ٠

وقد نسى الدكتور ضيف أو تناسى أن الدارس الذى ينتمى الى مذهب من المذاهب ربما كان له وجهة نظر خاصة يخالف بها أصحابه فى المسائل ، ولا يخرجه ذلك عن دائرة المذهب الذى ينتمى اليه ، وأمثلة هذا أكثر من أن تحصى

فقد خالف سيبويه أستاذه الخليل فى بعض المسائل ، وخالف الاخفش سيبويه ، وخالف المبرد سيبويه أيضا ، ونقض كثيرا من آرائه ، ولم يخرج هؤلاء من مكانهم الذى احتلوه فى الدائرة البصرية ٠

وخالف الفراء الكسائيّ فى كثير من المسائل ، وخالف هشام الكسائيّ والفراء فى مسائل،وخالف ثعلب الكسائىّ والفراء،ولم يخرِجْ الفراء،ولاهشاما ولا ثعلبا عن المكان الذى شغلوه فى الدائرة الكوفية أنهم خالفوا مَنْ خالفوه من اصحابهم ٠

ومن ثقافة الدارس والفروق العقلية بين الدارسين ما يسمح بمثل هذا الخلاف ، بل مايمهد الطريق الى مثله ، ولكنه لايمس الخطوط العامة للمذهب الذى ينتسبون اليه ٠

كان أبو البركات قد رجّح رأي الكوفيين فى سبع مسائل من احدى وعشرين ومئة مسألة لاتمثل جميع مسائل الخلاف ، حين أعوزته الحجة التى ينتصر بها لمذهبه ، وقام الدليل القاطع على صحة مقالة الكوفيين فيها فلم يسعفه ذكاؤه ولا قدرته على التزييف فى اخفاء وجه الصواب فيما ذهبوا اليه ، ولا يعني هذا أنه كان يفتح الأبواب لاختيار بعض آراء الكوفيين ، وينتخب من مزايا مذهبهم ما يوحده مع مزايا مذهب البصريين ، واطلاق مثل هذا القول الذى لايدل على عمق فى تصوّر المذهب من التخليط الذى لايقره منطق البحث ٠

ان تلاميذ ثعلب والمبرد الذين ذكرهم ابن النديم على أنهم خلطوا المذهبين لم يكونوا ليكونوا فريقا واحدا ، ولم ينتسبوا الى مذهب واحد ، فقد كان منهم من انحاز الى المذهب البصرى انحيازا تاما ، وانقطع عن المذهب الكوفي انقطاعا تاما ، وكان أبو اسحاق الزجاج رأس هؤلاء ، وكان ينبغى لابن النديم أن يعده فيمن خلط المذهبين ، لانه أخذ عن ممثلى المذهبين ،بل كان اعتماده فى الدرس النحوى أولا على ثعلب ، وكان يلازمه ويستكثر عنه ، ولم ينقطع عنه الا بعد ورود المبرد بغداد ، لكنه لم يُعَدّ فيمن خلط المذهبين ، ولم يذكره احد مع البغداديين ٠ وكان اصحاب الطبقات ، اذا ترجموا له يتحدثون عن رئاسته فى النحو البصري بعد المبرد، مَثَلُه كمثل أبى بكر بن السراج الذى لم يشك دارس فى بصريته ، ولا ملازمته مذهب المبرد والزجاج ، وكان ابن السراج من قبل قد تلمذ للمبرد حدثا ، وكان المبرد يعنى به ، ويقربه ، ويختصه بعنايته(١٠٤)، والى ابن السراج انتهت الرئاسة فى النحو البصرى بعد أبى اسحاق الزجاج ، ولكنه ، معذلك ، كان يكثر من نقوله عن الكوفيين ، ولم يخرجه هذا عند ابن النديم الى الجماعة التى كانت تخلط المذهبين ، ولا كان فى نظر الدكتور ضيف معدودا من المتعمقين فىمصنفات الفريقين،ولا تشبث بنقوله الكثيرة فى(اصوله) عن الكوفيين فى جعله من البغداديين ، كما تشبث بموافقة الانبارى الكوفيين فى سبع مسائل فقط لعده من البغداديين ٠

وكان منهم [من تلاميذ ثعلب والمبرد] من لزم المذهب الكوفى ، وغلبت عليه النزعة الكوفية ، وانتصر للكوفيين ، وثعلب على البصريين مثل أبى بكر ابن الخياط، وكانا فى رأي الزجاجي من علماء الكوفيين الذين كانوا قدوة أعلاما فى علم الكوفيين ، ولم يخرجهم عن الدائرة الكوفية أنهم تلمذوا لمثلي المذهبين، وجمعوا علم البصريين الى علم الكوفيين ٠

---

(١٠٤) فهرست ابن النديم ٩٢ ٠

واذا كان الدكتور ضيف يعني مايقول حقا حين قرر ان طراز أبي علي وأبي الفتح طراز كان ينزع الى البصرة، وهو الطراز الذى عم وساد منذ ألنصف ألثانى من القرن الرابع، فكان ينبغى ان يتوقف قلمه عند هؤلاء ، ولا يتجاوز هذا القرن ، وان يكف عن التمادى فى التحدث عن المدرسة البغدادية ، وان يكبح جماح قلمه وذهنه فلا يطوى العصور ، ويقطع المسافات ، فيسم الدارسين هنا وهناك بميسم البغدادية المفتعلة ، ويطوى بمزاعمه الاندلس والمغرب ومصر فاذا بالنحاة على اختلاف عصورهم وعلى تباعد مواطنهم ينضوون جميعا فى ظل (البغدادية)، ثم يوغل فى ارتكاب التناقضات ، فاذا بهؤلاء الدارسين متقدمين ومتـــأخرين يُوَحَّدون ، ويُسْلَكون فى البغداديين ، ثم يفرقون الى مدارس؛ مدرسة اندلسية ومدرسة مصرية ، حتى لم يعد فى أذهان الدارسين مفهوم محدد للمذهب ، ولم يبق فها مدلول معين للمدرسة ٠

الأنصارى والمدرسة البغدادية المزعومة :

كانت فكرة المذهب البغدادى ، أو المدرسة البغدادية قد راقت لدارسين قبل الدكتور ضيف ، لعل أبرزهم هو الدكتور احمد مكى الانصارى صاحـب كتاب (أبو زكريا الفراء) ٠

أقام الدكتور الانصاري رأيه على الاساس الذى استند اليه من قبـــل (فلوكل) و (بروكلمان) ثم أحمد أمين الذى اليه يرجع الدارسون المحدثون فـــى تصورهم المذهب الثالث القائم على اساس الاختيار والمزج والتوحيد ، اعنـــى الاختيار من آراء البصريين والكوفيين ، وخلط تلك الآراء ، ثم توحيدها فى مذهب ثالث ماهو بالبصرى ولا بالكوفى ٠

غير أن الدكتور الأنصاري جاء فى كتابه هذا برأي غريب أوقعه فى خلط وتناقض لم يوفق الى الخروج منهما ، لأن هذا المذهب الثالث انما يقوم على تصور مذهب بصري ، ومذهب كوفى ٠ ولم يفت الدكتور الانصاري هذا التصور ، فقد عقد فى كتابه فصلا عرض فيه لمقومات مذهب البصريين ومقومات مذهب الكوفيين ، ليمهد به سبيله الى تصوير مذهب ثالث يقوم على أساس من الاختيار من المذهبين ، ومزج هذا المختار ، وتوحيده فى مذهب ثالث جديد ليس بصريا ولا كوفيا ٠

كان الدكتور الانصاري قد سبق الدكتور ضيف فى الوقوع فى شبهة (البغدادية) الا ان خطواته فى تصويرها أقرب الى خطوات الباحث ، لأنه قدم بين أيدى الدارسين خصائص المذهب البصرى ، وخصائص المذهب الكوفى ، ولم يتعسف فينكر أن يكون للمدرسة الكوفية وجود ، ولم يستبح أصالتها فينسب مذهبها الى يونس بن حبيب كما فعل (فايل) ، أو الى سعيد بن مسعدة الاخفش ، كما فعل الدكتور ضيف مؤلف (المدارس النحوية) ، وذلك أنه قال « ان الذى لامناص منه أن المدرسة الكوفية حقيقة تاريخية كانت لها شخصيتها المستقلة فى فترة من الزمن »(١٠٥) ٠

الا أنه لم يسلم من الوقوع فى التخليط عند التطبيق ، فقد بدأ المدرسة الكوفية بأبي جعفر الرواسي ، وختمها بأبى جعفر الرواسى ، وجعل الرواسى يبدو وكأنه أستاذ المدرسة وتلميذها ٠

أما الكسائي فكان يمزج المذهبين ، لأنه لم يخلص للكوفية ، كما لم يخلص للبصرية ٠

---

(١٠٥) أبو زكريا الفراء ٣٥٨ ٠

وأما الفراء فقد تعهّد مابناه الكسائى بالرعاية وأتمّه ، واستوى الدرس النحوى الجديد الذى يقوم على الاختيار والمزج على يديه درسا حياً له شخصيته المتميزة ، وطابعه الخاص · واذا كان الكسائيّ هو واضع رسوم المذهب ، فقد جاء الفراء من بعده ليكسب المذهب ملامحه ، وليبرز شخصيته ·

ولم يرد الدكتور الانصارى لصاحبه أن يكون من الكوفيين ، لأنه فيما كان يراه فيه لم يلتزم بما ألزم الكوفيون أنفسهم من خصائص المذهب ، وكان يمزج الآراء الكوفية بالآراء البصرية ، فهو اذن طراز جديد من الدارسين ، فبينا هو كوفيّ باعتداده بالسماع ، واحترامه القراءات اذ به بصرىّ فى تمسكه بالقياس ، ووقوفه فى وجه الشواذ ، وطعنه على القراءات السبع على حد قوله فهو أذن يجمع فى دراسته خصائص ما أخذه عن الكوفيين ، وخصائص ماأخذه عن البصريين ، وهو جدير بأن يكون مؤسس مدرسة بغداد التى تمخض منها تلاقي المدرستين وامتزاج مزاياهما فى دراسته ·

ولم يكتف الدكتور الأنصاريّ بأن يبعد عن المدرسة الكوفية أحذق رجالها ويقصرها على أبى جعفر الرواسيّ ، فيجعل منه أستاذ المدرسة وتلميذها وراسم مذهبها ، بل تجاوزه الى حدود أبعد والى مدى أوسع ، فزعمأنه وضع يدهعلى البذرة الاولى للمذهب البغدادىّعند عيسى بن عمر المتوفى سنة ١٤٩ للهجرة ، فرآه « يمزج الى علمه البصرىّ ظلالا من خصائص المدرسة الكوفية ، فكان يقيس على الشاهد الواحد النادر شأنه فى ذلك شأن الكوفيين»(١٠٦) ·

وكان يمكن للدكتور الانصارى ان يكون منطقيا او أنه عكس الامر فذهب الى تأثر الكوفيين بمذهب عيسى بن عمر فى قياسهم على الشاهد الواحد النادر ، ويكون عيسى بن عمر هو الموجه الحقيقى للدرس الكوفىّ الذى عُرف

(١٠٦) ابو زكريا الفراء ٣٦٤ ·

عند الكسائي والفراء وتلاميذهما ، ويكون الدكتور الانصاري حينئذ ثالث اثنين كانا قد سلبا الدرس الكوفي اصالته ، ونسباه الى منوجه بصري . وهما (فايل) والدكتور ضيف .

ولكنه جعل عيسى بن عمر هو ملهم البغداديين وموجههم الى الاختيار والمزج والتوحيد ، وجعل الفراء هو المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية ،لان مذهبه يقوم « اساسا على التحرر من قيود العصبية المذهبية ، فهو ينزع منازع اهل البصرة حينا ، كما ينزع منازع اهل الكوفة احيانا ، لهذا رأيناه يمزج بين المذهبين ، ويختار أحسنهما فى نظره ، واقربهما الى منهجه الخاص ، ذلك الذى رأينا فيه كل مقومات المذهب البغدادي ، فقلنا : انه المؤسس الحقيقي لهذا المذهب الجديد ، وما المذهب البغدادي الا تحرر ومزج وتجديد»(١٠٧) .

ولا يستطيع الدارس ان يتصور كيف كان الفراء هو المؤسس الحقيقي لهذا المذهب الجديد ، وقد سبقه اليه اعلام الدارسين مثل عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، وابى زيد الانصاري ، وسعيد بن مسعدة الاخفش ، والكسائى ، ولا كيف تكون البذرة الاولى للمذهب البغدادي عند عيسى بن عمر ، ألم يكن عيسى هو استاذ ابى جعفر الرواسي الذى قدر له ان يكون وحده هو مدرسة الكوفة ، لانه الاستاذ والتلميذ والمذهب ، ولا أحد غيره يشاركه ؟

اذا كان عيسى بن عمر يمزج المذهبين فينبغي ان يرجع الدكتور الانصاري القهقرى ليُسمّي دارسين كوفيين عرف لهم مذهب تأثر به عيسى فراح يمزجه بمذهب البصريين ، ولكنه لم يفعل ، لانه انتهى الى أن أبا جعفر الرواسي تلميذ عيسى هو رئيس مدرسة الكوفة .

---

(١٠٧) ابو زكريا الفراء ٣٩٥ .

الحقّ أن هذه المزايا الجديدة التى رآها الدكتور الانصاريّ فى صاحبه بثالوثها ، التحرر والمزج والتجديد انما هى مزايا الدرس النحوى الذى وقف بازاء المذهب البصريّ ، وبسط نفوذه على بيئات الدرس فى بغداد .

وان الدارسين الكوفيين البغداديين هم الذين تحرروا من ربقة تحكيم العقل فى الدرس النحويّ والدرس اللغويّ ، وهم الذين مزجوا ما تلقوه من نحو بصريّ الى ما اضافوا الى الدرس من اضافات لها قيمة كبيرة ردت الى الدرس النحويّ اعتباره ، ثم هم الذين جددوا فى اسلوب الدرس ، وحكّموا الاعتبارات اللغوية فيه ، وبنوا نحوهم على الاصول التى ينبغى أن يبنى عليها من اعتداد بالنقل ، واحترام للقراءات ، واتساع فى الرواية ، والنظر الى البيئات اللغوية الموثوق بفصاحتها ، وسلامة عربيتها على انها المورد الذى يصدر عنه الدرس النحويّ .

وان الدرس الذى بدأ بعمل الكسائيّ ، وتعهده الفراء هو الدرس الذى وقف بازاء الدرس البصرى ، وسُمّي فيما بعد بالدرس الكوفيّ ، وهو الدرس البغدادى الذى شهدته بيئات الدس فى بغداد بُعَيْد تمصيرها .

وان اسم البغداديين الذى جرت به اقلام النحاة هو اسم للنحاة الكوفيين .

وان فكرة (المذهب البغداديّ) التى اخترعها المحدثون ، وتعهدها الدكتور الانصاريّ ، ثم الدكتور شوقى ضيف فكرة لم تتجاوز حدود (النظرية) التى لم يوفق اصحابها الاولون ، ولا دعاتها الآخرون الى اقامة الدليل عليها .

خاتمة البحث

رأينا ، بعد استعراض الدارسين فى بغداد . ان الدارس الاول فيها هو ابو الحسن على بن حمزة الكسائىّ ، ولم يعرف الكسائى فى غير بغداد علما من اعلام الدرس النحوىّ ، واذ كان فى الكوفة كان من اعلام القراءة ، وكانت القراءة ابرز جوانب الثقافة فى الكوفة ، وقد ظهر فيها من القراء ثلاثة من أئمة القراءة الذين شهروا فى الامصار الاسلامية ، وهم : عاصم بن ابى النَّجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلىّ بن حمزة الكسائى ، ولم يكن للدرس النحوىّ فى الكوفة مكان فى اعتبار الدارسين الا بمقدار ما يحقق الحاجة الى تصحيح قراءة . ولم يشهر فيها دارس يقف بازاء الدارسين فى البصرة .

اما ابو جعفر الرواسىّ ومعاذ الهرّاء فلا يعدوان ان يكونا مؤدّبين يقدمان لتلاميذهما شيئا من علم الاعراب وشيئا من اللغة وشيئا من الشعر وشيئا من الاخبار والانساب ، ولعل معرفتهما بالنحو ترجع الى تلمذتهما او سماعهما من بعض اعلام الدرس فى البصرة ، وقد نسب بعض اصحاب الطبقات علم ابى جعفر بالنحو الى عيسى بن عمر ، وبعضهم الى ابى عمرو بن العلاء . اما معاذ الهراء فلم اقف على من ينسب اليه علمه بالعربية ، او على مدى علمه بها ، وكل ما هناك مزاعم مخلّطة تجعل ابا جعفر مؤسس مذهب ، أو تنسب اليه كتابا لم يعرف منه الا اسمه وتزعم ان الخليل بن احمد أفاد منه ، ووضع كتابه عليه . ولا اظن ان هذه المزاعم كانت تهتم بتثبيت الرئاسة لابى جعفر بقدر اهتمامها بالتشكيك فى رئاسة الخليل وعلمه ، وقد اصطنعت هذه المزاعم هذا الاسلوب لتغضّ من شأن الخليل حتى يقرن اسمه باسم الدارس المغمور ، المعروف بالرواسىّ ، بل لتجعل منزلته دون منزلته ، لانه لم يضع كتابه الا بعد ان وقف على كتاب الرواسىّ المسمى بالفيصل ، وافاد منه .

وليست هذه هي الفرية الفريدة لمحاولة النيل من علوّ مكانة الخليل ، وشموخ عبقريته ، فقد تذاءب حوله حسّاده ، وذهبوا للنيل منه مذاهب شتى .

فهذا سعيد بن مسعدة الاخفش يتطاول على الخليل فيزعم انه استدرك عليه بحرا لم يصل اليه ولم يعرفه ، وأنه اول من نبّه على عوار الكتاب .

وهذا أبو حاتم السجستانيّ ومن تابعه يفتاتون فيزعمون ان كتاب العين انما هو لليث بن المظفر ، ويشككون في نسبته الى الخليل ، حتى اذا اطمأنّوا أنّ المزاعم جازت على الدارسين سطوا على مافي كتاب العين ، وجعلوا من المنحول أو المفتعل قوام مصنفاتهم في اللغة ، فكان كتاب «تهذيب اللغة » للأزهريّ ، « والكتاب البارع » للقالي .

وهذا الجاحظ الذي اضطربت آراؤه ، واتخذ من التلعب بالالفاظ اسلوبا لادبه وتأليفه ، يحمل على الخليل ، ويضطرب في رأيه فيه فهو من كبار النظار المتكلمين الذين كانوا يعرفون أقدار المعاني ، ويشتقون لها الاسماء من كلام العرب(١) وهو في نظره ، من جهة اخرى مغرور « غره احسانه في النحو والعروض ، فظن انه يحسن الكلام وتأليف اللحون ، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ، ولا يدل عليها الاّ المرّة المحترقة ، ولا يؤديّ الى مثل ذلك الا خذلان من الله تعالى »(٢) .

غير انهم رجعوا بخفي حنين ، وآبوا بمثل ما آب به الوعل الذي سوّلت له نفسه ان ينطح صلد الصخور .

ولم يذكر اصحاب الطبقات دارسا آخر تنسب اليه الرئاسة في النحو الكوفيّ الاّ الكسائيّ ، والكسائي لم يشهر بالنحو قبل ذهابه الى البصرة ولقيّه الخليل بن احمد وارتحاله الى البوادي لمشافهة الفصحاء ، واذ رجع

(١) البيان والتبيين ١/١٥٣ .
(٢) الحيوان ١/٩٢ ، ٩٣ .

من البادية بعد رحلة طويلة لم يكن له هم الا البصرة والخليل ، ولكن الخليل كان قد مات قبل وصوله الى البصرة ، ولم يمكث فى البصرة طويلا ، فقد رجع الى الكوفة ، ولكنه لم يلبث ان أزعج الى بغداد ليؤدب ولد المهدى وكان قد استجاب لامر الخليفة ، واقام فى بغداد ٠

اخذ الكسائى بعد اقامته فى بغداد يتصدر حلقات الدرس ، ويخطط لمذهب نحوى جديد يبنيه على أسس جديدة مستفادة من منهج الدراسة التى ألفها يوم كان فى الكوفة ، وهى القراءة التى هى سنّة متبعة ، لا تصحح بالقياس ، ولا تخضع للتعليل ، وهو منهج جديد اذا قرن بمنهج البصريين فى تناولهم موضوعات النحو بالدرس ٠

فالكسائى اذن هو النحوى الاول الذى شهدته الكوفة ، وهو النحوى الاول الذى شهدته بغداد ، واذا اريد ان يؤرخ للدرس النحوى فى الكوفة أو فى بغداد فينبغى أنْ يؤرخ له بعمل الكسائى ، وهو يتصدر مجالس الدرس فى بغداد ٠

واخذ عنه جماعة من الدارسين كان ابو زكريا الفراء فى مقدمتهم ، فقد كان على جانب عظيم من الذكاء وحدة الذهن وقوة الحفظ ، ودقة الضبط . وكان ، ولم يكن من الدارسين المعاصرين فى بغداد او البصرة من يقرن به ، وكان من بعد الهمة أنْ اعاد النظر فى الدرس النحوى جملة ، ورسم له الحدود التى اكسبته الشخصية المستقلة ٠

وسار الدرس فى حدود مارسم الفراء وخطّط ووضع حتى تولى الرئاسة فيه ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب ، وكان اخذ اللغة عن محمد بن زياد الاعرابى ، والنحو عن سلمة بن عاصم ومحمد بن قادم ، ولم يبلغ الخامسة والعشرين حتى حفظ كتب الفراء كلها وتصدر للتدريس ، وكان حافظا ثبتا ثقة معروفا بصدق اللهجة والمعرفة بالعربية والشعر ، وكان من سعة الحفظ أنْ كان ابن الاعرابى استاذه اذا شك فى شىء سأله عنه ، وكان نموذجا

للدارس البغدادي الذى يعتد بالسماع ، وكان اذا سئل عن مسألة قال : قال الفراء وقال الكسائي ، فاذا سئل عن العلة لم يعرف النظر ، هكذا وصفوه ، وربما كانوا يغمزونه بهذا اذا اريد الى الموازنة بينه وبين معاصره ابى العباس المبرد ، ولكنهم كانوا على وهم كبير لانهم كانوا يظنون خطأ ان سبيل النحو هو القياس والتعليل والنظر .

واذ ورد المبرد بغداد كانت الحياة العقلية مهيأة لتقبل الدرس البصري واساوبه العقلي في معالجة موضوعات النحو وتعليلاته واحتجاجاته والزاماته، ووجد الدارسون في النحو البصري ما يتلاءم مع الاتجاهات العقلية في الدرس فأخذوا يختلفون الى مجلسه ، واخذ جماعة منهم ينقطعون عن مجلس ثعلب ، ويلزمون المبرد ، وجماعة منهم يلزمون مجلس ثعلب ، وجماعة ثالثة كانت تختلف الى المجلسين وتأخذ عن الشيخين .

وقد ادى هذا الى ان ينقسم الدارسون على انفسهم ، فمن مؤيد لمذهب ثعلب ، ومؤيد لمذهب المبرد ، وادى هذا الانقسام الى احياء التعصب المذهبي وادى احتكاك التلاميذ بعضهم ببعض الى اشتداد هذا التعصب ، وفي عهد هؤلاء راجت الافتعالات والمزاعم ، وراح كل فريق يتعصب لشيخه ومذهبه ، وفي عهد هؤلاء ظهرت التسمية بالكوفية ابتدعها تلاميذ المبرد ليميزوا انفسهم من تلاميذ ثعلب ، لانهم جميعا بغداديون ، ثم انسحبت التسمية على شيوخهم ثعلب والفراء والكسائي وغيرهم ، وقبل هذا لم يكن الكسائي ولا الفراء ولا ثعلب ليسموا بالكوفيين ، حتى المبرد نفسه لم يكن يعرف هذه التسمية ، ولم تجر على لسانه ولا قلمه ، بل كان اذا تحدث عنهم او حكى عن احدهم سماهم بالبغداديون ، فقد حكي عنه انه قال : «مارأيت للبغداديين كتابا خيرا من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق »(٣) ، وهو انما عنى بالبغداديين من نسميهم اليوم بالكوفيين .

---

(٣) نزهة الالباء ٢٤٠ .

وظل البغداديون الكوفيون يمثلون خطا واضحا ، واتجاها على حـــدة ، والبغداديون البصريون يمثلون اتجاها آخر على حدة ايضا ، وسار الاتجاهات جنبا الى جنب وهما يتدفقان قوة وحيوية ، ويقدمان للدرس النحوى واللغوى مزيدا من القوة والحياة طوال القرن الرابع ، لانهما كانا ما يزالان يصدران عن موارد ما تزال الحياة تتردد فيها ، غير ان الاعتماد عليها كان محدودا ، لان منطقة الاحتجاج كانت محدودة ، لا تعدو ان تكون بعض البيئات المحصورة التى كانت ما تزال تتعلق باسباب الحياة البدوية ، وقد عاش الازهرى بينهـــم دهرا طويلا بعد أن امتحن بالاسار فيهم ، ورآهم « يتتبعون مساقط الغيث ايام النجع ، ويرجعون الى أعــداد المياه ، ويرعون النعم ، ويعيشون بألبانهـــا ويتكلمون بطباعهم البدوية ، وقرائحهم التى اعتادوها ، ولا يكاد يقع فى منطقهم لحن او خطأ فاحش »(٤) .

ولكن هذه البقية ما لبثت أن اضمحلت حتى لم يعد لهؤلاء طباعهم البدوية ولاقرائحهم التى اعتادوها ، ولم يعد للدراسين مورد يصدرون عنه ، ولاللدرس شىء جديد يمده بالقوة والحياة .

وكان يمكن للدرس أن يحتفظ بأصالته وحيويته لو أن الدارسين كانوا يعون موضوع تخصصهم ، ويعرفون طبيعة عملهم ، ويدركون أن مصادر الدرس لم تنضب ، لأنها ماثلة ،ممثلة بما كتبه الادباء وانشئوه ، وبما ابتدع الشعراء من أساليب وتعبيرات ، علاوة على النصوص القرآنية ، وما دون المحدثون من صحاح الأحاديث ، وما ترك الدارسون الاوائل من تراث ضخم يتمثل فى النقول عن الفصحاء ، والحكاية عنهم ، والسماع منهم ، ولكن الدارسين لــم يمكنوا الدرس من الافادة من تلك الموارد الثرة بالزام أنفسهم المتابعة والتقليـــد ، وتحرجهم من الاحتجاج بكلام المعاصرين من منشئين وشعراء ومؤلفين ، وهى نظرة كانت وما تزال موضع جدال وخصومة بين القديم والجديد ، والمحافظـة والتجـــديد .

---

(٤) تهذيب اللغة ١/٧ .

كان الدارسون بعد القرن الرابع بمعزل عما يحيط بهم من موارد الدرس كانوا يتسقطون أبياتا لأعراب محكية او مكتوبة ، ويتحامون الافادة من شعر أبي تمام وأبي الطيب وأبي العلاء ومن كان يعاصرهم ومن كان يتقدمهم ، على أن الدارسين لم يقعوا على لكنة فى أشعارهم تحول دون الأخذ بكلامهم ، والاحتجاج به ، ولا على انحراف عن سنن العربية واصولها العامة ، ولم يجدوا فى أشعارهم من المآخذ والمعايب ما أخذ على من كان فى مقدمة من يحتج بشعره من شعراء الجاهلية وشعراء العصر الأموي كالنابغة والفرزدق ، وكل ما كانوا يرونه عيبا فى كلام هؤلاء أنهم كانوا متأخرين عن عصر الاحتجاج الذى حددوه هم وألزموا به أنفسهم ، وأنهم كانوا مجددين فيما ابتدعوا من أساليب وتعبيرات وصور حضارية جديدة ، وفيما أضافوا الى دلالات كثير من المفردات من دلالات جديدة أمدتها بها حضارة المرحلة التى عاشوا فيها ·

كان الدارسون متابعين مقلدين، وجدوا أسلافهم على أمة فأقتدوا على آثارهم، وتابعوهم حتى فى الامثلة والشواهد ، يعيدونها ويكررونها بدون أن يزيدوا عليها شيئا ، أو ينقصوا منها شيئا ·

كان هذا من أمر الدرس فى بغداد، أما أمر الدرس فى الآفاق ، فى الأندلس وفى مصر مثلا فلم يكن أحسن حالا ، بل كان اعتماده على نتاج الدارسين المشارقة فى البصرة وبغداد ، ولم تبد فيه من سمات الأصالة ما يمكن معه أن نجعل منه درسا له طابع خاص ، ولم يبد من الدارسين هناك أنهم أفادوا من الفصحاء الذين نزحوا بعد الفتح ، وانتشروا فى تلك الآفاق، أوعنوا بمشافهتهم والاخذ عنهم ، وجل ما جاء به أولئك شروح لمصنفات المشارقة وفى مقدمتها : كتاب سيبويه ، وجمل الزجاجي ، وايضاح الفارسي ، او تعليقات على تلك المصنفات ، او شروح لابيات الشواهد فيها ، او مصنفات تستمد مادتها من تلك

المصنفات ، وتنعقد أبوابها وفصولها على ابواب المصنفات وفصولها ، وتعرض فيها الآراء المختلفة عرضا لايقوم على اساس مذهبي كارتشاف أبى حيان ، وهمع السيوطى وغيرهما .

لهذا كان من التصنع أن يزعم زاعم أن الدرس النحوي كان يواصل مسيرته بالقوة والحياة اللتين عهدناهما فى نحو الأوائل،لان من تتبع مسيرة هذا الدرس على تعاقب العصور وامتداد المسافات يحس بأن الدرس النحوى انتهى ولم يعد فيه من سمات الدرس الا شكله .

كذلك من التصنع أن يطيل الكلام دارس فيما يسمى بالمذهب البغدادى الذى يقف بازاء المذهب البصرى والمذهب الكوفى ، او يزعم أن فى تلك الآفاق درسا نحويا متميزا ، أو أن للاندلس مدرسة نحوية ، ولمصر مدرسة نحوية ، فقد تتبعنا مسيرة الدرس النحوى فى تلك الآفاق فرأينا أن النحو فى الاندلس نشأ كوفيا على يد جودى بن عثمان ، ولم تعرف الاندلس نحو البصرة الا فى عهد متأخر على يد الأفشنيق الذى أدخل كتاب سيبويه الاندلس أول مرة ، ثم محمد ابن يحيى الرباحى أستاذ أبى بكر الزبيدى ، وبقى الدرسان يسيران جنباً الى جنب الى أن سرت فى بيئات الدرس عدوى التعصب لمذهب البصريين نهض به دارسون متابعون مقلدون ، فانتصر بهم هذا المذهب ، وانكمش ظل الدرس الكوفى زمانا ، ثم قدر له أن يسترد اعتباره بما كتبه ابن مضاء القرطبى ومادعا اليه ، ولم يكد الدارس المتتبع يجد شيئا جديدا فيما أُلف فى نحو البصريين ،ولا ما أُلف فى نحو الكوفيين ، ولم يجد فى دعوة ابن مضاء الا بعثا لنحو الكوفيين وآرائهم وطريقتهم فى تناول موضوعات النحو بالدرس .

وتتبعنا مسيرة الدرس فى مصر فرأينا ان النحو الذى عرفته مجالس الدرس فى مصر كان بصريا خالصا ، ولم نجد دارسا مصريا كان قد أخذ النحو عن أحد من الكوفيين ، ثم أصاب الدرس فى مصر ما أصاب الدرس فى بغداد من جمود وجدب .

ولم يلحظ الدارس أن شيئا جديدا طرأ على الدرس النحويّ فى تلك الآفاق ، او أنّ ملامح شخصية متميزة لاحت على اعمال النحاة فيها ، أمّا محاولة بعض الدارسين لاستخلاص مذهب خاص ينتسب الى البيئة الاندلسية ، او البيئة المصرية الى حدّ أنْ يسمى بمدرسة فمحاولة اثبت الدرس انها محاولة تستند الى وهم لا يمتّ الى الواقع بسبب ٠

يؤيد هذا ان صاحب المحاولة نفسه كان قد انتهى فى تتبعه مسيرة الدرس النحويّ فى الاندلس ومصر الى :

١ ـ أن الاندلس انما عرفت النحو الكوفى أول عهدها بهذا الدرس ، ثم عرفت الدرس البصريّ ، ثم نشأت طبقة من الدارسين نهجت نهجا بغداديا بتعمقها فى مصنفات البصريين والكوفيين ، ثم كان المتأخرون الذين وضعهم صاحب هذه المحاولة فى اتجاه المدرسة البغدادية ، ولم يشر الى خصائص أندلسية تجعل من الدرس النحويّ فى آلاندلس نحوا جديدا ٠

٢ ـ وان الدرس النحوى فى مصر نشأ بصريا أولا بأعمال ولاّد وبنيه ، ثم كان بغداديا بأعمال أبى علي الدينوريّ اذ أخذ عن ثعلب والمبرّد ، وأبي جعفر النحاس ، اذ أخذ عن تلاميذ المبرد وتلاميذ ثعلب ، ثم كان المتأخرون الذين جعلهم فى اتجاه المدرسة البغدادية ، ولم يشر أيضا الى ملامح شخصية مستقلة يمكن ان تنسب الدارسين فى مصر الى مذهب خاص ، أو مدرسة بعينها تسمى بالمدرسة المصرية ٠

ولا أرى هذه المحاولة الاّ ترفا وتأنقا لايليق مثلهما بجدّيّة البحث ٠

وانما عرضنا للدرس النحويّ فى الآفاق لتتبّع مسيرة الدرس البغدادى الذى سمى ـ بعد ـ بالكوفىّ ، ولتحديد (البغدادية) التى جرت على اقلام المؤلفين ، وكانت تجرى على ألسنة الدارسين ، ولتبديد الوهم الذى علق بأذهان

الدارسين المحدثين ،حين تصوروا أنْ البغدادية تعنى مذهبا آخر غير مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ٠

ومردّ تعلقهم بهذا الوهم :

١ ـ ماجاء فى فهرست ابن النديم من تصنيف النحويين ثلاثة أصناف ؛ بصريين وكوفيين ودارسين كانوا يخلطون المذهبين ٠

٢ ـ وشيوع اسم البغداديين فى مصنفات المتأخرين ، وتردده بازاء البصريين والكوفيين ٠

وقد ظهر لنا فى اثناء الفصول أنّ ابن النديم لم يرد بخلط المذهبين مذهبا ثالثا ، وأنّ البغداديين فى مصنفات المتأخرين هم الكوفيون ،لانهم يقفون مع الكوفيين فى اكثر مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين ، ولم يذكر لهم رأي يناقض رأى الكوفيين ٠ غير ان هذه التسمية جازت على الدارسين المحدثين فراحوا يفلسفون المسألة ويرسمون خطوطها ، ثم يطبقونها فى توسع لايقره البحث ، كما فعل الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (المدارس النحوية) ٠

* * *

الفهـــارس

فهرس أعلام الأشخاص

صنع هذا الفهرس على وفق المشهور من العلم ، أسمه او كنيته او لقبه ، باسقاط (ال) وصدر الكنية نحو (أ ب، ابن ، اخ) .

الهمزة

البـــاء

الثـــاء

الحـــاء

الخـــاء

الـــدال

الـــذال

الراء

الزاي

السين

الصاد

الضاد

الطاء

العين

النون

الهاء

الواو

اليـاء

فهرس

الهمـزة

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الراء

الزاى

السين

الشين

النـــون

الهــاء

الواو

اليـــاء

فهرس الآيات

فهرس الأشعار

فهرست انصاف الابيات

مصـــادر البحث ومراجعة

١ – أبو زكريا الفراء – أحمد مكي الانصاري – القاهرة ١٩٦٤

٢ – أخبار النحويين البصريين – السيرافى – كرنكو بيروت

٣ – أدب الكاتب – ابن قتيبة – ليدن – بريل ١٩٠٠

٤ – أسرار العربية – ابو البركات الانبارى – ليدن

٥ – الاضداد – أبو بكر بن الانبارى – الكويت ١٩٦٠

٦ – اعراب القرآن – المنسوب للزجاج – أبراهيم الابيارى – القاهرة ١٩٦٣

٧ – أعراب ثلاثين سورة – ابن خالويه – دار الكتب المصرية – القاهرة

٨ – الاغاني – أبو الفرج الاصفهانى – دار الكتب المصرية – القاهرة

٩ – الاغراب فى جدل الاعراب – أبو البركات الانبارى – سعيد الافغانى ١٩٥٧

١٠– الامتاع والمؤانسة – أبو حيان التوحيدى – لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٣

١١–أنباه الرواة بأنباه النحاة–القفطي – تح محمد أبيالفضل أبراهيم – القاهرة

١٢– الانصاف فى مسائل الخلاف – أبو البركات الانبارى – مط السعادة – القاهرة

١٣– الايضاح في علل النحو – أبو القاسم الزجاجي – مازن المبـــــارك . دار العروبة – القاهرة ١٩٥٩

١٤– البحر المحيط – أبو حيان التوحيدى – مط النصر الحديثة –

١٥– البرهان في علوم القرآن – الزركشى – تح محمد أبي الفضل ابراهيم – دار أحياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٥٧

١٦– بغية الوعاة – السيوطي – تح محمد ابي الفضل أبراهيم – البابى الحلبى ١٩٦٤

١٧– البيان والتبيين – الجاحظ – تح عبدالسلام هارون – القاهرة

١٨– تاريخ الادب العربى – بروكلمان . الطبعة العربية

١٩– تاريخ الطبري – ابو جعفر محمد بن جرير – ليدن ١٨٨٥–١٨٨٩

٢٠– تاريخ بغداد – الخطيب البغدادى . مط السعادة – القاهرة ١٣٤٩ هـ

٢١– التبيان في شرح الديوان – نشر مصطفى السقا واخرين – البابي الحلبى– القاهرة ١٩٥٦

٢٢– التسهيل – أبن مالك . تح محمد كامل بركات – دار الـــكاتب العربى – القاهرة ١٩٦٧

٢٣– تهذيب التهذيب – ابن حجر العسقلانى – حيدر آباد ١٣٢٥ هـ

٢٤– تهذيب اللغة – أبو منصور الازهرى ، ج١ تح عبدالسلام هارون – الـدار المصرية – القاهرة ١٩٦٤

٢٥- الجامع لاحكام القرآن - أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي · دار الكاتب العربي - القاهرة

٢٦- جذوة المقتبس - الحميدي - الدار المصرية - القاهرة ١٩٦٦

٢٧- حاشية الصبان - دار احياء الكتب العربية - القاهرة

٢٨- الحجة في علل القراءات السبع - أبو علي الفارسى - تح على النجدى ناصف وآخرين - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٥

٢٩- الحجة في القراءات السبع - ابن خالويه تح عبدالعال سالم مكرم - دار الشرق - بيروت ١٩٧١

٣٠- حياة الشعر في الكوفة - يوسف خليف - دار الكاتب العربى - القاهرة ١٩٦٨

٣١- الحيوان - الجاحظ تح · عبدالسلام هارون - القاهرة ١٩٣٨

٣٢- خزانة الادب ولب لباب لسان العرب - البغدادى - بولاق ١٢٩٩ هـ

٣٣- الخصائص - ابن جني · تح محمد على النجار · دار الكتب ·القاهرة

٣٤- ذيل الامالي والنوادر - ابو على القالى - دار الكتب - القاهرة ١٣٤٤ هـ

٣٥ - الرد على النحاة - أبن مضاء القرطبي تح شوقي ضيف - دار الفكر العربى- القاهرة

٣٥- الزجاجى - حياته وآثاره ومذهبه النحوي - مازن المبارك - دمشق

٣٦- سر صناعة الاعراب - ابن جني تح مصطفى السقا وآخرين · البابي الحلبى - القاهرة

٣٧- شرح ابن عقيل - الهامش - محمد محيي الدين عبدالحميد

٣٨- شرح الاشموني - نشر محمد محيي الدين عبدالحميد · البابى الحلبى - القاهرة

٣٩- شرح التصريح على التوضيح - خالد الازهرى - دار احياء الكتب العربية- القاهرة

٤٠- شرح الشافية - الرضي الاسترابادى - استانبول

٤١- شرح الكافية - الرضي الاسترابادى - الاستانة ١٢٧٥ هـ

٤٢- شرح المفصل - ابن يعيش - الطباعة المنيرية - القاهرة

٤٣ـ الصاحبي ـ أحمد بن فارس ـ نشر الشنقيطي ـ المطبعة السلفية القاهرة
٤٤ـ صبح الاعشى ـ القلقشندي ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٣
٤٥ـ صحيح البخارى ـ مط صبيح ـ القاهرة ١٣١١ هـ
٤٦ـ ضحى الاسلام ـ أحمد امين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٦
٤٧ ـ طبقات النحويين واللغويين ـ أبو بكر الزبيدى ـ القاهرة
٤٨ـ غاية النهاية في طبقات القراء ـ ابن الجزرى ـ نشر برگشتراسر ـ القاهرة
٤٩ ـ الفهرست ـ ابن النديم ـ الرحمانية ـ القاهرة ، لايبزك
٥٠ـ فى اصول النحو ـ سعيد الافغاني ـ مط الجامعة السورية ١٩٥٧
٥١ـ قصة الحضارة ـ ديورانت ـ ترجمة زكى نجيب محمود وآخرين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة
٥٢ـ الكتاب ـ سيبويه ـ بولاق ـ القاهرة
٥٣ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار بيروت ـ دار صادر ـ بيروت
٥٤ـ لمع الادلة ـ أبو البركات الانباري ـ تح سعيد الافغاني ـ مطالجامعة السورية ١٩٥٧ .
٥٥ـ ما ينصرف وما لا ينصرف ـ الزجاج ـ تح هدى محمود قراعة ـ القاهرة٩٧١
٥٦ـ مجالس العلماء ـ الزجاجي تح عبدالسلام هارون ـ الكويت ١٩٦٢
٥٧ـ مجالس ثعلب ـ تح عبدالسلام هارون ـ دار المعارف ـ القاهرة
٥٨ـ مختصر كتاب البلدان ـ ابن الفقيه ـ تح دي غويه ـ ليدن ـ بريل١٣٠٢هـ
٥٩ـ المدارس النحوية ـ شوقي ضيف ـ دار المعارف . مصر ٦٨ ١٩٦٨
٦٠ـ مدرسة البصرة النحوية ـ عبدالرحمن السيد ـ دار المعارف ـ القاهرة ٩٦٨
٦١ـ مدرسة الكوفة ـ مهدي المخزومي . البابي الحلبى ـ القاهرة ١٩٥٨
٦٢ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـ عفيف الدين اليافعي . حيدر آباد ١٣٣٧هـ
٦٣ـ مراتب النحويين ـ ابو الطيب اللغوي ـ تح محمد ابي الفضل أبراهيم ـ مكتبة النهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٥ .
٦٤ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها ـ السيوطي ـ تح محمد أحمد جاد المولى وآخرين ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة

٦٥ـ المعارف ـ ابن قتيبة ـ تح ثروة عكاشة ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٠
٦٦ـ معاني القرآن ـ الفراء ـ القاهرة ١٩٥٥ـ١٩٧٣
٦٧ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ دار المأمون ـ القاهرة ١٩٣٦
٦٨ـ مغني اللبيب ـ ابن هشام ـ تح مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ٠دمشق ١٩٦٤
٦٩ـ مفاتيح العلوم ـ الخوارزمى ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة
٧٠ـ المقتضب ـ المبرد ـ تح محمد عبدالخالق عضيمة ـ القاهرة ١٣٨٥ هـ
٧١ـ مقدمة الانصاف ـ گوتولدڤايل ـ ترجمة عبدالحليم النجار
٧٢ـ مقدمة البستاني لشرح ديوان المتنبي ـ بيروت
٧٣ـ المقدمة المحسبة ـ ابن بابشاذ ٠ تح حسام النعيمي ـ بغداد
٧٤ـ مناهل العرفان ـ الزرقاني ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٧٢هـ
٧٥ـ الموجز في النحو ـ أبن السراج البغدادى ـ تح مصطفى الشويمى ـ بيروت
٧٦ـ نزهة الالباء ـ القاهرة ـ الطبعة الحجرية
٧٧ـ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ـ محمد الطنطاوى ـ ليبيا
٧٨ـ النشر في القراءات العشر ـ ابن الجزرى ٠ مط مصطفى محمد ـ القاهرة
٧٩ـ نظرات في اللغة والنحو ـ طه الراوي ـ المكتبة الاهلية ـ بيروت
٨٠ـ النوادر في اللغة ـ أبو زيد الانصارى ـ بيروت
٨١ـ نور القبس ـ الحافظ اليغموري ـ نشر زلهايم
٨٢ ـ همع الهوامع ـ السيوطى مط السعادة ـ مصر ١٣٢٧ هـ
المجلات ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق م١٤ ج٩ ، م٤٧ ج٤

فهرست الموضوعات

تصحيح أخطاء الطبع

ص/س	الخطأ	الصواب
١٦/٥	حتى	حتى صار
١٧/٩	القراء	القرآن
٢١/٢	الكنسائي	للكسائي
٢٢/٣	الشدة	لشدة
٢٣/١٧	بن	ابن
٢٥/١٠	وأو	وأنّ
٢٥/٧	جيش	حُبيش
٢٥/١٦	يلغ	يلمّ
٢٦/١٨	أكر	الأحمر اكثر
٢٨/١١	حملاتتهجمات	حملات وتهجمات
٢٩/١١	بن	ابن
٣٦/٤	ومهما	ومهما يكن
٣٧/٧	التعليل	لتعليل
٥١ هامش (١٧)	بن النديم	ابن النديم
٦٤/١٢	ولحمٍ	ولحم طيرٍ
٧٣/٤	تقعّدهم	تقعّرهم
٧٣/٥	استنبطوا	استنبطوها
١٠٦/٦	السخرية	السخرية
١٢١/١٤	لم يقولوه	مالم يقولوه
١٢٣/٧	فـ[illegible]وض	فمنقوض
١٣٣/٢١	يـ[illegible]	كان
١٣٥ هامش (٤٥)	بن النديم	ابن النديم
	لبخلص	ليخلص

ص/س	الخطأ	الصـواب
٣/١٣٩	مفرتبط	ويرتبط
١٧٦ (الهوامش)	بغية الرعاة	بغية الوعاة
١٧/١٧٩	الكافي	الكوفي
١١/١٩٥	ابن	بن
١١/٢٠١	خـافِ	خـافِ
١٣/٢٠٥	أنتهت	انتهت
٢٠/٢٠٥	المعرور	المعروف
٧/٢٠٧	وتصدّرها	وتصدّرهما
١٤/٢٠٩	حلبابا	جلبابا
٢١٣/هامش ٥١	برقَـون	يرقَـون

يكون السطر ١٨ من الصفحة٢١٦ والسطر ٣ من الصفحة٢١٧ أحدهما محل الثاني .

ص/س	الخطأ	الصـواب
٥/٢٢٧	بالبغداديون	بالبغداديين
٧/٢٣٣	السجتانى	السجتاني
٨/٢٤٨	أفنحِن	امتُحِن

رقم الايداع فى المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٨ / ١٩٧٥

مطبعة السعدون ـ بغداد هاتف ٨٦٣٣٢

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغداد

السعر ٢٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة بغداد
١٩٧٥ ـ ١٣٩٥